الزبدة في شرح البردة

تأليف العلامة
الملا علي القاري
(المتوفى سنة ١٠١٤هـ)

يطبع محققاً على نسختين خطيتين

تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبوش

كالزهر في ترف والبدر في شرف
والبحر في كرم والدهر في همم

أكرم بخلق نبي زانه خلق
بالحسن مشتمل بالبشر متسم



دار اللباب

الزُّبْدَةُ
في
شَرْحِ البُرْدَةِ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٣٨هـ-٢٠١٧م

9 786058 323865

دار اللباب
للدِّراسَاتِ وتَحقِيقِ التُّراثِ

تركيا - اسطنبول - الفاتح - اسكندر باشا - كزتاش - مفرق بنك الكويت
مقابل مستشفى الفاتح - بناء رقم ٧ - ط ٥

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com

الزبدة في شرح البردة

تأليف العلامة

الملا علي القاري

(المتوفى سنة ١٠١٤هـ)

يطبع محققا على نسختين خطيتين

تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبوش

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النبيِّ الكريمِ الأمين، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

اللَّهمَّ صَلِّ على مَن جُمِعَتْ له كلُّ الفَضَائِل، واجْتَمَعَتْ فيهِ خيرُ الشَّمائِل، فمَن لجَمْعِها وعَدِّها يُحاوِل، فمَهْما اسْتَعْمَلَ مِن وسائل، فسيَفْنَى العُمر ولا ينتهِي الإحْصَاء، كيف وهو خيرُ مَن حَمَلتِ الأرضُ وأظلَّتِ السَّماء؟ فصاحةُ الـمَنْطقِ مع حُسْنِ البَيَان، وبلاغةُ القولِ في طلاقةِ اللِّسان، شُجاعٌ لا يَعْرِفُ الخوفَ والفَزَع، قويٌّ لا يَملِكهُ القَلَقُ والجَزَع، لا يَجْبُنُ في الحادِثاتِ ولا لعدوٍّ يَسْتكين، بل يُواجِهُ برباطةِ جأشٍ وفؤادٍ مَكِين.

لا يَقْهَرُ يَتيماً ولا يَنْهَرُ سائلاً، ولا يَزْدَرِي بائساً ولا يَحْقِرُ عائلاً، يُجالِسُ الفُقراء ويُحبُّ المساكين، فقلبُه يُنْبوعُ رحمةٍ مَعِين، يُؤانِسُ الأصحابَ ويَسْتشيرُهم، ويَسأَلُ عنهم ويَزُورُهم، فكان أَحَبَّ إليهِم مِن النَّفْسِ والمالِ والبَنين، آذاهُ قومُه فأَكْثروا، فحتَّى الرَّباعِيَةَ كَسَروا، فما زادَ أنْ قال: اللَّهمَّ اغْفِرْ لقومِي فإنَّهم لا يَعلَمُون، هو الموصوفُ باشتِمالِ الحُسْنِ وإحاطَتِهِ جميعَ حالاتِهِ ومَقَالاتِه، وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه، والمُتَّصِفُ بالبِشْرِ التَّامّ، والبَشَاشةِ على طريقِ الدَّوَام، والابْتِسامِ في وجهِ الخاصِّ والعامّ، على وجهٍ يرتضِيهِ الملِكُ العلَّام، عليه الصَّلاةُ والسَّلام، ما دامَتِ اللَّيالي والأيَّام.

فضائلُ ليسَ لها حَدّ، فالعُذْرُ فقد أَعْيَاني العَدّ، والعِلْمُ بالمُنْتَهَى عند الخالقِ العَلِيم، الذي حَلاَّهُ بقولِهِ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وجَلَّاهُ بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا

رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وتَولَّاه بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ووَصَفهُ بقولِهِ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وبعد:

فقد كَثُرَ المادِحُونَ لهذا النبيِّ الكريم، والواصِفُون لِمَا أَوْلَاهُ اللهُ مِن الخُلُقِ العظيم، ومِن هؤلاءِ الشاعرُ الصُّوفيُّ شرفُ الدِّين البُوصيريُّ، حيث تُعَدُّ قصيدته «البُردة» الموسومَةُ بـ: «**الكواكبُ الدُّرِّيَّةُ في مَدْحِ خَيْرِ البَرِيَّة**» مِن أهمِّ القَصائدِ في هذا الـمَديحِ النَّبويِّ، كما كانَتْ مصدرَ وَحْيٍ لكثيرٍ مِن القصائدِ التي أُنْشِئَتْ بعد البُوصِيريِّ في هذا الباب، ومَنْبَعَ إلهامٍ للشُّعراءِ والكُتَّاب، فكَمْ مِن قصائِدَ نُسِجَتْ على مِنْوالها، وكَمْ مِن كُتبٍ أُلِّفَتْ في شرحِها وإعرَابها، وكان كثيرٌ مِن شُرَّاحِها مِن علماءِ العربيَّة البارِزين، وفي شُروحِهم مِن الفوائدِ النَّحْويَّةِ، والصَّرْفيَّةِ، والبَلَاغيَّةِ، واللُّغَويَّةِ، والأَدَبيَّةِ والتَّاريخيَّةِ، الشَّيءُ الكَثِير.

فمَن هو البُوصيريُّ؟ وما هي قصيدتُه «البردة»؟

البُوصيريُّ: هو محمدُ بنُ سعيدِ بنِ حمَّادِ بنِ عبدِ اللهِ الصِّنهاجيُّ المصريُّ، أبو عبدِ اللهِ، شَرَفُ الدِّين، كانَ أحدُ أَبَوَيْهِ مِن «بُوصِير» والآخَرُ مِن «دِلَاص» فرَكَّبَ لَهُ نِسْبَةً مِنْهُمَا وقال: «الدِّلاصِيريّ»، ولكن اشْتَهَرَ بـ«البُوصِيريّ»، وكانَت لهُ أشياءُ مثلُ هذا يركِّبُهَا مِن لَفْظَتينِ، اشْتَغَلَ بصناعةِ الكتابةِ والتَّصرُّفِ، وكان شاعراً حَسَنَ الدِّيباجةِ، مَلِيحَ المعاني، تُوفِّي سنة (٦٩٦هـ).

ولَـمْ يُذْكَـر البُوصيـريُّ عنـدَ مَـن تَرْجَـمَ لـه فـي عِـدادِ العلمـاءِ، ولا أنَّـه مِـن أصحـابِ العلمِ الشَّـرْعيِّ، بل هو صوفـيٌّ مِن أتباعِ الطَّريقةِ الشَّـاذِليَّةِ، كما أنه شـاعرٌ ظريـفٌ تَجـرِي فـي شـعرِه النُّكـتُ المُسْـتَمْلَحةُ، ولهُ فـي مَدِيـحِ النبـيِّ ﷺ القصائدُ

الحِسَان، كما لَهُ في شَكْوَى الحال وذمِّ الموظَّفِينَ في ذلك الزَّمَان، قصائدُ لا تَخلُو مِن ذكاءٍ مع صَنعةِ الإتْقان، فهو يَذْكُرُ أنَّ الموظَّفينَ كانوا يَسْرِقونَ الغِلَال، وأنَّهم لولا ذلك ما لَبِسُوا الحريرَ أو شَرِبوا الخُمورَ وعاشُوا في الدَّلَال، وأنَّ مِن الكُتَّاب طائفةً تظاهَرَتْ بالتَّنَسُّكِ وعُدَّتْ مِن الزُّهَّاد، مع أنَّها تملأُ بُطونَها بالسُّحْتِ وأكلِ أموالِ البلادِ والعِبَاد، ويَذْكُرُ أنَّ القُضاةَ خانُوا الأمانة، وبرَّروا بتأويلِ القرآنِ والحديثِ تلك الخيانة، وفي ذلك يقولُ:

نَقَدْتُ طَوَائِفَ المُسْتَخْدَمِينا ... فلَمْ أَرَ فيهِمُو حُرًّا أَمِينا
فكَمْ سَرَقُوا الغِلَالَ وما عَرَفْنا ... بِهِمْ فكأَنَّهمْ سَرَقُوا العُيونا
ولولا ذاكَ ما لَبِسوا حريراً ... ولا شَرِبُوا خُمورَ الأَنْدَرِينا
تَنَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وعُدُّوا ... مِنَ الزُّهَّادِ والمُتَوَرِّعِينا
تَفَقَّهتِ القُضَاةُ فخانَ كلٌّ ... أَمَانَتَه وسَمَّوهُ الأَمِينَا
وَمَا أَخْشَى على أَمْوَالِ مِصْر ... سِوَى مِن مَعْشَرٍ يتأَوَّلُونا

كما يَذكُرُ أنَّ المسلمينَ والأقباطَ كانوا مختلِفِينَ، فكان المسلمونَ يقولونَ: لنا بمصرَ حقوقٌ، وكان القِبْطُ يقولون: نحنُ ملوكُ مصرَ، وكان اليهودُ يستَحِلُّون مالَ الطَّوائفِ أجمعين، وفي ذلك يقولُ:

يقولُ المُسْلِمون لنا حُقوقٌ ... بها ولَنَحْنُ أَوْلَى الآخِذِينا
وقال القِبْطُ نحنُ مُلوكُ مِصْرَ ... وإنَّ سِواهُمو هُمْ غاصِبَونا
وحَلَّلتِ اليهودُ بحفظِ سَبْتٍ ... لهمْ مالَ الطَّوائفِ أَجْمَعِينا[1]

---

(١) انظر: «الوافي بالوفيات» (٣/ ٨٨)، و«فوات الوفيات» (٣/ ٣٦٢). وانظر كذلك مقدمة «العمدة في إعراب البردة» لعبد الله الجاجة (ص ١٣).

وقصَّةُ شفائهِ مِن الفالجِ بعدَ نَظْمِهِ للبُردةِ معروفةٌ مشهورةٌ، واللهُ أعلمُ بصحَّتها، وسيَذْكُرُها الشَّارحُ في بدايةِ شَرْحِهِ، وقد جَعَلَها البعضُ دلالةً على عقليَّةِ البُوصيريِّ الموسومةِ بالطِّيبةِ والسَّذاجةِ مثلَ أكثرِ الصُّوفيَّة.

ولعلَّ حكايةَ البُوصيريِّ هذهِ ـ مع ما في قَصيدتهِ مِن القوَّةِ والجزالةِ ـ هي سببُ ما صاحَبَ البُرْدةَ مِن الخُرافات، فقد ذَكَر بعضُ الشُّرَّاحِ لكلِّ بيتٍ مِن أبياتها فائدةً: فبعضُها أمانٌ مِن الفقرِ، وبعضُها أمانٌ مِن الطَّاعون، وبيتٌ لمرضِ الصَّرْعِ، وبيتٌ للحفظِ مِن الحريقِ، وآخَرُ للتَّوفيقِ بينَ الزَّوجَينِ...!

وممَّا يَدلُّ على مكانَتِها عندَ البعضِ تلك العنايةُ التي كان يوجِّهُها العلماءُ الأزهريُّون في عَقْدِ الدُّروسِ في يَوْمَي الخميسِ والجُمعةِ لدراسةِ «حاشية الباجُوري على البُردة»، وهي دروسٌ كانَتْ تتلقَّاها جماهيرُ مِن الطُّلَّابِ، ويَتخيَّرونَ لها أوقاتَ الفراغ.

وأمَّا أثرُ البردةِ في الشِّعرِ والشُّعراءِ، فعظيمٌ جدًّا، فقد ضَمَّنوها، وشَطَّروها، وخَمَّسوها، وسَبَّعوها، وعَشَّروها، وعارَضوها[1].

وتسميتُها بالبردةِ ذُكِرت فيه قصصٌ وأقوالٌ ذَكَرها صاحبُ «كشف الظنون»، كما ذَكَرَ جمعاً ممَّن تَصَدَّوا لشرحِها، ومنهم:

١ ـ العلَّامةُ أبو شامَةَ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ إسماعيلَ الشَّافعيُّ المُقْري النَّحْويُّ المُؤرِّخُ، المتوفَّى سنة (٦٦٥هـ)، وقد نَقَلَ العلَّامةُ القاري عنه مرَّةً واحدةً.

٢ ـ جمالُ الدِّينِ: عبدُ اللهِ بنُ يوسُفَ، المعروفُ بابنِ هشامٍ النَّحويِّ، المتوفَّى سنة (٧٦١هـ).

٣ ـ جَلَالُ الدِّينِ: محمدُ بنُ أحمدَ المحلِّيُّ الشَّافعيُّ، المتوفَّى سنةَ (٨٦٤هـ). وقد أَكْثَرَ القاري مِن النَّقلِ عنه.

---

(١) انظر: «العمدة في إعراب البردة» المقدمة لعبد الله الجاجة (ص ٢٢).

٤ ـ الشَّيخُ زَينُ الدِّينِ: خالدُ بنُ عبدِ اللهِ الأزهريُّ، المتوفَّى سنةَ (٩٠٥هـ). وقد جاءَ في هامشِ إحدَى النُّسخَتَينِ الخطيتين المعتمدتين في تحقيق هذه الرسالة بعضُ النُّقولِ عنه، وقد أثْبتناها في الحَوَاشي.

٥ ـ الشيخُ شهابُ الدِّينِ: أحمدُ بنُ محمدٍ القَسْطَلانيُّ، شارحُ «البخاري»، المتوفَّى سنةَ (٩٢٣هـ)، وسمَّاه: «مَشَارِقُ الأنوارِ الـمُضِيَّة في شرحِ الكواكبِ الدُّرِّيَّة».

٦ ـ القاضـي: زكريَّـا بـنُ محمدٍ الأنصـاريُّ، المتوفَّى سـنةَ (٩٢٦هـ)، سـمَّاه: «الزُّبـدة الرَّائقـة، في شـرحِ البُـرْدةِ الفائِقَة».

٧ ـ عصامُ الدِّين: إبراهيمُ بنُ عَرَبْشَاه الإسْفَرايينيُّ، المتوفَّى سنةَ (٩٤٤هـ)، وهو مِن الشُّروحِ التي أكثرَ القاري مِن النَّقلِ عنها.

٨ ـ الشيخُ مُحيي الدِّين: محمدُ بنُ مُصطفى، المعروفُ بـ: شيخ زاده، المتوفَّى سنة (٩٥١هـ).

٩ ـ شرحُ الملَّا عليِّ القارِي، الذي بينَ أَيْدِينا، وهو مِن أحسنِ الشُّروح كما قالَ صاحبُ «كشف الظنون»[١].

*** المآخذ على القصيدة:**

وهذه القصيدةُ انْتَقَدها كثيرٌ مِن أهلِ العلمِ في أبياتٍ مُعيَّنةٍ لِـمَا فيها مِن الغُلُو بنظرِهِم، ودافَعَ عنها آخَرونَ مُعلِّلينَ ومُؤوِّلينَ ما نُقِدَ منها! ومِن هذهِ الأبياتِ الـمُنْتقدةِ قولُه في البيتين (٨٠) و(٨١):

ما سـامَني الدَّهرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ به	إلَّا ونِلْـتُ جِـواراً منـهُ لَـمْ يُضَـمِ
ولا الْتَمَسْـتُ غِنَـى الدَّارَيْـنِ مِـن يَدِهِ	إلَّا اسْـتَلَمْتُ النَّـدَى مِن خيرِ مُسْتَلَمِ

(١) انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٣٣١).

ففيهما مخالَفةٌ لقولِه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولحديثِ: «وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله»، ولقولِه تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧].

ومِن ذلك قولُه في البيتينِ (١٣٥) و(١٣٦):

ومَــنْ تكُــنْ برَسُــولِ اللهِ نُصْرتُــهُ إنْ تَلْقَـهُ الأُسْـدُ فـي آجامِهـا تَجِـمِ
ولَـنْ تَـرَى مِـن ولـيٍّ غيـرِ مُنتَصِـرٍ بـه ولا مِـن عَـدُوٍّ غيـرِ مُنْقَصِـمِ

فإنَّ طَلَبَ النَّصرِ لا يكونُ إلَّا مِن اللهِ، والنَّاصرُ والوليُّ هو اللهُ وحدَه ولا أَحَدَ سِوَاه، كيف وهو القائلُ ولَمْ يَسْتَثْنِ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧، والتوبة: ١١٦، والعنكبوت: ٢٢، والشورى: ٣١].

ومِثْلهُ قولُه في البيتِ (١٤٩):

ومُنْــذُ أَلْزَمْــتُ أفــكارِي مَدَائِحَــهُ وَجَدْتُــه لخَلَاصِــي خَيْــرَ مُلْتَــزِمِ

فإنَّ الانْتِصارَ والخلاصَ يكونُ بالالْتِجاءِ إليه سبحانهُ، وطَلَبِ العونِ منهُ، لا بإنشادِ القصائدِ في مَدِيحِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] لا قصائدُ المديحِ.

وقوله في البيت (١٤٦):

فــإنَّ لــي ذمَّــةً مِنْــهُ بتســمِيَتي محمَّـداً وَهُـوَ أَوْفَـى الخَلْـقِ بالذِّمَـمِ

فكَمْ ممَّن يُسمَّى محمداً ولا يَسْتحِقُّ مِن رسولِ اللهِ ذِمَّةً ولا عَهْداً، ولو نَظَرَ إلى زمانِنا لرَأى مِن هذا العَجَبَ العُجَابَ.

ومِن المآخِذِ أيضاً القَسَمُ بغيرِ اللهِ تعالى في قوله في البيت (٧٥):

أَقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لَهُ مِن قَلْبِهِ نِسبةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ

ومنها قوله في البيت (١٥٦):

لعلَّ رحمةَ ربِّي حينَ يَقْسِمُها تَأْتي على حَسَبِ العِصْيانِ في القِسَمِ

وفي هذا ما فيه، فإنَّ رحمةَ الله لا يُمْكنُ أنْ تُقْسمَ على حَسَبِ المعاصي، بل على قَدْرِ الطَّاعاتِ تكونُ الرَّحماتُ مِن مالكِ الأرضِ والسَّماوات.

ومن ذلك أيضاً المبالَغةُ في المديحِ؛ كقولهِ في البيتِ (٤٣):

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمُ واحْكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ

فكأنَّه يقولُ: امْدَحْه بما شِئْتَ مِن أنواعِ المديحِ، وصِفْه بما شِئْتَ مِن الأوصافِ، لكنْ لا يَصِلْ بكَ المدحُ إلى تأليهِهِ كما فَعَلَتِ النَّصارَى مع عيسى عليه السَّلامُ، وفي هذا ما فيه.

لكنْ لعلَّ أكثرَ بيتٍ أثارَ الجدَلَ حولَهُ هو قولُه في البيت (١٥٤):

فإنَّ مِن جُودِكَ الدُّنيا وضَرَّتَها ومِن عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ

كيف واللهُ سبحانهُ قد أَمَرَ النبيَّ ﷺ بأنْ يقولَ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

أي: لو كُنْتُ أعلمُ الغيبَ لكانَتْ حالي على خِلَافِ ما هي عليه؛ مِن استِكْثارِ الخيرِ واجْتِنابِ السُّوءِ والمضارِّ حتَّى لا يمسَّني شيءٌ منها، ولم أَكُنْ غالِباً مرَّة وغيرَ غالبٍ أُخرى في الحروب.

وقد ردَّ بعضُهم على البُوصِيريِّ في بيتِهِ هذا وما شابَهَهُ من أبياتٍ بقوله: مُقْتَضى هذه الأبياتِ عِلْمُ الغيبِ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّ الدُّنيا والآخرةَ مِن جُودِه، وتَضَمَّنتِ الاستغاثةَ به ﷺ مِن أعظمِ الشَّدائدِ ورجائهِ لكَشْفِها... وهذه الأمورُ مِن خَصائصِ الرُّبوبيَّةِ والأُلُوهيَّةِ التي ادَّعَتْها النَّصارى في المسيحِ عليه السَّلامُ، وإنْ لَمْ يَقُلْ هؤلاءِ: إنَّ محمَّداً هو اللهُ، أو: ابنُ اللهِ، ولكنْ حَصَلتِ الـمُشابَهةُ للنَّصارى في الغُلُوِّ الذي نَهى عنه ﷺ بقولِهِ: «لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النَّصارَى ابنَ مَريمَ، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه»[(١)]، والإطراءُ هو المبالغةُ في المدحِ حتَّى يَؤُولَ الأمرُ إلى أنْ يُجعَلَ للممدوحِ شيءٌ مِن خصائِصِ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهية[(٢)].

فهذا بعضُ ما قيلَ على البُوصيريِّ في هذه القصيدةِ.

* **محاسنُ القصيدة**: لكنَّ هذا كلَّه لا يمنعُنا أنْ نُشيدَ بقوَّةِ شِعْرِه وجزالتِه، وخصوصاً في هذه القصيدةِ التي لَمْ تَزَلْ غُرَّةَ المَدَائحِ النَّبويَّةِ، حتَّى ذاعَ في الآفاقِ صِيتُها، وتَرَنَّمَت المجالسُ والمَحافِلُ بأبياتِها التي اتَّسَمتْ بما اتَّسمَ به شعرُ البُوصيريِّ مِن كونهِ فِي غَايَةِ الحُسْنِ واللَّطافةِ، وقمَّةِ العُذوبةِ والانْسِجام، فقد عُدَّتْ مِن أجملِ القصائدِ وأقواها؛ لِمَا حَوَتْه مِن براعةِ التَّصويرِ وحُسْنِ التَّعبيرِ، ودِقَّةِ التَّشبيهِ والتَّصْويرِ، ورِقَّةِ الألفاظِ في مواضِعِ المدِيحِ والحِكَمِ ونحوِها، وشدَّتها وفَخَامَتِها في وصفِ الحروبِ وأشباهِها، فمِن جميلِ المديحِ قولُه:

أكْـرِمْ بخَلْـقِ نبـيٍّ زانَـهُ خُلُـقٌ ... بالحُسْـنِ مشْـتَمِلٌ بالبِشْـرِ مُتَّسِـمِ
كالزَّهـرِ فـي تَـرَفٍ والبدرِ في شَـرَفٍ ... والبحـرِ فـي كَـرَمٍ والدهـرِ فـي هِمَمِ

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) انظر: «الرد على البردة» لعبد الله بن عبد الرحمن الملقب بـ (أبابطين) (ص ١٣).

ومِن مَلِيحِ الحِكَمِ قولُه:

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْه شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
فاصْرِفْ هَوَاها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ

إلى آخرِ الأبيات.

ومِن تصويرِ الحروبِ قولُه في وصفِ دينِ الإسلامِ وقد حلَّ بساحةِ الكفَّار:

كأنَّما الدِّينُ ضيفٌ حَلَّ ساحَتَهم ... بكلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِدَا قَرِمِ
يَجُرُّ بَحْرَ خَميسٍ فوقَ سابِحَةٍ ... يَرْمِي بمَوْجٍ مِن الأبطالِ مُلْتَطِمِ

فانْظُرْ إلى هذِه التَّشبيهاتِ البليغةِ، والمعاني المَتينةِ، والألفاظِ الفخمةِ القويَّة، حيث استَعْمَلَ ألفاظَ: (القَرْم) و(اللَّحْم) و(الالْتِطام)، المناسِبةَ لمقامِ الطَّعنِ والضَّربِ في الحرب، كما شبَّهَ الخميسَ ـ وهو الجيشُ العظيمُ ـ بالبحرِ في المَهَابةِ والجَرَيان، والإهلاكِ واللَّمَعان، وتَمَوُّجِ بعضِهِ ببعضٍ في المَيْدانِ والهَيَجان، وشبَّه أفواجَ المقاتلينَ بأمواجِ البحرِ في التَّتابُعِ والتَّدافُعِ، وذلك البحرُ يَرْمِي مَوجاً مُتلاطِماً بتَلَاحُقٍ، وهو الأبطالُ التي تَتَصادَمُ وتَتَسابَق، وتتصاكَكُ أسلحتُهم وتتلاصَق.

* شرحُ العلامةُ الملا علي القاري:

فهذه القصيدةُ مِن أجملِ قصائدِ المديحِ إنْ لم تكنْ أجملَها، وإنْ كان بعضُ ألفاظِها ومَعانيها يحتاجُ إلى تَفْسير، وبعضُ صُورِها يتطلَّبُ بيانَ روعةِ ذلكَ التَّصوير، فقد جاءَ شرحُ العلامةُ القاري هذا ليُزيحَ الغموضَ عن مَعانيها، ويُبرزَ بُعْدَ مَرامِيها، بعباراتِهِ الجميلةِ الرَّخِيمة، وعِظَاتِهِ الحسنةِ الكريمة، وسمَّاها:

«الزُّبْدةُ في شرحِ البُرْدَة»

فجاءَتْ كما أرادَها مؤلِّفُها، مِن أجملِ ما خَطَّهُ القَلَم، رائعةً مِن رَوائعِ الأدبِ

والحِكَم، وإذا كانَ صاحبُ البُردةِ فيَّاضَ المشاعرِ فيها، صادقَ العواطِفِ في مَعَانيها، فإنَّ الشَّارِحَ قد تَماهَى مع هذا الفَيضِ والصِّدْق، فجاءُ شرحُه بكلماتٍ تَدخُلُ إلى القلبِ فتجعلُه يَدُق، وعباراتٍ تَـهُـزُّ المشاعِرَ بما فيها مِن الصِّدْق، تَفِيضُ نُصحاً وشفقةً ودعوةً إلى التوبة واتِّباعِ الحقّ، فهي تعبيرٌ عن الفُيوضاتِ أكثرُ مِنها شرحاً للأبيات، وتصويرٌ للمَشاعِرِ أكثرُ مِن رَصْفِ الكلمات، فكانَ الشَّرحُ جُرْعةً إيمانيَّة، ونَفْحةً ربَّانيَّة مِن نفسٍ نَقِيَّة، ورُوحٍ طاهِرةٍ زَكِيَّة، هي دعوةٌ لإصلاحِ النُّفوسِ ومُراقَبةِ القلوبِ، والوقوفِ على أبوابِها، حتَّى لا يكونَ سِوَى الخالقِ في محرابِها، ولا تَدُقَّ بغير حبِّ الإلهِ في خَلَجاتِها، وممَّا قال في شرحِ هذه الأحوال: «وأَعْدَى عَدُوَّيك: نَفْسُكَ التي بين جَنْبَيك، فإنَّ اللصَّ الدَّاخِلَ بداءٍ عُضال، لا يُمْكِنُ الاحْتِرازُ عنهُ بحال... ولأنَّها الـمَطِيَّةُ في الوصولِ إلى مَقامِ حصولِ المأمول، فلا يُـمْكِنُ مخالفتُها بالمرَّةِ وإلَّا تُذِلُّكَ، ولا مُوافَقَتُها فتُضِلَّكَ، فإنْ سَمَّنْتَها تأكُلْكَ، وإنْ جوَّعْتَها تَخْذُلْكَ، فعليكَ بالاعْتِدال؛ لتُوْصِلكَ إلى منزلِ الوِصال، وأمَّا الشَّيطانُ فعدوٌّ لا صُلْحَ معه؛ إذْ هو مجبولٌ على عَدَاوتِك، وموكولٌ إلى ضَلالتِك، فتَشَمَّرْ لمحاربتِهِ، واجْتَهِدْ في مُخالَفتِهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، قال بعضُهم: اسْتَعِذْ باللهِ مِن شرِّهِ، فإنَّه كلبٌ سُلِّطَ عليكَ فارْجِعْ إلى ربِّهِ، فإنَّه تعالى قادرٌ على صَرْفِهِ ومنعِه».

ومِن ذلك قولُه: «انْظُروا يا أَصْحَابي، واعْتَبِروا يا أَحْبَابي، مِن خَسَارةِ نَفْسي الفاسِدَة، في مُعامَلَتِها الكاسِدَة، مِن إيثارِ الدُّنيا الفانِيَة، مع مُعارَضَتِها للعُقْبَى الباقِيَة، على الدِّينِ القَوِيم، الـمُوْصِلِ إلى النَّعيمِ الـمُقِيم، حيثُ لَمْ تَشْتَرِ الـمُلْكَ الباقيَ بالثَّمنِ الفاني، ولَمْ تَقْصِدْ تَحْصيلَ الدِّينِ بتَركِ الدُّنيا بحُسنِ النِّيَّة وصفاءِ الطَّوِيَّة».

وهكذا كانَ أكثرُ هذا الشَّرحِ، فهو لا يتركُ مناسَبةً دونَ أن يقدِّمَ فيها مَوْعِظة.

وقد سَلَكَ في شرحِ الأبياتِ ثلاثَ مَرَاحِلَ:

الأُولى: شرحُ المفردات.

الثانيَةُ: إعرابُ الكلمات.

الثالثةُ: الختمُ بالمعنى العامِّ لكلِّ بيتٍ مِن الأبيات.

وقد يختلفُ التَّرتيبُ بينَ الأوَّلِ والثَّاني، ويكون في ضِمْنِهما بعضُ الشَّرحِ الجُزئيِّ، لكن المعنَى العامَّ يكون مؤخَّراً وشاملاً للكُلِّيِّ.

ومِن الأساليبِ الحسنةِ التي تُطالِعُكَ في هذا الشَّرح: ربطُ المعاني الشِّعريَّةِ بالآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ؛ كقولِ صاحِبِ البُردة:

واخْشَ الدَّسَائسَ مِن جوعٍ ومِن شِبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصةٍ شرٌّ مِن التُّخَمِ

ربطهُ الشَّارحُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقولُه:

ولا تُطِعْ منهُما خصماً ولا حَكَماً فأنتَ تَعرِفُ كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

قال الشارح: في البيتِ إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أو إشارةٌ إلى قولِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ».

أمَّا قولُه:

ورَاوَدَتْهُ الجِبالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ عن نَفْسِهِ فأَرَاها أيَّما شَمَمِ

فقال عنه المؤلف: وفيهِ تلميحٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقوله:

فَهْوَ الـذي تَـمَّ معنـاهُ وصُورَتُـهُ ثُـمَّ اصْطَفَـاهُ حَبيبـاً بـارِئُ النَّسَـمِ

قـال المؤلِّـفُ: وفـي البيـتِ تَلْويـحٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥]، وتلميحٌ إلـى حديثٍ صحيحٍ، وهو قولهُ صلـى الله تعالـى عليـه وسـلم: «إنَّ اللهَ اصْطَفَـى كِنَانةَ مِن وَلَـدِ إسـماعيلَ، واصْطَفَى مِـن كِنَانـةَ قريشـاً، واصْطَفَـى مِـن قريـشٍ بني هاشـمٍ، واصْطَفانـي مِن بني هاشـم».

وقولُ صاحبِ البردة:

لَـمْ يَمْتَحِنَّـا بمَـا تَعْيَـا العُقـولُ بـه حِرْصـاً علينـا فلَـمْ نَرْتَـبْ ولَـمْ نَهِـمِ

قـال الشَّـارحُ: وفـي البيـتِ إيمـاءٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفي قوله:

وِقايـةُ اللهِ أَغْنَـتْ عـن مُضاعَفَـةٍ مِـن الـدُّرُوعِ وعـن عـالٍ مِـن الأُطُـمِ

قـال المؤلـف: وفـي البيتِ إيمـاءٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ الآيـة [التوبـة: ٤٠]، وإشـارةٌ إلـى قولـهِ عـزَّ وجـلَّ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وفي بيتِ البردةِ:

كأَنَّهُـمْ هَرَبـاً أبطـالُ أَبْرهـةٍ أو عَسْكَرٌ بالحَصَى مِـن راحَتَيْهِ رُمِي

قال: وفي بناءِ (رُمِي) على صيغةِ المجهولِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

وفي البيت الذي فيه:

وجَلَّ مِقْدارُ ما أُوْلِيْتَ مِن رُتَبٍ ... وعَزَّ إدراكُ ما وُلِّيْتَ مِن نِعَمِ

قال: قيل: المصراعُ الأَوَّلُ إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، والثَّاني عبارةٌ عن قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، وفي تفخيمِهما إيماءٌ إلى أنَّ الأفهامَ تَحيَّرتْ عن تفصيلِ تفسيرِ ما أَوْحَى، والأحلامَ تاهَتْ في تَبْيينِ تَعْيينِ الآياتِ الكُبرَى.

وأحياناً يشبِّهُ البيتَ ببيتٍ آخَرَ منسوجٍ على مِنوالِه، وما أجملَ تشبيهَهُ بيتَ البردةِ:

كأنَّما اللُّؤْلُؤُ المَكْنونُ في صَدَفٍ ... مِن مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ منهُ ومُبْتَسَمِ

ببيتِ البحتريِّ:

فمِنْ لُؤْلُؤٍ يُبْدِيهِ عندَ ابْتِسامِهِ ... ومِن لُؤْلُؤٍ عندَ الكلامِ يُسَاقِطُه

أمَّا قولُ صاحبِ البردةِ:

لا طِيْبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ ... طُوْبَى لمُنْتَشِقٍ منهُ ومُلْتَثِمِ

فجَعَلَهُ مقتَبَساً مِن بيتِ الزَّهراءِ رضِيَ اللهُ عنها:

ماذا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ ... لَوْ لَمْ يَشَمَّ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا

وفي بيت:

لَوْلَا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً على طَلَلٍ ... ولا أَرِقْتَ لذِكْرِ البانِ والعَلَمِ

قال: فيهِ إيماءٌ إلى ما قيل:

وما حُبُّ الدِّيارِ شَغَفْنَ قَلْبي ... ولكنْ حُبُّ مَن سَكَنَ الدِّيارَ

ولا يَخْلو كلامُه أحياناً مِن التَّنبيهِ على إيماءاتٍ بعباراتٍ تكونُ أحياناً أقربَ إلى كلامِ أهلِ الإشارات، كالبيتِ الذي فيه:

كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ ساحَتَهُمْ   بكُلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِدَى قَرِمِ

قال: وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الدِّينَ ممَّا يجبُ القيامُ بخدمتِهِ لوصولِهِ، والاغتنامُ لمَظْهَرِه وحُصولِهِ، وإلَّا فَلَّهُ الانْتِقالُ إلى قلوبِ أربابِ الكَمَال، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ الضَّجرَ مِن الضَّيفِ وأهلِ الارْتحال، دَيْدَنُ الكفَّارِ والجُهَّال.

وفي البيت الذي فيه:

تَمْضِي اللَّيالي ولا يَدْرُونَ عِدَّتَها   ما لَمْ تَكُنْ مِن ليالي الأَشْهُرِ الحُرُمِ

قال: وفي العُدولِ عن الأوقاتِ أو الأيَّامِ إلى (اللَّيالي) إيماءٌ إلى سوءِ حالِ أوقاتهم؛ فإنَّ ظُلْمةَ الزَّمانِ وسوادَهُ كنايةٌ عن ذلك، أو إشارةٌ إلى أنَّ حالَهم في اللَّيالي التي هي مكانُ راحَتِهم، وزَمانُ اسْتِراحَتِهم، كانتْ كذلك، فكيف زمانُ أيَّامِهم المشوَّشَةِ المشؤومةِ عليهم بأنواعِ الكُدُورَات، وأَصْنافِ الضَّرُورات.

وأمثال هذا كثير في هذا الكتاب الرائع المفيد، لكن رغم كل ما ذكر لا يخلو الأمر من بعض الملاحظات:

فمِن المآخِذِ التي قد تؤخذُ على شرح العلامة القاري: القولُ ببعضِ الأمورِ المستَغربة؛ كنقلِهِ عن البعضِ قولَه: صاحبُ الوِرْدِ مَلعونٌ.

وكقولِهِ في معرضِ تَعدادِ فضائلِ النبيِّ ﷺ: ومِن جملةِ مُعجزاتِهِ إحياءُ الموتَى حتَّى على أيدي بعضِ أمَّته.

وكقصةِ الرجلِ الذي أرادَ أن يخالِفَ هَوَى نَفْسِه، فتَركَ الخروجَ إلى الجهادِ لأنَّه اتَّهمَها بدفعِهِ للجهادِ لغرضِ الرِّياء.

وكذا تلميحُه بهمِّ يوسُفَ عليه السلامُ بما يُنزَّهُ عنهُ الأنبياء.

وكذا ما نَقَله عن الغزاليِّ حيث قال: بل رُوِيَ عن الغزاليِّ: أنَّ تُربةً لَصِقَتْ بجسدهِ مِن الفَرْش، أَعْلى رتبةً مِن العرش.

ومِن ذلك نقلُه: أنَّ حمامَ الحرمِ اليومَ هو مِن نسلِ الحمامةِ التي نَسَجَتْ على فمِ الغارِ.

ومنه ما نَقَله عن بعضِ الظُّرفاء، ناعتاً إيَّاه بأنَّه مِن كُمَّلِ العُرفاء، أنه قال: مِن كمالِ ظُهورِ الرَّحمةِ في العُقْبَى يَنْدمُ المُذْنبونَ على تقليلِ مَعْصِيَتِهم في الدُّنيا.

وهذا الكلامُ مِن أحدِ الظُّرفاءِ الكُمَّلِ مردودٌ بلا تمهُّل، فلعل جاهلاً مثلَه يسمعُه، فيسارِعَ إلى اغتنامِ الفرصةِ بالإكثارِ مِن المعاصي؛ لئلَّا يكونَ في الآخرةِ مِن النَّادِمين على ما فرَّط مِن تَرْكِها.

وكذا اعتبارُه أحدَ أبياتِ القصيدةِ نصًّا في الردِّ على المعتزلةِ في تفضِيلهمُ الملائكةَ على الأنبياء، وكأنه حديثٌ عن النبيِّ ﷺ، والبيتُ هو:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَن أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

وقد ذَكَرْنا الردَّ على كلِّ ما تقدم، كلٌّ في مكانهِ، والحمدُ لله.

ومِن هذا البابِ موافقتُه لبعضِ ما جاء في البردةِ ممَّا عَدَّه البعضُ مِن المُخالَفات، كالبيتين اللَّذَينِ فيهما:

ما سامَني الدَّهرُ ضَيْماً واسْتَجَرْتُ به ... إلَّا ونِلْتُ جِواراً منهُ لَمْ يُضَمِ

ولا الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَدِهِ ... إلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِن خيرِ مُسْتَلَمِ

ومِن ذلك الاستدلالُ بأحاديثَ لا أصلَ لها؛ كحديث: «السَّفَرُ قِطْعةٌ مِن سَقَر». والصحيحُ: «السَّفَرُ قطعةٌ مِن العذاب».

وكذا حديثُ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ نُورِي، فنَظَرَ إليهِ تعالى نَظَرَ هيبةٍ فانْشَقَّ نِصْفينِ، فتَخَلَّقَ مِن نصفِه الكونَيْن». ولَمْ أَجِدْه في كتاب.

ولعلَّ مِن المآخِذِ قولُه بنزعِ الخافِضِ في مفعولِ اشْتكَى، مع أنَّه يتعدَّى بنَفْسِه، وذلك في البيت:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَن أَحيا الظَّلامَ إلى　　　أَنِ اشْتكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ

وإخلالُه أحياناً بالقواعدِ لضرورةِ السَّجْعِ؛ كقولِه: وقالتْ صفيَّةُ بنتُ عبدِ المطَّلب: رأيتُ نوراً على نورِ السِّراجِ غالِب. والصَّوابُ: غالباً.

ومنهُ تجويزُه كونَ (ما) استفهاميَّةً في بيتِ البردةِ:

يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَن أَلُوذُ بِهِ　　　سِوَاكَ عندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

وهذا غيرُ ظاهرٍ في نظري إلَّا باعتبارِ (مَن ألوذُ) استِفْهاماً ثانياً، وفيه تكلُّفٌ، كما أنَّ الظاهرَ أنَّه لَمْ يَقْصِدْه؛ لأنَّه لم يُشِرْ إليه؛ أعني إلى الاستفهامِ في (مَن ألوذُ).

هذا، وقد اعْتَمَدْنا في تحقيقِ هذا الكتابِ على نُسختَيْنِ خطِّيَّتينِ نَفيستَينِ: الأُولَى نسخةُ جامعةِ الملكِ سعود، ورمزُها: «د»، والثَّانيةُ نُسخةُ وليِّ الدِّين أفندي ورمزُها: «ل».

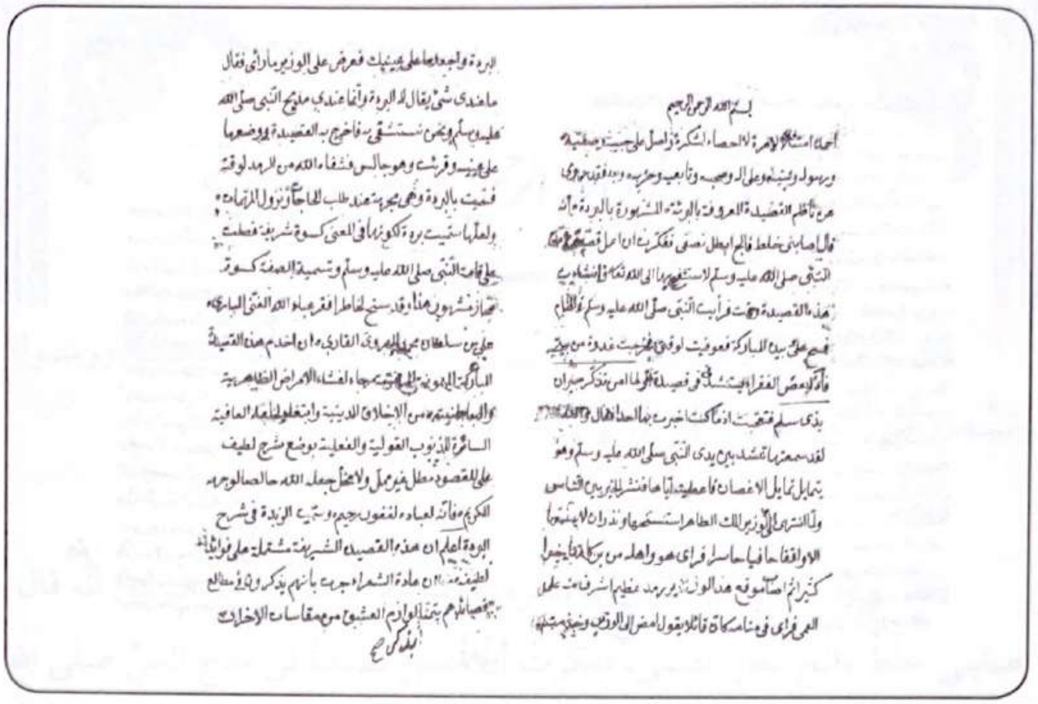
وقد جاءَ في هامشِ «د» تعليقاتٌ مفيدةٌ بعضُها مِن شرحِ الشَّيخِ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ الأزهريِّ، وفي هامشِ «ل» كذلك بعضُ التَّنبيهاتِ.

والحمد لله ربِّ العالمين

المحقق

***

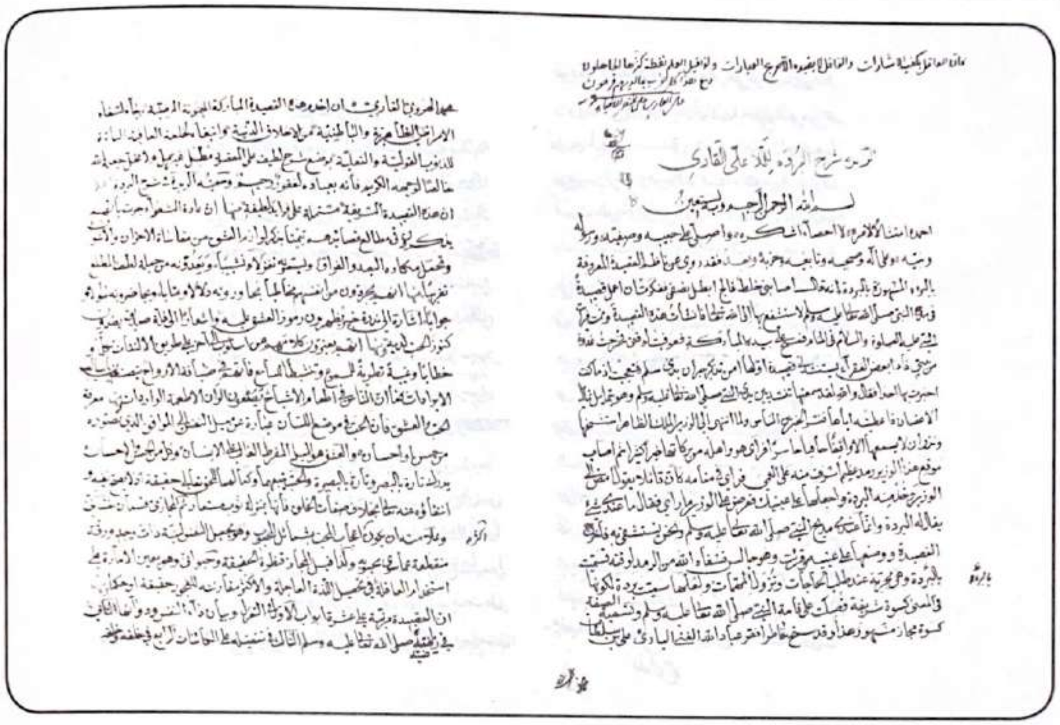
صور المخطوطات



صورة اللوحة الأولى من نسخة جامعة الملك سعود والمرموز لها بـ «د»



صورة اللوحة الأخيرة من نسخة جامعة الملك سعود والمرموز لها بـ «د»



صورة اللوحة الأولى من نسخة ولي الدين أفندي والمرموز لها بـ «ل»



صورة اللوحة الأخيرة من نسخة ولي الدين أفندي والمرموز لها بـ «ل»

بسم الله الرحمن الرحيم
وبهِ نستعينُ

أحمـدُه امتثـالاً لأمْرِه لا إحصاءً لشُـكرِه، وأُصلِّي على حَبيبِهِ وصَفيِّهِ ورسـولِهِ ونبيِّـهِ، وعلى آلِهِ وصَحْبِـهِ وتابِعِيهِ وحِزْبِهِ.

وبعدُ:

فقد رُوِيَ عن ناظمِ القصيدةِ المعروفةِ بالبُرءةِ المشهورةِ بـ «البردة» أنَّه قال: أصابَني خَلْطُ فالجٍ أَبطلَ نِصفي، ففكَّرتُ أنْ أَعمَلَ قصيدةً في مدحِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم لأَستشفِعَ بها إلى اللهِ تعالى، فأَنشأْتُ هذه القصيدةَ ونمتُ، فرأيتُ النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ في المنامِ، فمَسَحَ عليَّ بيدِهِ الـمُبارَكةِ فعُوفِيْتُ لِوَقْتي، فخَرَجْتُ غُدوةً مِن بيتي فإذا بعضُ الفقراءِ يَسْتَنشِدُني قصيدةً أَوَّلُها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِي سَلَمِ

فتَعَجَّبتُ إذْ ما كنتُ أَخبرتُ بها أحداً، فقال: واللهِ لقد سمعتُها تُنْشَدُ بينَ يدي النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يتمايَلُ تَمايُلَ الأغصانِ، فأعطيتُه إيَّاها، فنَشَرَ الخبرَ بينَ النَّاس، ولمَّا انْتَهَى إلى وزيرِ الملكِ الظَّاهرِ[1] اسْتَنْسَخَها ونَذَرَ أنْ لا يَسمعَها إلَّا واقفاً حافياً حاسراً، فرأَى هو وأهلُه مِن بركاتِـها خيراً كثيراً.

ثُمَّ أصاب مُوَقِّعَ[2] هذا الوزيرِ رَمَدٌ عظيمٌ أَشرفَ منهُ على العَمَى، فرأى في

(١) في هامش «د»: «وهو الصاحب بهاء الدين»، ووردت القصة في «الوافي بالوفيات» (٣/ ٣٦٨)، وفيه: «بهاء الدين بن حنا».

(٢) هو سعد الدين الفارقي. انظر المصدر السابق.

مَنامِهِ كأنَّ قائلاً يقولُ: امْضِ إلى الوزيرِ وخُذْ منه البُردةَ واجْعَلْها على عينيكَ، فعَرَضَ على الوزيرِ ما رأى، فقال: ما عِندِي شيءٌ يقالُ له البُردةُ، وإنَّما عندي مَديحُ النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم ونحنُ نَستشفِي به، فأَخرجَ القصيدةَ ووضَعَها على عينيهِ وقُرِئتْ وهو جالسٌ، فشَفَاهُ اللهُ مِن الرَّمَدِ لوقتِهِ، فسميت بالبردة[1].

وهي مجرَّبةٌ عندَ طلبِ الحاجاتِ ونُزولِ المُهِمَّاتِ، ولعلَّها سُمِّيتْ بُردةً لكونِها في المعنَى كِسوةً شَريفةً فُصِّلتْ على قامةِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وتسميةُ الصِّفةِ كِسوةً مَجازٌ مشهورٌ.

هذا، وقد سَنَحَ لخاطرِ أفقرِ عِبَادِ اللهِ الغنيِّ البارِي، عليِّ بنِ سلطانِ محمدٍ الهَرَويِّ القارِيْ، أنْ أَخْدُمَ هذهِ القصيدةَ المبارَكةَ الميمونةَ المَرْضيَّةَ؛ رجاءً لشفاءِ الأمراضِ الظَّاهريَّةِ والباطنيَّة، مِن الأخلاقِ الدَّنيَّة، وابتغاءً لخِلْعةِ العافيةِ السَّاترةِ للذُّنوبِ القوليَّةِ والفعليَّة، بوضعِ شرحٍ لطيفٍ على المقصودِ، مُطِلٍّ غيرِ مُمِلٍّ ولا مُخِلٍّ، جَعَلَه اللهُ خالصاً لوجهِهِ الكريم، فإنَّه بعبادِهِ لغفورٌ رحيم، وسمَّيْتُهُ:

«الزُّبْدةُ في شرحِ البُرْدَة»

اعْلَمْ أنَّ هذهِ القصيدةَ الشَّريفةَ مُشتمِلةٌ على فوائدَ لطيفةٍ:

منها: أنَّ عادةَ الشُّعراءِ جَرَتْ بأَنَّهم يَذْكرونَ في مَطالعِ قصائِدِهم تَيمُّناً بذِكْرِ لَوازِمِ العشقِ مِن مُقاساةِ الأحزانِ والأشواقِ، وتَحمُّلِ مَكَارهِ البُعْدِ والفِراقِ، ويُسمُّونهُ تَغَزُّلاً وتشبيباً، ويَعُدُّونَهُ مِن جُملةِ لُطفِ المَطْلَعِ تقريباً.

ومنها: أَنَّهم يجرِّدونَ مِن أنفُسِهم مُخاطَباً يُحاوِرونهُ دَلَالاً وعِتاباً، ويُحاضِرونهُ سُؤالاً وجَواباً، إشارةً إلى نُدرةِ خبيرٍ يُظْهِرون رموزَ العشقِ عليه، وإشعاراً إلى قلَّةِ صديقٍ يُضْمِرونَ كنوزَ الحُبِّ لدَيْه.

---

(١) في هامش «ل»: «الظاهر: بالبرءة».

ومنها: أنَّهم يُغيِّرونَ كلامَهم مِن أسلوبٍ إلى آخَرَ على طريقِ الالْتِفاتِ تَكَلُّماً وخِطاباً وغَيْبَةً؛ تَطْرِبَةً للمسموعِ وتَنْشيطاً للسَّامعِ، فإنَّهم في ضِيَافةِ الأرواحِ يَتصنَّعونَ بأساليبِ الإيراداتِ، كما أنَّ النَّاسَ في إطعامِ الأشباحِ يَصنعونَ ألوانَ الأطعمةِ الوارِداتِ.

ومنها: معرفةُ الحبِّ والعِشقِ، فإنَّ الحبَّ في وضعِ اللِّسانِ: عبارةٌ عن مَيلِ النَّفْسِ إلى المُوافِقِ الذي تصَوَّرهُ مِن حُسْنٍ أو إحسانٍ، والعشقُ هو الميلُ المُفْرِطُ الغالِبُ على الإنسانِ، وكلٌّ مِن الحُسْنِ والإحسانِ يُدْرَكُ تارةً بالبصرِ وتارةً بالبَصيرةِ، والحبُّ يَتْبعُهما، وكمالُهما للحقِّ تعالى حقيقةٌ؛ إذْ لا يَصِحُّ نَفْيُه وانْتِفاؤُه عنه تعالى، بخلافِ صفاتِ الخَلْقِ فإنَّها بمنزلةِ ثوبٍ مُسْتعارٍ.

ثُمَّ المَجَازِيُّ قِسْمانِ:

نَفْسانيٌّ: وعلامتُه أنْ يكونَ أكثرُ إعجابِ المُحِبِّ بشمائلِ المحبوبِ، وهو يَجعلُ النَّفسَ ليِّنةً ذاتَ وَجْدٍ ورِقَّةٍ، مُنْقطِعةً عمَّا سِوَى محبوبِه، ولذا قيل: المَجازُ قَنطرةُ الحقيقةِ.

وحَيَوانيٌّ: وهو يُعِينُ الأمَّارةَ على استِخْدامِ العاقِلةِ في تحصيلِ اللَّذَّةِ العاجِلةِ، والأكثرُ مُقارَنتُه للفُجورِ حَقيقةً أو حُكماً.

ومنها: أنَّ القصيدةَ مُرتَّبةٌ على عشرةِ أبوابٍ:

الأوَّلُ: في التَّغَزُّلِ وبيانِ داءِ النَّفْسِ ودوائِها.

الثَّاني: في رياضَتِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم.

الثَّالثُ: في تفضيلِهِ على الكائِناتِ.

الرَّابعُ: في خَلْقِهِ وخُلُقِهِ.

الخامسُ: في إرهاصَاتِهِ.

السَّادسُ: في مُعْجِزاتِهِ.

السَّابعُ: في القرآنِ.

الثَّامِنُ: في مِعْراجِهِ.

التَّاسعُ: في غَزَواتِهِ.

العاشرُ: في عَرْضِ الحاجةِ على الممدوحِ والـمُناجاةِ مع الـمَوْلَى.

قال النَّاظِمُ شَرَفُ الدِّينِ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ سعيدٍ البُوصِيريُّ المِصرِيُّ، وقيل: الدِّمَشْقيُّ الشَّاميُّ، كساهُ اللهُ حُلَلَ الغُفرانِ، وأَسْكنهُ بُحْبوحةَ الجِنَان:

١ ـ أَمِـنْ تَذَكُّـرِ جِيـرانٍ بِـذِي سَـلَمِ مَزَجْـتَ دَمْعـاً جَـرَى مِـن مُقْلـةٍ بِـدَمِ

همزةُ الاستفهامِ للتَّقريرِ مُنْصَبَّةٌ على (مَزَجْتَ) قُدِّمتْ للصَّدارةِ، و(مِن تَذَكُّرِ) مُتعلِّقٌ بـ (مَزَجْتَ) قُدِّمَ للحَصْرِ، و(تَذَكُّرِ) مصدرٌ مُضافٌ إلى مفعولِهِ، وفاعِلُه محذوفٌ؛ أي: مِن تَذَكُّرِكَ جيراناً، وهو جَمعُ جارٍ أو مُجاوِرٍ، وهو الأَوْلَى بالـمَقامِ. و(بذي سَلَمِ)؛ أي: صاحِبِ شجرةٍ في البادِيَةِ مُتَعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: كائنَينِ بمكانٍ فيه هذا الشَّجرُ، وهو بفتحِ اللَّامِ، ورُوِيَ بكسرِها. و(دمعاً) ماءُ البُكاءِ مفعولٌ بِهِ لـ (مَزَجْتَ)، و(جَرَى) صِفَتُه؛ أي: دمعاً جارياً، (مِن مُقلةٍ) مُتعلِّقٌ بـ(جَرَى) وهي داخِلُ العينِ. و(بِدَمِ) متعلِّقٌ بـ(مَزَجْتَ).

والمعنَى: يُحاوِرُ مُخاطَباً جرَّدَه مِن نَفْسِهِ، ويقولُ: يا مَن يُبالِغُ في البُكاءِ لا بدَّ لعُروضِ بكائِكَ مِن سببٍ، فما هو؟ أهُوَ لوعةُ الفراقِ ومَشَقَّتُه بأنِ ابْتُلِيْتَ بفراقِ أحبابٍ كنتَ فَرِحاً بوِجْدانهمْ فصِرْتَ وَجِعاً بهُجْرانهمْ؟ أمْ سببٌ آخَرُ يأتي في البيتِ الآتي.

٢ ـ أمْ هَبَّـتِ الرِّيـحُ مِن تِلْقـاءِ كاظِمةٍ وأَوْمَضَ البَرْقُ فـي الظَّلْماءِ مِن إضَمِ

(أم) مُنقطِعةٌ، و(هَبَّتْ) فعلٌ ماضٍ و(الرِّيحُ) فاعِلُه، وهي مُؤنَّثُ سَماعِيٌّ،

و(مِن تِلْقاءِ كاظِمةٍ)؛ أي: مِن جِهتِها، مُتَعلِّقٌ بـ(هَبَّتْ)، وهي اسمٌ لموضِعٍ، وصَرْفُها للضَّرورةِ، و(أَوْمَضَ) بمعنَى: لَمَعَ، عَطْفٌ على (هَبَّتْ)، و(البَرْقُ) فاعِلُه، و(في الظَّلْماءِ) متعلِّقٌ بمحذوفِ حالٍ مِن الفاعلِ؛ أي: واقِعاً في اللَّيلةِ الظَّلْماءِ، و(مِن إضَم) بكسرِ الهمزةِ مُتعلِّقٌ بـ(أَوْمَضَ) بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: مِن تِلقاءِ إضَمٍ، فإنَّهُ جبلٌ، والبرقُ لا يَلْمعُ مِن نَفْسِ الجبلِ بل مِن جِهتهِ.

قيل: المرادُ بذي سَلَمٍ وكاظمةَ وإضَمٍ مواضعُ قُربَ مدينةِ الإسلام، مَدينتهِ عليهِ السَّلام، وهو يناسِبُ جدّاً في المَقام، وقريبُ المأخَذِ لمعنَى المَرام.

والمعنى: أو سَبَبُ بُكائِكَ لُـمْعةُ الوِصالِ، بأنْ تَمنَّيْتَ وِصالَهم بإهداءِ الرِّيحِ إليكَ نسيمَ أخبارِهم وأسرارِهم، وإبداءِ البرقِ عليكَ آثارَ مَساكنِهم وديارِهم.

وفيـهِ إيمـاءٌ إلـى أنَّ مأواهُـمْ فـي البُعْـدِ بحيـثُ لا يَنتهِي إليـهِ إلَّا الرِّيـحُ، وفي الرِّفعـةِ بحيـثُ لا يَرْتَقي إليهِ إلَّا السَّـحابُ، فالقاصِـدُ إليهِ يَتحمَّلُ جُهـداً على جُهْدِه، ويقاسـي وَجْداً علـى وَجْدِهِ.

ثُمَّ بُعْدُ المسافةِ استِعارةٌ لبُعْدِ المرتَبةِ، وعُلُوُّ المكانِ لعُلُوِّ القَدْرِ والـمَكانةِ.

وإنَّما قال: (في الظَّلْماءِ)؛ لأنَّ الضَّوءَ في الظُّلمةِ أَجْلَى، ومِن مكانٍ عالٍ أَجْلَى.

ومُحصَّلُ معنَى البيتينِ: إنَّ بُكاءَكَ إمَّا لتَذَكُّرِ وصلِ ماضٍ مُتطلَّع، أو لتَطَلُّبِ وصلِ حالٍ مُتوقَّع.

ويُمْكِنُ حملُ المعنَى على الحقيقةِ بتمهيدِ مُقدِّمةٍ، وهي: أنَّ المُريدَ قد يَبلُغُ بالرِّياضةِ حدًّا تَعْرِضُ لهُ خُلساتٌ وجَذْباتٌ مِن اطِّلاعِ نورِ الحقِّ عليهِ لذيذةٌ، كأنَّها بُروقٌ تَلْمَعُ إليهِ ثُمَّ تَخْمُدُ لَدَيْهِ، وتُسَمَّى تلك الخُلْساتُ وقتاً، وهو أوَّلُ دَرجاتِ الوِجْدانِ والوُصولِ، وكلُّ وقتٍ محفوفٌ بوَجْدَيْنِ: وَجْدٌ إليهِ؛ أي: حُزنٌ على اسْتِبْطانهِ، ووَجْدٌ عليه؛ أي: حُزنٌ وأَسَفٌ على فَوْتهِ، فيقولُ: أيُّها المريدُ المرتاضُ،

ما سببُ بكائكَ؟ هل تَذْكُرُ تلك الجَذْباتِ اللَّذيذةَ والاشْتِيَاقَ إليها بعدَ انقضائِها، أو تَطْلبُ أمثالَها أو أَعْلَى مِنها إلى أنْ يَحِقَّ الوصول؟ بلَّغَنا اللهُ الحصولَ بجاهِ الرَّسولِ.

فكأنَّ المخاطَبَ أنكرَ ذلك الناشئَ عن الحبِّ، فقال له:

٣ ـ فما لعَيْنَيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفَا هَمَتَا   وما لقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

الفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ تُسمَّى فصيحةً؛ أي: إنْ لَمْ يكنْ بكاؤُكَ لأَجْلِ هذَيْنِ السَّببينِ، و(ما) استفهاميَّةٌ في الموضِعَينِ في محلِّ رفعٍ على الابتدائيَّةِ، والجارُّ والمجرورُ فيهما متعلِّقٌ بمحذوفٍ في محلِّ رفعٍ على الخَبَرِيَّة، وتقديرُه: أيُّ شيءٍ حادثٌ لعينيكَ ولقلبكَ؟ والشَّرْطيَّتانِ في محلِّ نَصْبٍ تقديرُه: ما حَدَثَ لعَينيكَ هامِيَتَينِ؟ أي: سائلَتينِ دمعُهما عند قولِكَ لهما: (اكْفُفَا)؛ أي: امْتَنِعَا عن البُكاءِ، وما حَدَثَ لقلبكَ هائماً؟ أي: حائراً عندَ قولكَ له: اسْتَفِقْ؛ أي: كُنْ مُفِيقاً حاضراً.

قال الخَبيصيُّ[(١)] في شرح القصيدة: يجوزُ: كُفَّا واكْفُفَا، بالإدغامِ والفَكِّ.

وهو وهمٌ منه؛ إذْ صرَّحوا بوجوبِ إدغامِ مِثْلِهِ في كتبِ الصَّرفِ.

وقال عصامُ الدِّينِ[(٢)] في شرحِها: فَكُّه للضَّرورةِ.

وقال أبو شامَةَ في شرحِها: فَكُّه خلافُ القياس.

وقيل: تَعَدُّدُ العينِ إنَّما هو في الصُّورةِ، وأمَّا في المعنَى المطلوبِ منها فواحدةٌ، ولهذا قد يُرَى الشَّيءُ شَيئينِ، فالتَّعدُّدُ الصُّورِيُّ لا يَقْدحُ في الوحدةِ الحقيقيَّةِ؛ كما هو

(١) عبيد الله بن فضل الله، فخر الدين الخبيصي، متكلم منطقي. من كتبه: «التذهيب في شرح التهذيب» في المنطق، و«التجريد الشافي» منطق أيضاً، و «شرح منظومة اليافعي في التوحيد»، توفي في حدود سنة (١٠٥٠هـ). انظر: «هدية العارفين» (١/ ٦٥٠)، و«الأعلام» (٤/ ١٩٦).

(٢) إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الإسفراييني، عصام الدين، من كتبه: «الأطول» في شرح «تلخيص المفتاح» للقزويني، في علوم البلاغة، و«ميزان الأدب» و«حاشية على تفسير البيضاوي»، توفي سنة (٩٤٥هـ). انظر: «الأعلام» (١/ ٦٦).

مذهبُ بعضِ المتصوِّفةِ المشتهرةِ بالوُجوديَّة، فلفظُ (اكْفُفَا) بالنَّظرِ إلى الحقيقةِ مُفردٌ وإنْ كان في صورةِ التَّثنيَةِ.

وهذا كما تَرَى تكلُّفٌ.

وقيل: فكُّ الإدغامِ على تَوَهُّمِ الإفرادِ، فلا يُخِلُّ بالفصاحةِ كما أَخَلَّ في قولِهِ:

الحمـــدُ للهِ العَلــيِّ الأَجْلَـــلِ[1]

ثُمَّ قال: ويُمكِنُ أنْ يقالَ: إنَّه أشارَ إلى أنَّه ـ أي: النَّاظمَ ـ قال بِهِ بلسانِ الحَيْران، وهو لا يُعاتَبُ بهفَواتِ اللِّسان، ومثلُ هذا يعدُّ ظَرافةً مِن البُلغاءِ في البَيَان.

والمعنى: إنْ كنتَ تُنْكِرُ كونَ البكاءِ مِن أعماقِ المحبَّةِ بناءً على أنَّ له أسباباً أُخَرَ، فلِمَ لا تَمْلِكُ عينيكَ وقلبكَ، فإنَّكَ إنْ أَرَدْتَ تركَ البكاءِ سالَ دمعُهما، وإنْ أَرَدْتَ إفاقةَ القلبِ عن الوَجْدِ يتحيَّرْ ويَتَوَلَّهْ، ومِثْلُ هذا البكاءِ لا يكونُ إلَّا مِن الحبِّ، ومثلُ هذا التَّحيرِ لا يُوجَدُ إلَّا مِن البُعْدِ أو القُرْبِ.

ثُمَّ قال له مُلتفِتاً مِن الخطابِ إلى الغَيبةِ:

٤ ـ أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... مـا بَيْــنَ مُنْسَــجِمٍ منــهُ ومُضْطَــرِمِ

همزةُ الاستِفهامِ للتَّعجُّبِ أو للإنكارِ التَّوْبيخيِّ؛ أي: لا يَنبغِي أنْ يكونَ.

و(يَحْسبُ) بكسرِ السِّينِ وفتحِها، و(الصَّبُّ): العاشِقُ، مِن صَبَّ الماءَ، غَلَبَ عليه لكثرةِ بكائهِ غالباً، و(ما) زائدةٌ، و(بَيْنَ) ظرفٌ لـ (مُنْكَتِمٌ)، والانْسِجامُ: السَّيَلانُ بشدَّةٍ، والاضْطِرامُ: الاشْتِعالُ بقوَّةٍ، والتَّقدير: بينَ دمعٍ مُنْسجِمٍ وقلبٍ مُضْطرِمٍ. وضميرُ (منهُ) راجعٌ لـ (الصَّبّ)، وحذفُ بعدَ (مُضْطَرِم) لدلالةِ ما قَبْلَه عليهِ.

والمعنَى: ما يَليقُ للمُحِبِّ أنْ يَظُنَّ أنَّ حُبَّه يَخْفَى على النَّاسِ في حالِ كمالِ

---

(١) عزاه الخطابي في «غريب الحديث» (٣/ ٥٢) لرؤبة، وهو دون نسبة في «المقتضب» (١/ ١٤٢ و٢٥٣)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (٣/ ٤٤٢)، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٣٤٧).

ظُهورِهِ، بسبَبَ سَيَلانِ دمعهِ واضطِرابِ قلبِهِ، فإنَّها بمنزلةِ شاهِدَينِ على إثباتِ حُبِّهِ ومُخْبِرَينِ مِن أهلِ بيتِهِ على نَفْسِهِ، فحسبانُ الكِتْمانْ بُطلانُ الحسبانِ.

وفي البيت إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

ثُمَّ استَدَلَّ على أنَّه مُحِبٌّ، فقال مُخاطِباً له:

٥ ـ لَوْلَا الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً على طَلَلٍ ... ولا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البانِ والعَلَمِ

(الهوَى) مصدرُ هَوِيَه: أحبَّهُ، والإراقةُ: الصَّبُّ، والطَّلَلُ: ما شَخَصَ مِن أثرِ الدَّارِ مِن نحوِ اللَّبِنِ والأحجارِ، وأَرِقَ بالكسرِ بمعنَى: سَهِرَ، و(البان): نوعٌ مِن الشَّجرِ يُشبَّهُ بِهِ القَدُّ، وطولُ القامةِ، وحُسْنُ الهيئةِ، وطِيْبُ الرَّائحةِ(١)، و(العَلَم) إمَّا العَلَامةُ أو الجبلُ، واللَّامُ فيهما للجنسِ أو للعَهْدِ؛ أي: الذين في منازِلهم، قيل: المرادُ جبلُ إضمٍ(٢)، والتَّنوينُ عِوَضٌ عن الـمُضافِ إليهِ؛ أي: على طَلَلِهِمْ، والظاهِرُ أنْ يكونَ بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: على تَذَكُّرِ الطَّلَلِ، وإلَّا فلا وصولَ إلى مَنزلِ المحبوبِ، ولا حُصولَ على أثرِ الـمَطلوب، وكلمةُ (لا) إمَّا زائدةٌ للعطفِ على الـمَنْفيِّ بتأويلِ (لَمْ تُرِقْ) بـ: لا أَرِقْتَ؛ لأنَّ (لَمْ) لَمْ تَدخلْ على الماضي، وإمَّا نافيةٌ مع أنَّها لا تدخلُ على الماضي بلا تكرارٍ؛ لِـمَا تَقَدَّمَ مِن التَّأويل.

والمعنى: يَستَدِلُّ على حُصولِ الحبِّ بلا وُصولِ القُرْبِ، ويقولُ: لو لَـمْ يَتمكَّنْ سلطانُ المحبَّةِ في مدينةِ قَلْبِكَ لتَوقَّفَ أمرُكَ إلى مَشِيئتِكَ، فلَمْ تُرِقْ دمعاً على أثرٍ وخبرٍ، ولم تَسْهرْ لذِكرِ جبلٍ وشجرٍ، فلَاحَ أنَّ دَمعَكَ قطرةٌ مِن بحرِ الهوَى، وسَهَرَكَ شُعلةٌ مِن نارِ الجَوَى(٣).

---

(١) في هامش «د»: «والبان شجر الخلاف، واحده: بانة، والعلم اسم جبل، والمراد بهما هنا: موضعان بالحجاز. خالد بن عبد الله الأزهري».

(٢) فوقها في «د»: «كذا»، وبعدها في «ل»: «وكذا التنوين...».

(٣) في هامش «د»: «ومن المعلوم أن السهر والبكاء من علامات أهل المحبة والبلاء والولاء، والمحب لا يبكي إلا للحبيب، والمريض لا يتمنى إلا لقاء الطبيب، ولذا قيل: =

وفيهِ إيماءٌ إلى ما قيل:

ومـا حـبُّ الدِّيـارِ شَـغَفْنَ قَلْبـي ... ولكـنْ حُـبُّ مَـن سَـكَنَ الدِّيـارَ[١]

ثُمَّ تَعَجَّبَ مِن إنكارِه الحبَّ بعدَ ظهورِه فقال:

٦ ـ فكيـفَ تُنْكِـرُ حُبّاً بَعْدَما شَـهِدَتْ ... بـهِ عليـكَ عُـدُولُ الدَّمْـعِ والسَّـقَمِ

الاستفهامُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، أو للاستِبْعادِ والتَّعَجُّبِ[٢]، والفاءُ فَصيحةٌ في جوابِ شرطٍ محذوفٍ، يعني: إذا دَلَّتِ الأدلَّةُ على المطلوبِ الذي هو حُبُّ المحبوبِ، وتنوينُ (حُبّاً) للتَّعظيمِ، و(ما) مَصْدريَّةٌ، وضميرُ (بـه) للحُبِّ، و(عُدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ) كقولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤][٣].

وقيل: المرادُ بالعدولِ: دَمْعُ العينينِ مع السَّقَمِ، أو أنواعُ الدَّمعِ وأصنافُ السَّقَمِ، والإضافةُ بيانيَّةٌ، والمرادُ: الدَّمعُ والسَّقمُ الناشِئانِ[٤] عن الحبِّ والألَمِ.

٧ ـ وأثْبَتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى ... مِثْلَ البَهَارِ على خَدَّيْكَ والعَنَمِ

= سهر العيون لغير وجهك باطل ... وبكاؤهن لغير فقدك ضائع».

(١) البيت لمجنون بني عامر، واسمه: قيس بن معاذ، ويقال: قيس بن الملوّح، أحد بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. انظر: «خزانة الأدب» للبغدادي (٢/ ٢١٢)

(٢) في هامش «د»: «و(كيف) حال لا مفعول فيه على ما تُوُهِّم، بدليل أنه يجاب بالحال مثل: راكباً، في جواب: كيف جاء زيد؟ وتبدل منه الحال؛ مثل: كيف جاء زيد أراكباً أم ماشياً، و(ما) مصدرية، وضمير (به) للحب، أو موصولة والضمير لها، والشهادة مستعارة للدلالة الصادقة. شرح آخر».

(٣) في هامش «د»: «وذِكْرُ العدول ترشيح لها ـ للشهادة ـ وإضافته إلى الدمع والسقم للبيان، أو بمعنى (مِن)؛ أي: العدول المستفادة من جهتهما، وهي كما ذكرت خمسة فتأمل، أو المراد تحقق الدمع والسقم في الأوقات المختلفة وتواليهما. شرح آخر».

(٤) في «ل» و«د»: «الناشئين»، والصواب المثبت.

(أَثْبَتَ) عَطْفٌ على (شَهِدَتْ)، و(الوَجْدُ): الحُزْنُ مِن جهةِ الحبِّ، وهو بمعنَى كاتِبِ دارِ الحُكْم، والضَّنَى: الـهُزَالُ والضَّعْفُ، ويُلازِمُه عادةً صُفْرةُ الوجهِ، و(البَهَار) بفتحِ الباءِ: نوعٌ مِن الوردِ الأصفرِ، و(العَنَم): شجرٌ له أغصانٌ حُمرانيَّةٌ[1] تُشَبَّهُ به الأصابعُ، و(ضَنًى) على زِنَةِ رَحًى عَطْفٌ على (عَبْرةً) على وزنِ: قَطْرَة؛ أي: وأَثْبتَ على خدَّيْكَ اللَّذَينِ هما بمنزلةِ الوَرَقينِ خَطَّ عبرةٍ؛ أي: الدَّمعُ الممزوجُ بالدَّمِ مِثْلَ العَنَمِ، على وزنِ العَلَمِ، وخَطُّ ضَنًى مِثْلَ البَهارِ، فالنَّشْرُ مُشَوَّشٌ.

وقيـل: المـرادُ بالخطَّيـنِ: دمـعُ العينيـنِ علـى الخدَّيـنِ، و(ضَنًـى) عطـفٌ علـى (خَطَّـي)، و(مِثْـلَ البَهـارِ والعَنَم) صفـةُ (خَطَّـي). لكنْ فيـه فَصْلٌ بيـنَ الصِّفةِ والموصـوفِ بالأجنبـيِّ وهـو (ضَنًـى).

كـذا قيـل، والأَوْلَـى أنْ يُعطَـفَ (ضَنًى) علـى (خَطَّـي)، ويُجعَلَ (مِثْـلَ البَهارِ والعنـمِ) صفـةً لمجمـوعِ المعطوفِ والمعطـوفِ عليه.

ومعنَى البيتين: كيفَ تُنْكِرُ المحبَّةَ بعدَ أنْ شَهِدَ بها شاهِدَا عدلٍ ما قَدَرْتَ على جَرْحِهما، وحَكَمَ قاضٍ لا يُنْقَضُ حُكْمُه مع وُجودِهما، وكَتَبَ على صُفرةِ الخدَّينِ منشورُ المحبَّةِ بخطَّينِ أحمرينِ، أو سَجَّلَ قضيَّةَ المودَّةِ مع شُهودِ الأثرِ على وَرَقَيْ خَدِّكَ بخطٍّ أحمرَ وأصفرَ، فكلُّ مَن رآكَ يقرأُ آيةَ المحبَّةِ اللَّائحةِ مِن وَجْهِكَ، ويُطالِعُ العلَامةَ الواضحةَ مِن خدِّكَ، فالإنكارُ بانحرافِ الضُّلوعِ لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوعٍ.

وأَسْنَدَ إثباتَ الحُمرةِ والصُّفرةِ إلى الوَجْدِ لأنَّه سببٌ قريبٌ لعُروضِ الحالاتِ للقلبِ مِن الحَيْرةِ والاضْطِرامِ والأَرَقِ والسَّقَمِ، والدَّمعِ مِن السَّيَلانِ والانْسجامِ والانْصبابِ والاحْمرارِ والاصْفرارِ، بلا اخْتيارٍ.

وأمَّا الحبُّ فهو سببٌ للحزنِ أوَّلاً وبالذَّاتِ، ولهذه الأحوالِ ثانياً وبالعَرَضِ.

---

(١) أي: حمر اللون، وهي تنبت في أصله، ولا تشبه سائر أغصانه. انظر: «المخصص» (٣/ ٢٥٧).

ولَمَّا انْتَهَى أمرُ السَّقَمِ إلى صَبْغِ البَشَرِ[١] بالصُّفرةِ، وأمرُ الدَّمعِ إلى الانْصِباغِ بالحُمرةِ، وَصَفَهما بالعدالةِ إذْ لا مَجالَ للتُّهَمةِ والبَطالةِ، فقد تأثَّرَ الظَّاهرُ والباطنُ مِن العشقِ والمودَّةِ، وفَنِيَ المحبُّ عن ذاتِهِ في المحبَّةِ، والظاهِرُ عنوانُ الباطنِ، ونحنُ نَحكُمُ بالظَّاهرِ واللهُ أعلمُ بالسَّرائرِ.

ولَمَّا انْكَشَفَ كونُ المخاطَبِ مُحِبّاً، وكان هو المُتكلِّمَ في المعنَى، رَجَعَ عن التَّجريدِ إلى التَّكلُّمِ، واعْتَرَفَ بالحبِّ فقال:

٨ـ نَعَمْ سَرَى طَيْفُ مَن أَهْوَى فأَرَّقَني ... والحبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بالأَلَمِ

(نَعَمْ) تصديقٌ لِمَا أُثْبِتَ بالاستدلالِ مِن قرائنِ الأحوالِ وإقامةِ البيِّنةِ وتسجيلِ القاضي مِن المُحِبِّ؛ أي: ما ادَّعَيْتَ عليَّ مِن المحبَّةِ وأَثْبَتَّهُ حَقٌّ، وله كمالُ الصِّحةِ، فقد أَسْهرني خَيَالُ مَحبوبي، وأَوْجَعني فراقُ مَطْلوبي.

يعني: جاءَني في اللَّيلِ خَيَالُه، وأَسْهرَني أَلَمُ وِصالِه، بَعْدَ أنْ كُنْتُ في لذَّةِ النَّومِ غافِلاً عن حالِهِ.

(والحبُّ يَعترِضُ)؛ أي: يُعْدِمُ ويُزيلُ ويَمنعُ اللَّذَّاتِ بسببِ أَلَمِ المحبوبِ بالذَّاتِ، وقيل: يَتَخلَّلُ بينَهما، والجملةُ حاليَّةٌ أو معترِضةٌ، واللَّذَّةُ: إدراكُ المُلَائِمِ، والأَلَمُ خِلافُه.

فالأَوْلَى في طريقِ محبَّةِ المَوْلَى: أنْ يُفسَّرَ اللَّذَّةُ بخيالِ المَهْوِيِّ والأَلَمُ بما يَخْطرُ ببالِهِ مِن السِّوَى، فالمعنَى: جاءَني في ليلةِ القَدْرِ خيالُ مآلِ الوِصالِ، ونبَّهَني مِن نومِ الغَفْلةِ وشَغَلني بذكرِه وفكرِه على طريقِ أربابِ الكمالِ، وانْقلبَتِ اللَّذَّاتُ الظَّاهريَّةُ آلاماً باطنيَّةً، والآلامُ الحِسِّيَّةُ لذَّاتٍ معنويَّةً، فطُوبَى لها، فطُوبَى لها.

---

(١) البشر: ظاهر جلد الإنسان، جمع بشرة. انظر: «القاموس» (مادة: بشر).

ثُمَّ اسْتَشْعَرَ لائِماً بلسانِ الحالِ فخاطَبَهُ فقال:

٩ - يا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً مِنِّي إليكَ ولو أنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

(العُذْرِي): مَنسوبٌ إلى بني عُذْرةَ - بضمِّ العينِ -: قبيلةٌ مِن العربِ في اليمنِ إذا عَشِقُوا ماتُوا؛ لأنَّ نساءَهم تكونُ جميلةً عفيفةً كثيرةَ الحياءِ، وفِتْيانَهم سريعَ الحبِّ قليلَ الصَّبرِ شديدَ الحياء.

وقيل: الهَوَى العُذْرِيُّ: هو المُفرِطُ الذي مِن شأنِهِ أنْ يكونَ صاحبهُ مقبولَ العُذْرِ عندَ كلِّ أحدٍ.

و(مَعْذِرةً) مفعولُ فعلٍ مقدَّرٍ؛ أي: اقْبَلْ مَعذِرةً، أو: اعْذُرْني معذرةً، و(مِنِّي) مُتعلِّقٌ بها، وقيل: مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، و(إليكَ) حالٌ، أو كلاهُما صِفتَان؛ أي: معذرةً صادرةً منِّي متوجِّهةً إليكَ، أو: مُلقاةً إليكَ.

والمعنى: أَعْتذِرُ إليكَ بأنِّي مُبْتَلًى بالحبِّ المذكورِ على الوجهِ المَسْطورِ، (ولو أَنْصَفتَ)؛ أي: لو أَتَيْتَ بالإنصافِ والعدلِ (لَمْ تَلُمْ) في الحبِّ وتَرَكْتَ العَذْلَ؛ لعِلْمكَ بأنَّه ليس اختيارِيّاً، بل يكونُ العشقُ اضْطِرارِيّاً.

وقيل: المعذرةُ قولُه: (مَحَّضْتَني النُّصْحَ).

وقيل: قولُه: (والحبُّ يَعترِضُ اللَّذَّاتِ بالألَمِ).

وتفصيلُه: يا مَن يَلُومُني في الحبِّ المُفْرِطِ اقْبَلْ مَعْذِرتي ولا تَظْلِمْ بمَلامَتي، فإنَّ الحبَّ أذابَ لحمِي، وأسالَ دَمِي، وأزالَ دمعي عن حَدَقتي، وصَبَغَ بالصُّفرةِ بَشَرتي، ونَهَبَ قرارِي، وسَلَبَ اختيارِي:

وعيبُ الفَتَى فيما أَتَى باختيارِه ولا عيبَ فيما كانَ خَلْقاً مُرَكَّبا

فحاصلُ المعذرةِ: إنَّ حُبِّي عُذْرِيٌّ، وحُبُّ العُذْرِيِّ عُذْرِيٌّ.

وقال العصامُ: (مَعذِرةً) تمييزٌ مِن نِسبةِ (العُذْرِيِّ)، و(مِنِّي) متعلِّقٌ بـ (إليكَ) وهو اسمُ فِعْلٍ بمعنَى: ابْعُدْ.

١٠ ـ عَدَتْكَ حاليَ لا سِرِّي بمُسْتتِرٍ عـن الوُشَـاةِ ولا دائـي بمُنْحَسِـمِ

يقالُ: عَدَا عنهُ عَدْواً: جاوَزَه، وإليهِ عَدْوَى: سَرَى إليه سِرَايةً، وعلى كلِّ تقديرٍ لا بدَّ من القول بحذف حرفِ الجرِّ، والمشهورُ تقديرُ (إلى)؛ ليكونَ دعاءً عليهِ، إشارةً إلى ما وَرَدَ: «مَن عَيَّرَ أخاهُ بذنبٍ لَمْ يَـمُتْ حتَّى ابْتَلاهُ اللهُ به»[1].

و(الوُشَاة) بضمِّ الواوِ: جمعُ واشٍ؛ أي: الكَذَبةِ السَّاعينَ بالفسادِ بَيْني وبَيْنَ مَن هو بمنزلةِ الفؤادِ، والانْحِسامُ: هو الانْقِطاعُ.

والمعنى: ليَكُنْ حالُكَ مِثْلَ حالي؛ لتَذُوقَ وَبَالي، وحُرقةَ قَلْبي وبَالي، وهو أنَّ سِرِّي لا يَخْفَى عن الوَاشِينَ واللَّائِمينَ لأَخْلُصَ عن الشَّماتةِ والـمَلَامةِ، ومَرَضِي لا يَنقطِعُ بالوَصلِ لأفوزَ بالسَّلامةِ.

وقيل: المعنَى: تَجاوَزَ حالي عنكَ إلى الغَمَّازِينَ، وفاشَ[2] سِرِّي عندَ اللَّمَّازِينَ، وذاعَ عندَ الأحبَّاء، وشاعَ عندَ الأعداء، ولا يَنقطِعُ هذا الدَّاء، وليس له دواءٌ عندَ الأطبَّاء، فإذا عَلِمْتَ حالي في هذا الـمَقام، فأَنْصِفْ واتْرُكِ الـمَلام.

ويُمكنُ أنْ يكونَ بتقديرِ (عن) دعاءً لهُ بعَدَمِ الابْتلاءِ بحالِهِ، أو دعاءً عليهِ بالحِرْمانِ عن الوصولِ إلى مَرْتبةِ كمالِهِ.

و(لا) في الموضِعَينِ لنَفْي الجنسِ لا للمُشابَهةِ بـ: ليس؛ لعَدَمِ جوازِ دخولِـها على المعرفةِ عندَ الجمهورِ.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٥) من طريق خالدِ بن مَعْدَانَ عن مُعاذِ بن جَبَلٍ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «من عَيَّرَ أَخاهُ بِذَنْبٍ لم يَمُتْ حتى يَعْمَلَهُ» قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ وليس إسنادُهُ بمتَّصِلٍ، وخالدُ بن مَعْدَانَ لم يُدْرِكْ مُعاذَ بن جَبَلٍ.

(٢) في هامش «ل»: «الظاهر: وفشا».

ولـمَّا رأى مُبالَغةَ اللّائمِ في مَلامَتِهِ، وظهرَ أنَّ قَصْدهُ مُنحصِرٌ في سلامَتِهِ، وقد بالَغَ في تدليسِ عَيْبِهِ، والاعتذارِ عمَّا ظهرَ مِن سُوءِ غَيبِهِ، ثُمَّ اسْتَيقَنَ أنَّ عُذْرهُ غيرُ نافعٍ، وتَدْليسَهُ غيرُ ناجعٍ، أنْصفَ واعْترفَ بأنَّ التَّقصيرَ مِن قِبَلِهِ على كلِّ حال، فقال هذا الـمَقال:

١١ ـ مَحَّضْتَني النُّصْحَ لكنْ لَسْتُ أَسْمَعُه　　　إنَّ المُحِبَّ عنِ العُذَّالِ في صَمَمِ

النَّصيحةُ: إرادةُ الخيرِ للغيرِ، والـمَحْضُ: الإخْلاصُ والتَّصفيَةُ، والمرادُ مِن عَدَمِ السَّماعِ ومِن الصَّمَمِ: عَدَمُ الالْتِفاتِ وعَدَمُ القبولِ والإجابةِ.

و(العُذَّال) بالذَّالِ الـمُعْجَمةِ: جمعُ عاذلٍ، وهو اللَّائِمُ النَّاصِحُ؛ أي: أَخْلَصْتَ لي[1] النَّصيحةَ وصَفَّيْتَها عن الأعراضِ الفاسدةِ في لَومِكَ لي في الـهَوَى مِن جهةِ أسبابِهِ؛ كالالْتفاتِ إلى ما يُحَبُّ، والتَّطَلُّعِ إليه، والتَّفَكُّرِ في مَحَاسنِهِ والتَّولُّعِ به، ولكنْ لا أَقْبَلُها، فإنِّي أَسيرُ العشقِ وأنتَ أمينُ العقلِ، ولا يَجري حُكْمُه في مملكةِ العشقِ، فالعقلُ يَبْني والعشقُ يَهْدِمُ، والعقلُ في التِّجارةِ والعشقُ في الغارَة.

وفي البيتِ تلميحٌ إلى الحديثِ الصَّحيحِ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي ويَصُمُّ» رواهُ أحمدُ وأبو داودَ والبخاريُّ في «تاريخه»[2].

وبعدَ بيانِ حالٍ يَعُمُّ الـمُحِبِّينَ مِن عَدَمِ سَماعِ كلامِ اللَّائِمِينَ، ذَكرَ ما يَخصُّه مِن عدمِ قبولِ النَّصيحةِ مع إفضائِهِ إلى حالةِ الفَضيحة:

١٢ ـ إنِّي اتَّهَمْتُ نَصيحَ الشَّيبِ في عَذَلي　　　والشَّيبُ أَبعدُ في نُصْحٍ عن التُّهَمِ

---

(١) في «د»: «إلي».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٤) (٢١٦٩٤)، وأبو داود (٥١٣٠)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٠٧) و(٣/ ١٧١)، من حديث أبي الدرداء رضِيَ اللهُ عنه. وهو حديث صحيح موقوفاً، أما المرفوع ففيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وانظر تفصيل الكلام عليه في التعليق على «المسند» ط الرسالة.

(نَصِيح) بمعنَى: ناصِحٍ، والإضافةُ بيانيَّةٌ، والعَذَلُ بفتحِ الذَّالِ: اسمُ مَصدرٍ، وبالسُّكونِ مصدرٌ، وقال العصامُ: هما مَصْدرانِ. وجملةُ: (والشَّيبُ...) حالٌ لازِمةٌ مِن مفعولِ (اتَّهَمْتُ) في المعنى وهو (الشَّيب).

والمرادُ من نصيحةِ الشَّيبِ: أنَّه يقولُ بلسانِ الحالِ: إنَّه قَرُبَ الارْتِحال، وآنَ زمانُ التَّوبةِ والانْتِقالِ مِن سَيِّئِ الأحوال، وحَلَّ تركُ العشقِ المَجَازِيِّ، ووَجَبَ الحبُّ الحقيقيّ، وتَدارُكُ ما فات، مِن تَضْييعِ الأوقات، وعَدَمِ إصلاحِ الحالات.

ولذا لـمَّا رأى أبو يزيد البَسْطَاميُّ قدَّسَ اللهُ سِرَّه السَّامي مِرآةً، وطالَعَ فيها وقد ظَهَرَ البياضُ في لحيتِهِ الشَّريفةِ وطَلْعتِهِ المُنِيفةِ، قال: ظَهَرَ الشَّيبُ ولَمْ يَذهبِ العَيبُ، وما أَدْرِي ما في الغَيْب.

فإذا كانَ حالُ العاشِقِ[1] أنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ نصيحةَ نَصيحِ الشَّيبِ الخالي عن التُّهَمةِ والعَيب، فبِالْأَوْلَى أنْ لا يَقبلَ كلامَ أهلِ المَلَامِ بلا كلام.

وقيل: المرادُ باتِّهامِ الشَّيب: حملُ وقوعِهِ على غيرِ أَوَانِهِ؛ لئلَّا يَستعِدَّ بما يجبُ في زمانِهِ، كما يقولُ كهولُ الأَوْباش: إسراعُ الشَّيبِ مِن المِحَن. ومِن كلامهم: الشَّيب نُورُ الهموم، والمعنى: إنِّي اتَّهمْتُ النَّاصحَ الذي هو أَبْرأُ مِن كلِّ تُهمةٍ وأَصدقُ مِن كلِّ ناصحٍ وهو الشيبُ، فإنَّه دليلُ انهزامِ القلبِ وانهدامِ القالَبِ، فالسَّعيدُ مَن يتَّعِظُ بوعظِهِ.

قيل: نَظَرَ رجلٌ إلى شيبةٍ في رأسِهِ، فجمعَ نساءَهُ فقال: انْدُبْنَني فقد ماتَ بَعْضِي، وأنشد:

إذا ما ماتَ بعضُكَ فابْكِ بَعْضاً ... فبعضُ الشيءِ مِن بعضٍ[2] قريبُ

---

(١) في «ل»: «العشق».

(٢) في النسختين: «من شيء»، والمثبت من المصادر. انظر: «الشعر والشعراء» (١/ ١٨٧)، و«الأغاني» (١٦/ ٤٣٣)، و«ولباب الآداب» للثعالبي (ص ١٥٥). وعزوه لأبي يعقوب الخريمي، واسمه: إسحاق بن حسان.

ثُمَّ عَلَّلَ اتِّهامَهُ للشَّيبِ مع بُعْدِهِ مِن الوقوع، فقال:

١٣ ـ فإنَّ أَمَّارَتي بالسُّوءِ ما اتَّعَظَتْ مِن جهلِها بنذيرِ الشَّيبِ والهَرَمِ[١]

الفاءُ للعطفِ على (اتَّهمْتُ) مُفِيدةٌ للتَّسَبُّبِ؛ أي: إذا اتَّهمتُ نَصيحَ الشَّيبِ أَفْضَى بي[٢] الجهلُ إلى عَدَمِ الاتِّعاظِ مِن النَّذيرِ المُخْبِرِ بوصولِ الموتِ، وهو الشَّيبُ الكاملُ والهَرَمُ، فالنَّذيرُ بمعنى المُنذرِ، والإضافةُ مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، والهرمُ تَنَاهِي الشَّيبِ، والمنذِرُ بمعنَى: المُخَوِّفِ بقُربِ الموتِ المُفوِّتِ للتَّوبةِ وسائرِ الطَّاعاتِ، و(مِن جَهْلِها) علَّةٌ لعَدَمِ الاتِّعاظِ بما ذُكِرَ، وقيل: النَّذيرُ بمعنى الإنذارِ مصدرٌ، وهو متعلِّقٌ بالاتِّعاظِ أو بالجهلِ.

واعْلَمْ أنَّ النَّفْسَ ـ أعني: القوَّةَ الحيوانيَّةَ التي تَشْتمِلُ على القوَّةِ المُدْركةِ والمُحرِّكةِ ـ إذا لَمْ يكنْ لها طاعةُ القوَّةِ العاقلةِ مَلَكةً، كانَتْ بمنزلةِ بهيمةٍ غيرِ مُرْتاضةٍ تَنْبعِثُ إلى ما يَدْعوها إليهِ شهوتُها وغضبُها، وتَستخدِمُ العاقلةَ، فيكونُ النَّفْسُ أمَّارةً والعاقلةُ مُؤتمرةً عن كرهٍ مُضطرَّةً.

أمَّا إذا راضَتْها العاقلةُ ومَنَعَتْها عن تلك الدَّعاوِي المختلفةِ، فإنْ تَأَدَّبَتْ في خِدْمتِها، وتَمرَّنَتْ على طاعتِها بحيث تأتَمِرُ بأمرِها وتنتهِي بنَهْيِها، كانتِ العاقلةُ مطمئنَّةً والنفسُ مؤتمِرةً، وإنْ أطاعَتْ تارةً وعَصَتْ أُخرى، فحينَ عَصَتْ تَتَّبعُ هَوَاها، ثُمَّ تندمُ فتَلومُ نَفْسَها فتكونُ لوَّامةً.

والأَخْصَرُ أنْ يُقالَ: الأمَّارةُ هي العاصيةُ، والمطمئنَّةُ هي المُطيعةُ، واللَّوَّامةُ هي المقتصِدةُ المختلِطةُ.

ثُمَّ عَطَفَ على (ما اتَّعَظَتْ) قولَهُ:

---

(١) في هامش «ل»: «الفصل الثاني في ذكر النفس وتتبع هواها».

(٢) في «ل»: «لي».

١٤ـ ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجميلِ قِرَى ضيفٍ أَلَمَّ برأسي غيرَ مُحْتَشِمِ

الفعلُ الجميلُ: هو ما اسْتَحْسَنَهُ الشَّرْعُ والطَّبْعُ، والقِرَى بكسرِ القافِ: الضِّيافةُ، والمرادُ هنا: الأعمالُ الصَّالحةُ مِن التَّوبةِ وغيرِها، والإلمامُ: النُّزولُ، والاحْتِشامُ: الاسْتِحْياءُ مِن جهةِ الاحْتِرامِ، والتَّقييدُ بنَفْي الاحتشام إشارةٌ إلى سُهولةِ قِرَاهُ عندَ الكِرَام، والتَّخصيصُ بالرَّأسِ لأنَّه أوَّلُ ما يبدو فيهِ الشَّيبُ، وإيماءٌ إلى أنَّه جاء على رأسِهِ بالغفلةِ.

وقيل: المرادُ أنَّ الشَّيبَ غيرُ مُحتشِمٍ عندَ النَّفْسِ لكراهَتِها إيَّاهُ.

(ولا أَعَدَّتْ) عطفٌ على (ما اتَّعَظَتْ) عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ، فإنَّ الاتِّعاظَ يكونُ بامْتثالِ الأوامرِ واجْتِنابِ الزَّواجِرِ.

ويُمكِنُ أنْ يُرادَ بالاتِّعاظِ: الاجْتِنابُ، وبالإعدادِ: إتيانُ المحاسِنِ، فالبيتُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى أنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَنْتَهِ بنَهْيِ العاقِلةِ، والبيتُ الثَّاني إلى أنَّها لَمْ تَأْتَمِرْ بأمرِ الكامِلةِ، فبانَ أنَّها في العصيانِ غايةٌ، وفي الأمرِ بالطُّغيانِ نهايةٌ، و(غيرَ) منصوبٌ على الحاليَّةِ مِن ضميرِ[1] (أَلَمَّ)، يعني: أنَّ النَّفْسَ الأمَّارةَ بالسُّوءِ لَمْ تَجْتَنِبْ عن السَّيِّئات ولَمْ تَمتَثِلْ بالطَّاعات، حتَّى إنَّها ما أَعَدَّتْ ضيافةَ ضيفٍ مُكرَّمٍ محمولٍ على الهامِ، نازلٍ على فَرقِ الأنام، بلا طريقِ الاحْتِشام، وإكرامُ الضَّيفِ واجبٌ عقلاً وثابتٌ نقلاً، سيَّما إذا كان ذا شَيْبَة، وجاءَ غَفْلَة، قال اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]، وقال ﷺ: «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضيفَهُ»[2] وقال: «إنَّ مِن إجلالِ اللهِ إكرامَ ذي الشَّيبةِ المُسْلِمِ»[3].

---

(١) كلمة: «ضمير» سقطت من «ل».

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧)، عن أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٣) قطعة من حديث رواه أبو داود (٤٣٤٨) عن أبي موسى الأشعري رضِيَ اللهُ عنه.

١٥ ـ لو كنتُ أَعْلَمُ أنّي ما أُوَقِّرُهُ كَتَمْتُ سِراً بَدَا لي منهُ بالكَتَمِ

(الكَتَم) بفتحتين: نَبْتٌ يُخْلطُ بالوَسْمةِ أو بالحِنَّاءِ ويُخْتَضَبُ به، والمرادُ بالسِّرِّ: إنذارُ الشَّيبِ عن الغفلةِ، وتنبيهُه على قُرْبِ الرِّحلة؛ أي: لو كنتُ أعلمُ أنّي ما أُعظِّمُ الشَّيبَ الذي هو واجبُ الإكرام عندَ العُقلاءِ الكِرَام، بعدَ نزولِهِ بي وظهورِه عندي، وقبلَ[1] ظهورِه عندَ غيري، أَخْفيتُ أسرارَهُ وأَسْررتُ إظهارَه، التي بَدَتْ على راسِي، وظَهَرتْ على سَاسِي[2]، مِن أثرِ الكِبَرِ وزوالِ الصِّغَرِ، (بالكَتَم)؛ أي: خَضَبتُه حتَّى لا أُنْسَبَ إلى الفَضيحة، وعَدَمِ سماعِ النَّصيحة، مِن لسانِ الحال، والحالُ أنَّه أبلغُ مِن بيانِ القال.

١٦ ـ مَن لي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِن غَوَايَتِها كما يُرَدُّ جِمَاحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ

(الجِماح) بكسرِ الجيم: جمعُ جَموحٍ، شبَّهَ الأخلاقَ الذَّميمةَ بالدَّوابِّ الذَّميمةِ.

وقيل: (الجِماح) مصدرٌ، فالرَّدُّ بمعنَى الإزالةِ.

و(مِن غَوَايتِها) صفةُ (جِماح)؛ أي: ناشئةٍ مِن ضلالتِها، والاستفهامُ للتَّضرُّعِ، والاسْتِعانةِ بغيرِه، والاستعطافِ لنَفْسِه.

والمعنى: مَن يَتكفَّلُ لي بتبديلِ الصِّفاتِ الرَّديَّة، والأخلاقِ الدَّنيَّة، الحادثةِ مِن النَّفْسِ الأمَّارة، المَكَّارةِ الغَدَّارة، بتأديبِها وتحصيلِ الأحوالِ الجميلة، والمَقاماتِ الجَلِيلة، كما تُبدَّلُ الحركاتُ الغَيْرُ المَرْضيَّة، للخيولِ الغَيْرِ المَهْديَّة، باللُّجُمِ المشبَّهةِ بالمواعظِ السَّنِيَّة.

قال عصامُ الدِّين: وتشبيهُ النَّفْسِ بالفَرَسِ مأخوذٌ مِن لسانِ الشَّرعِ: «نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فارْفُقْ بها»[3].

---

(١) في «ل» لعلها: «وقيل».

(٢) في «ل»: «شابي». والمثبت من «د»، والساس: القادح في السن.

(٣) ذكره محمد بن الحسن في كتاب «الكسب» (٨٦) عن النبي ﷺ دون سند.

قيل[1]: مقصودُه: مُرْشدٌ كامِل، وهو العالِـمُ العامِل، فاسْتَشْعَرَ قائلاً غيبيّاً يقولُ:

١٧ ـ فلا تَرُمْ بالمعاصِي كسرَ شهوتِـها إنَّ الطَّعــامَ يُقَــوِّي شَــهْوَةَ النَّهِــمِ

النَّهَمُ بفتحِ الهاءِ: إفراطُ الشَّهوةِ في الطَّعامِ، وبكَسْرِها صفةٌ منهُ.

والمعنـى: إذا أَرَدْتَ ردَّ الجِمَـاحِ؛ لإرادةِ التَّخلُّـصِ مِـن الجُنَـاحِ، فـلا تَطْلُـبْ كسرَ شـهوةِ النَّفـسِ بالمَناهـي، ولا حَسْـمَ نَشْـواتِها[2] بالملاهـي، يعنـي: لا تَظُـنَّ أنَّـكَ إذا شَـبَّعْتَها بمقصوداتِهـا امْتنَعَـتْ عـن مَضَرَّاتها، فـإنَّ الحرصَ يـزدادُ بوِجْدانِ مـا ابتَغَـاه، والطَّبْـعَ يَتقـوَّى بمـا يُلائِـمُ مُقْتَضـاه، كمَـن ابْتُلـيَ بالمعـدةِ النَّاريَّـة، أو الجوعـةِ البَقَريَّـة، فإنَّـه يزدادُ قوةُ مرضـهِ بالأكلِ كالبهائم، والمُسْتَسْـقِي يزيدُ عطشُـه بالشُّـربِ الدَّائـم، فالمعاصِـي تَزيـدُ شـهوتَها ولا تَنْقُصُـهـا، وتُفْسِـدُها ولا تُصْلِحُها، ومِـن المشـهورِ بيـنَ أطبَّـاءِ الأرواح: أنَّ معالجـةَ النَّفـسِ بالتَّخليَةِ والتَّحليَـة، كما أنَّ المعـروفَ بينَ أطبَّـاءِ الأشـباح: أنَّ الـمُداواةَ بالتَّقِيَّـةِ والتَّقْوِية.

فالحاصلُ: أنْ ليسَ لها دواءٌ إلَّا الاحْتِمَاء، فإنَّ لها بحُبِّ المألوفِ ابتلاء، ويدُلُّ عليه قولُه:

١٨ ـ والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْه شَبَّ على حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

شبَّ الصبيُّ: بَلَغَ[3] الشباب، و(الرّضاع) بكسرِ الرَّاءِ وفتحِها.

والمعنى: مَثَلُ النَّفْسِ في الاستمرارِ على الـمُستَلَذَّاتِ الـمُضِرَّةِ حالَ إهمالِـها، والانْزِجارِ عنها عندَ إعمالِـها، مَثَلُ الطِّفلِ الرَّضيعِ: إنْ تَركْتَه على الرِّضاع، ينشأُ على حُبِّه بحُكْمِ الطِّبَاع، فيَرضعُ في غيرِ أوانِه، ويَفْسُدُ مِزَاجهُ بالأخلاطِ الرَّديَّةِ في زمانِه،

---

(١) في «د»: «قيل بقوله».

(٢) في «ل»: «شهواتها».

(٣) في «د»: «بلغ إلى».

وإنْ تَفْطِمْه بتنفيرِها عن الثَّدْي بالحِيَل، وتأنيسهِ بلذيذِ الأطعمةِ على المَهَل، يَنْفَطِمْ وفي سلكِ الخيرِ يَنْتَظِمْ، ونِعْمَ ما قال مَن قال:

النَّفْسُ راغِبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ[1]

١٩ ـ فاصْرِفْ هَوَاها وحاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ

صَرَفَه: مَنَعَه، وقيل: صَرَفَه: غَيَّرَهُ. والهوَى: مَيَلانُ النَّفْسِ إلى ما تَسْتلِذُّه مِن غيرِ داعيةِ الهُدَى، و(حاذِرْ) مبالغةُ احْذَرْ، فإنَّ المُفاعَلَةَ إذا لم تَكُنْ للمُغالَبَةِ فهي للمُبالَغةِ، ولذا قيل: معناهُ: احْذَرْ احْذَرْ.

ووَلَّاه: جَعَلَهُ والياً، وقلَّدهُ الوِلايةَ، وتَوَلَّى الأمرَ: تَقَلَّدَهُ والْتَزمهُ وصار والياً عليه، و(ما) شرطيَّةٌ زَمَانيَّةٌ أو عُمُوميَّةٌ، وقيل: موصولةٌ، وصحَّحهُ العِصَاميُّ.

أَصْمَى الصَّيدَ: قَتَلهُ في مكانهِ الذي ضربهُ فيهِ، ووَصَمهُ: جَعَلهُ ذا عيبٍ.

وبينَ (يُصْمِ) و(يَصِمِ) تجنيسٌ خطِّيٌّ، وهو صَنيعٌ بَدِيعيٌّ.

والمعنى: إذا عَرَفْتَ أنَّ النَّفْسَ منبعٌ[2] للمفاسدِ العِظَام، وهي قابِلةٌ لقطعِها عنها بالفِطام، فامْنَعْها عن هَوَاها، وغيِّرْها عن مُشْتَهاها، واحْذَرْ كلَّ الحذرِ أنْ تجعلَ الهوَى أميراً على مملكةِ عَقْلِكَ وحِصْنِ قلبكَ، فإنَّه داعٍ إلى الضَّلالةِ والخَسارة، غيرُ صالحٍ للحكومةِ والإمَارة؛ لأنَّ الهوَى إذا اسْتولَى وخالفَ المولَى، يُهلكُ في الحالِ بسوءِ المآلِ، أو يَعِيبُكَ بالإضلالِ بقبيحِ الأعمالِ، وهذا المعنَى مأخوذٌ مِن قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فإنَّه إنْ أُريدَ بنسيانِ يومِ القيامةِ عدمُ الاعتقادِ بحقيقتهِ فهو ضلالةٌ حقيقيَّة، وإنْ أُريدَ به عدمُ العملِ بمُقتَضاهُ فهو ضلالةٌ إضافيَّة.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. انظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص ٢٠٦).

(٢) في «د»: «كان منبعاً».

ولـمَّا فَرَغَ عن بيانِ قابليَّةِ النَّفْسِ بالتربيَةِ، شَرَعَ في بيانِ التَّخليَةِ المتقدِّمةِ على التَّحليَة، ومِن المعلومِ أنَّ رياضةَ النَّفْسِ مَنْعُها هواها، وجَبْرُها على طاعةِ مَوْلاها، والأَوَّلُ زهدٌ وتَبَرٍّ، والثاني عبادةٌ وتولٍّ، ولذا قال:

٢٠ـ وراعِها وهي في الأعمالِ سائِمَةٌ وإنْ هي اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فلا تُسِمِ

المراعـاةُ: المراقَبـةُ، وسـامَتِ الماشـيَةُ: إذا رَعَـتْ، والإسَـامةُ: إخراجُهـا إلى المَرْعَى، واسـتَحْلَى الشَّـيءَ: عدَّهُ حُلْواً، وأرادَ بالأعمالِ: الصَّالحاتِ، فكأنَّ السَّيِّئاتِ لخُلُوِّها عن النَّفْعِ ليسـتْ بأعمالٍ، وبالسَّـوْمِ فيها: الاشْـتِغالَ بها، وبالمَرْعَى: النَّوافلَ لا الواجباتِ والـمُسْتَحَبَّات، فإنَّهما لا يَسْـتوجِبانِ التَّرْكَ بالاستَحْلاءِ.

والمعنى: راعِ النَّفْسَ وراقِبْها حالَ اشْتِغالِها بصالِحِ أعمالها، فَضْلاً عن بقيَّةِ أحوالِها، وازْجُرْها إذا عَمِلتْ بالنَّوافلِ على طريقِ العادَةِ الإلْفيَّة، مِن غيرِ إخلاصِ نيَّة، وحضورِ طَوِيَّة، فإنَّ العادةَ غيرُ العِبادة، ولذا قيل: الإرادةُ تركُ العادة.

وقيل: المعنى: راقِبِ النَّفْسَ في أثناءِ العبادة، حتَّى لا تَجْريَ مَجْرَى العادة، بتَرْكِ أركانها وشرائطِها، وسُنَنِها وآدابِها، أو لا تَفْسُدَ بمُفسِداتِها الدَّاخِلةِ فيها والخارجةِ مِنها؛ مِن العُجْبِ والرِّياء، والغُرورِ والخُيَلَاء، واستِجْلابِ حُطامِ الدُّنيا، وإنِ اكْتَفتِ النَّفْسُ بظاهرِ عبادَتِـها، ولَمْ تُبالِ بفسادِ صُورتِـها، أو معناها ومَرْتَبَتِها، فازْجُرْها فإنَّها ليستْ بعبادة، بل هي مَحْضُ عادَة، ولهذا المعنَى قيل: صاحبُ الوِردِ مَلعونٌ(١).

ويمكنُ أنْ يُجعلَ هذا البيتُ خِطاباً للعارِفِ الذي يَفهمُ الـمَعارِف، ويُقالَ: اعْمَلْ صالحاً ولا تُلاحِظْ في عملِكَ؛ لتَحْظَى بالوصولِ إلى أَمَلِك، وإنْ تَبَجَّحتِ

(١) قال المؤلف في «المرقاة» (٣/ ٢٨٠): «محمول على المرائي». وقال في «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة» (ص ١٥٩): «باطل لا أصل له». قلت: التوفيق بين كلاميه: أن المراد بالبطلان كونه مرفوعاً، وبالتأويل حملا على المرائي كونه من أقوال القوم، ومع ذلك ففيه مبالغة لا داعي لها.

النَّفْسُ بتزيُّنِها بزينةِ الأعمال، أو تعجَّبتْ بحِلْيَةِ الأحوال، فازْجُرْها فإنَّ وراءَ الأعمالِ والأحوالِ حصولَ الكَمَال، وهو حقيقةُ الوِصال، رَزَقَنا اللهُ المهيمِنُ الـمُتَعال.

٢١ ـ كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً للمَرْءِ قاتِلَةً مِن حيثُ لَمْ يَدْرِ أنَّ السَّمَّ في الدَّسَمِ

تعليلٌ لقولِهِ: (فلا تُسِمِ)، و(كَمْ) خبَرِيَّةٌ منصوبةُ الـمَحَلِّ على الـمَصدرِيَّةِ أو الظَّرْفِيَّةِ؛ أي: كثيراً مِن التَّحسيناتِ[1] أو المَرَّات، وهي متعلِّقةٌ بـ (حَسَّنَتْ) أو (لَذَّةً) على سبيلِ التَّنازُعِ، أو (قاتلةً).

و(حيثُ) في الأصلِ بمعنَى المكانِ، فاستُعيرَ في مَقامِ التَّعليلِ بمعنَى الجهةِ.

و(السُّمّ) بتثليثِ السِّينِ، لكنَّ الرِّوايةَ هنا بالفتح للمُناسَبةِ، ومعنى حَسَّنهُ: جَعَلهُ حَسَناً، أو: نَسَبهُ إلى الحُسْنِ، و(للمَرْءِ) مفعولُ (قاتِلةً)، واللَّام للتَّقوِيَةِ.

والمعنى: إنَّ النَّفْسَ أمَّارةٌ غَدَّارةٌ خَدَّاعةٌ مَكَّارةٌ، فكثيراً مَا خَدَعتِ المرءَ، وحسَّنَتْ في باصِرَتِهِ ما يُفسِدُ فِطرةَ بَهْجتِهِ، فانْخَدَعَ بخُرافاتِها، واسْتَحْسَنَ الـمُهْلِكاتِ مِن آفَاتِها، فانْصَرَعَ فَجْأة؛ لتَناوُلِ سُمِّها فَلْتَة، إذ لذَّةُ الدَّسَم، أَخْفَتْ طَعْمَ السَّم، فلَمْ يَدْرِ ضُرَّهُ، وصادَفَ شَرَّهُ، وفيه إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وفي البيتِ لَطيفةٌ؛ وهي: أنَّ لفظَ (سَمّ) مذكورٌ في (الدَّسَم)، كما قيل في قوله عليه السلام: «السَّفَرُ قِطْعةٌ مِن سَقَر»[2]، يعني: بزيادةِ نقطةٍ في (سَقَر)، أو بزيادةِ القافِ على الفاءِ بحسابِ الجُمَّلِ، وإلَّا فمعناهُ: أنَّ السَّقَرَ[3] نوعُ عذابٍ مِن أنواعِ جهنَّمَ، فإنَّ مِن جملةِ أنواعِها الصَّعودَ، وهو جبلٌ عظيمٌ مِن نارٍ يُكلَّفُ الجَهَنَّميُّ بالطُّلوعِ والنُّزولِ

---

(١) في «ل»: «التحسنات».

(٢) لا أصل له كما في «كشف الخفاء» (١/ ٥٤٩)، والصواب: «السفر قطعة من العذاب»، كما رواه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٣) في «ل»: «السفر».

مُنْضمّاً إلى بقيَّةِ أنواعِ العقابِ، وبهذهِ المعاني يَظهرُ أنَّ عكسَهُ لا يُفيدُ هذه الإفادَةَ، وإنْ كان يُفيدُ نوعَ مُبالَغةٍ غيرِ مُطابِقةٍ في الخارجِ بحسَبِ العادةِ، ونظيرُه: العِيَادةُ أفضلُ مِن العِبَادة، واللهُ أعلمُ.

ثُمَّ بيَّنَ أنَّ النَّفْسَ كما تُراعَى في العِباداتِ، كذلكَ تُراقَبُ ولا تُلاحَظُ في المُباحاتِ، التي لا بدَّ للسَّالكِ مِنها في الحالاتِ، فقال:

٢٢ ـ واخْشَ الدَّسَائسَ مِن جوعٍ ومِن شِبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصةٍ شرٌّ مِن التُّخَمِ

أي: اتَّقِ المكائِدَ الخبيثةَ والرَّذائلَ الخَفِيَّةَ الحاصلةَ مِن الجوعِ والشِّبَعِ مَثلاً، فإنَّ في معناهُما السَّهرَ، والنَّومَ، والسُّكوتَ، والكلامَ، والعزلةَ، والخلطةَ، والفقرَ، والغِنَى، والعُزوبةَ، والتَّزوُّجَ، ففي كلٍّ مَنافعُ ومَضَرَّات، وفوائدُ وبَلِيَّات، فكثرةُ الأكلِ والشُّربِ تُوْرِثُ المَصائبَ في الدُّنيا والـمَعائبَ في العُقْبَى، فإنَّها جالِبةٌ لأدواءِ الجسدِ الذي هو مَرْكَبَ رُوحِ السَّالِك، ولخَسارةِ النَّفْسِ وإيقاعِها في الـمَهالِك[1]، وبها تَحدُثُ كثرةُ النَّومِ الـمُقْتضيَةُ للكسل، وتضييعِ العُمرِ وقَساوةِ القلبِ وغَفْلتهِ ومَوتهِ بطولِ الأَمل، وقلَّةُ الأكلِ والشُّربِ سببٌ لحِدَّةِ الـمِزَاج، وسوءِ الخُلُقِ بلا عِلَاج، وذُبولِ النَّفْسِ والـمَلَال، والكَلَالِ في تحصيلِ الكمال، فعليكَ في الاغْتِذاءِ بالاعْتِدال، فإنَّ الأطرافَ رذائلُ والأوساطَ فضائلُ، وهذا المعنَى مأخوذٌ من قولِهِ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، ونِعْمَ ما قال مَن قال: جَمَعَ اللهُ الطِّبَّ ـ أي: الصُّوريَّ والمعنويَّ ـ في نصفِ الآيةِ.

وإنَّما قال: (فرُبَّ مَخْمصةٍ)؛ أي: شدَّةَ مَجاعةٍ (شرٌّ مِن التُّخَمِ): جمعُ تُخَمةٍ، وهي عدمُ انْهضامِ الطَّعامِ في الـمَعِدة، مع اشْتِعالهِ على صاحبِهِ وتَعَفُّنِهِ فيها وإيذائه، والمرادُ: شدَّةُ الشِّبَعِ، فإنَّ العربَ والحكماءَ تتمادَحُ بقلَّةِ الأكلِ والشُّربِ وتَتَذَامُّ

(١) في هامش «د»: «يا مالك الممالك نجنا من المهالك، أنت الملك الباقي وكل شيء هالك».

بكثرتِهِ؛ لأنَّ قلَّتَهُما دليلٌ على القناعةِ ومِلْكِ النَّفْسِ وقَمْعِ الشَّهوةِ، وسببٌ للصِّحةِ، وباعِثٌ لصفاءِ الخاطرِ وحِدَّةِ الذِّهْنِ، وكثرتَهما دليلٌ على الحرصِ والشِّدَّةِ وغَلَبةِ الشَّهوةِ وغيرِها ممَّا تقدَّمَ.

فيُتَوَهَّمُ في بادئ الرَّأيِ أنَّ الجوعَ لا يكونُ فيهِ شرٌّ، ثُمَّ بدقَّةِ النَّظرِ يُعرفُ أنَّ فيه شروراً أيضاً، فدَفَعَ الوَهْمَ وأزالَهُ، وقرَّرَ الحق وأَجْلَى حالَهُ، و(رُبَّ) للتَّقليلِ، وقد يكونُ للتَّكثير.

ثُمَّ قال تحريضاً على التَّوبة، وتَحْضيضاً على الأَوْبة:

٢٣ـ واسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِن عينٍ قدِ امْتَلأَتْ مِـن المَحَـارِمِ والْـزَمْ حِمْيَـةَ النَّـدَمِ

الاستفراغُ في علمِ الطِّبِّ: علاجُ الامْتِلاء، والحِمْيَةُ بمعنَى الاحْتِمَاء، والإضافةُ بيانيَّةٌ؛ أي: الاحْتِماءَ الذي هو النَّدَمُ، وقيل: بمعنَى: مِن؛ أي: الاحْتِماءَ الحاصلَ مِن النَّدَمِ النَّاشِئَ منه.

و(الـمَحَارِم): جمعُ مَحْرَمٍ بمعنَى حرامٍ، وامتلاءُ العينِ من الـمَحَارِمِ كنايَةٌ عن ارتكابِ كثرةِ الـمَنَاهِي، والالْتِذاذِ بالشَّهَواتِ والـمَلَاهي.

والمعنى: إنْ كانتِ امْتلأَتْ مَعِدَتُكَ المعنويَّة، بالأخلاطِ الفاسدةِ الرَّدِيَّة، ففَرِّغْ عن مَدخلِ عينكَ الحِسِّيَّة، دمعَ النَّدامةِ لارْتكابِ الأمورِ الـمَنْهيَّة، ثُمَّ الْتَزِمِ الاحْتِماءَ الذي هو النَّدَمُ، فإنَّه الأصلُ في التَّوبة، وعليهِ الـمَدَارُ في الأَوْبة، ولذا قال صلى اللهُ تعالى عليه وسلم: «النَّدَمُ تَوبة»[1]، كما قال: «الحجُّ عَرَفة»[2]، وإنْ كان لكلٍّ منهما أركانٌ أُخَرُ، وكلٌّ منهُما في حقيقةِ كلٍّ منهما مُعْتَبـر؛ لأنَّ النَّدَامةَ إذا حَصَلتْ تَستلزِمُ

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) من حديث ابن مسعود رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٩٠٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضِيَ اللهُ عنه.

بقيَّةَ أركانِ التَّوبةِ غالباً؛ مِن قَلْعِ المعصيةِ في الحال، ومِن العزمِ على عَدَمِ العَوْدِ في الاستقبال، وما يَتْبعُها مِن أداءِ حُقوقِ الملكِ الـمُتعال، ومِن قضاءِ حقوقِ العِبَاد ولو بالاستِحْلال.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى أنَّ صَبَّ العَبَراتِ يضعُ السَّيِّئات ويَرفعُ الدَّرَجات، وإيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]، وفي[1] قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠] لمن له اليوم عينان بالدمع تجريان، وما أحسن من قال من أرباب الحال:

وكيفَ تَرَى ليلَى بعينٍ تَرَى بها ... سِوَاها ومـا طَهَّرْتَها بالمَدَامِعِ[2]

وقال آخَرُ:

طهِّرِ العَيْنَ بالمَدَامِعِ سَبْعاً ... مِن شُهودِ السِّوَى تَزُلْ كُلُّ عِلَّه

ثم قال مشيراً إلى مَقامِ المُجاهَدَة؛ للوصولِ إلى مَرْتبةِ الـمُشَاهَدة:

٢٤ ـ وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيطانَ واعْصِهِما ... وإنْ هما مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

يعني: قد عَرَفْتَ وُلوعَ النَّفْسِ في هَوَاها، وحِرْصَها ومُبالَغتَها في مُشْتَهاها، ولها مُعِينٌ يَحثُّها على تحصيلِ مُراداتِها، ويُزَيِّنُ لها مَقصوداتِها، وهو الشَّيطانُ، الذي له على غيرِ التَّائبِ سلطان، فهُما عَدُوَّاك فيما أَمَراكَ ونَهَياك، وأَعْدَى عَدُوَّيك: نَفْسُكَ التي بين جَنْبَيك، فإنَّ اللصَّ الدَّاخِلَ بداءٍ عُضال، لا يُمْكِنُ الاحْتِرازُ عنهُ بحال، ولأنَّها عدوٌّ محبوبٌ، وعيبُ المحبوبِ مستورٌ ومَحْجوب، ففي الحديثِ: «حبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ»[3]، وقال الشَّاعر:

---

(١) في «د»: «وقيل في».

(٢) البيت ليزيد بن معاوية كما في «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).

(٣) تقدم تخريجه عند شرح البيت الحادي عشر.

وعَيْـنُ الرِّضـا عـن كـلِّ عيـبٍ كليلةٌ ولكنَّ[1] عينَ السُّخْطِ تُبْدِي الـمَسَاوِيَا[2]

ولأنَّهـا الــمَطِيَّةُ فـي الوصـولِ إلـى مَقـامِ حصـولِ المأمـول، فـلا يُـمْكِنُ مخالفتُهـا بالمـرَّةِ وإلَّا تُذِلُّـكَ، ولا مُوافَقَتُهـا فتُضِلَّـكَ، فـإنْ سَـمَّنْتَها تأكُلْـكَ، وإنْ جوَّعْتَهـا تَخْذُلْـكَ، فعليكَ بالاعْتِـدال؛ لتُوْصِلكَ إلـى منزلِ الوِصال، وأمَّا الشَّـيطانُ فعـدوٌّ لا[3] صُلْـحَ معـه؛ إذْ هـو مجبـولٌ علـى عَدَاوتِـك، وموكـولٌ إلـى ضَلالتِـك، فتَشَـمَّرْ لــمُحارَبتِهِ، واجْتَهِدْ في مُخالَفتهِ، قال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطـر: ٦].

قال بعضُهم: اسْتَعِذْ باللهِ مِن شرِّهِ، فإنَّهُ كلبٌ سُلِّطَ عليك، فارْجِعْ إلى ربِّه، فإنَّه تعالى قادرٌ على صَرفِهِ ومَنعه.

وقال بعضُهم: جاهِدْ وحارِبْ.

وقال الغزاليُّ: اجْمَعْ بينَهما، فإنْ نَجوْتَ بالاستِعاذةِ فبِها، وإنْ تَغَلَّبَ عليكَ فجاهِدْ بعونِ ربِّها.

يعنـي: خالِفْهُما في أمرِهمـا واعْصِهِما في نَهْيِهِما، وإنْ أَتيَـاكَ بمحْضِ النُّصْحِ صـورةً فانْسُـبْهُما إلـى الغـدرِ والخيانـةِ، والمكـرِ والحيلـةِ، قال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسـف: ٥٣]، وقـال تعالـى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقـرة: ٢٦٨].

واسمعْ حكايتينِ لَطيفتينِ روايتينِ ظَرِيفتينِ:

---

(١) كتب فوقها في «د»: «كما أن»، ومثله في هامش «ل»، وقد ورد البيت في المصادر باللفظين.

(٢) البيت لعبد بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، كما في كتاب «الحيوان» للجاحظ (٣/ ٤٨٨)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/ ٢٨٣)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (٢/ ١٨٢).

(٣) في «د»: «فعدو ولا»، وفي «ل»: «فعدوك لا»، والمثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

إحداهُما: حكاها الـمَوْلويُّ الرُّوميُّ في كتابه «المثنوي»[1] المعنوي: أنَّ معاويةَ خالَ المؤمنينَ كانَ نائماً عندَ الصَّباحِ، فجاءَ الشَّيطانُ وقال: حَيَّ على الفَلَاحِ، ففَطِنَ معاويةُ لـمَكْرِهِ وغَدْرِهِ في ظهورِهِ وأَمْرِهِ، فقال: أنتَ ما تأمُرُ إلَّا بالمعصيَةِ، فكيف أَمْرُكَ لي بالطَّاعة؟! فتعلَّلَ بعِلَلٍ لَمْ يَلتفِتْ إليها، ولا يُـمْكنُ أنْ يُقِرَّ العاقلُ عليها، فقال معاويةُ: لا بدَّ لك مِن إظهارِ سببِ هذا الأمرِ العجيب، فإنَّه مِنْ مْثلِكَ غريبٌ أيُّ غَرِيب! فقال: نَعَمْ، فاتَكَ الصُّبحُ يوماً مِن الأيامِ، بسببِ الـمَنامِ عن صلاةِ الجماعةِ مع سيِّدِ الأنَام، فندِمْتَ على ما فاتَ، وتحسَّرْتَ عليهِ في الأَوْقات، فكُتِبَ لكَ أضعافُ ما كنتَ تَلحَقهُ مِن الطَّاعات، فخِفْتُ أنْ تنامَ عن الصَّلاةِ مرَّةً أُخرى، فيَحْصُلَ لك زيادةُ المَثوبةِ في الأُخرى.

وثانيتُهما: ما ذكره الغزاليُّ في «منهاجِ العابِدِين»: لقد بَلَغَنا عن بعضِ الصَّالحينَ يقالُ له: أحمدُ بنُ أَرْقمَ البَلْخيُّ، أنَّه قال: نازَعَتْني نَفْسي بالخروجِ إلى الغزوِ، فقلتُ: سُبحانَ اللهِ! إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وهذه تأمرُني بالخيرِ، فلا تكونُ هذه أبداً، ولكنَّها استَوْحَشَتْ فتريدُ لقاءَ النَّاسِ لتَسْتَرْوِحَ إليهِم، ويَتَسامعَ النَّاسُ بها فيَستقبِلونَها بالتَّعظيم، والبِرِّ والتَّكريم، فقلتُ لها: لا أُنْزِلُكِ العُمْرانَ، ولا أُنْزِلُكِ على ذي مَعْرفةٍ، فأجابَتْ، فأَسَأْتُ الظنَّ بها وقُلْتُ: اللهُ تعالى أصدقُ، فقَلْتُ لها: أُقاتِلُ العدوَّ حاسِراً ـ أي: بلا سلاحٍ ـ فتكونينَ مِن أوَّلِ قتيلٍ، فأجابَتْ، فأَسَأْتُ الظنَّ بها..، وعَدَّدَ أشياءَ ممَّا أرادَها، فأجابَتْ إلى ذلك كلِّه.

قال: فقُلْتُ: يا ربِّ! نبِّهْني لها فإنِّي مُتَّهِمٌ لها ومُصدِّقٌ لك، فكُوشِفْتُ كأنَّها تقولُ: يا أحمدُ! أنتَ تقتُلُني كلَّ يومٍ بمنعِكَ إيَّايَ مِن شَهَواتي مَرَّاتٍ، وبمخالَفَتِكَ لي

---

(١) «المثنوي» لجلال الدين محمد بن محمد البلخي ثم القونوي. انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٥٨٨). وقد ولد في بلخ، وقضى أكثر حياته في قونية، وهي من المدن التركية، فلذلك يقال له أيضاً: الرومي، أما المولوي فلعلها من كلمة: مولانا. توفي سنة (٦٧٠هـ).

ولا يَشعُرُ به أحدٌ، فإنْ قاتَلْتَ قُتِلْتُ مَرَّةً واحدةً فنَجَوْتُ منكَ، ويَتسامَعُ النَّاسُ فيُقالُ: استُشْهِدَ أحمدُ، ويكونُ لي شرفٌ وذِكْرٌ.

قال: فقعدْتُ ولَمْ أَخرجْ إلى الغزوِ في ذلك العامِ[١].

فانْظُرْ إلى خِداعِ النَّفْسِ وغُرورِها تُرائي النَّاسَ بعدَ الموتِ بعملٍ لَمْ يكنْ بعدُ، ولقد أَحْسنَ مَن قال:

تَـوَقَّ نَفْسَـكَ لا تَأْمَـنْ غَوَائِلَهـا فالنَّفْسُ أخبثُ مِن سَبعينَ شيطاناً

ولهذا قدَّمَها عليهِ ثُمَّ أكَّدَ الأمرَ السَّابقَ، فقال:

٢٥ ـ ولا تُطِعْ منهُما خصماً ولا حَكَماً فأنتَ تَعرِفُ كيدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

(منهما) حالٌ مِن المفعولِ، والضَّميرُ للنَّفْسِ والشَّيطانِ، والفاءُ تعليليَّةٌ، وفي نسخةٍ بالواوِ والجملةُ حاليةٌ[٢]، واللامُ للعهدِ الخارجيِّ، كذا قيل، والأظهرُ أنَّها للجِنْس، والخَصْمُ مَن يَظهرُ كونُه مِن جهتِهما، ويُروِّجُ لبَهْرجَتِهما، والحَكَمُ مَن يُبطِنُ ذلك، ويَستَدْرِجُ ليُوْقِعَ في المَهالِك.

والمعنى: لا تُطِعْ أحداً تَعْرِفُ كونَهُ مِن جهةِ النَّفْسِ والشَّيطان، خَصْماً كانَ أو حَكَماً، مِثْلَ المُبْتدِعةِ المُظْهِرةِ والفَسَقةِ المُتَستِّرة، فإنَّ قولَ كلٍّ مَكْرٌ وتلبيس، وفِعْلَه كيدٌ وتَدْليس، فإنَّ مُحِبَّ العدوِّ عدوٌّ، ومُبْغِضَ الحبيبِ إبليسُ، قال الشَّاعرُ:

تَـوَدُّ عَـدُوِّي ثُـمَّ تَزْعُـمُ أنَّنـي صديقُـكَ ليس النَّوْكُ عنكَ بعازِبِ[٣]

أي: ليس الحماقةُ عنكَ ببعيدٍ عندَ القريبِ والبعيدِ.

---

(١) قد يقال: أهو الذي خالف نفسه بتركه الجهاد في ذلك العام، أم هي التي خدعته بمنعه من أمر يعد من أعظم القربات إلى الله؟

(٢) في «ل»: «وفي نسخة بالواو الحالية»، والمثبت من «د» والمعنى واحد.

(٣) البيت لبشار بن برد، وهو في «ديوانه» (١/ ٣٦٤).

وفي البيتِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أو إشارةٌ إلى قولهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا طاعةَ لمخلوقٍ في مَعْصيَةِ الخالِقِ»(١).

ولمَّا رأى العاقلُ الصَّادق، النَّاصحُ للعاشق، أنَّه بنَفْسِهِ متلوِّثٌ بالـمَنَاهي، ومُتلبِّسٌ بالمَلَاهي، وقد قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، والأمرُ بالمعروفِ مِن غيرِ العامِلِ وإنْ كان حَسَنةً، لكنَّه بحسَبِ العُرفِ الظَّاهرِ سيئةٌ = أنابَ إلى الله، وتابَ عمَّا سواه، وقال:

٢٦ ـ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِن قولٍ بلا عَمَلٍ ... لقد نَسَبْتُ بهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ

النَّسْلُ: الولدُ، والعَقَمُ ـ كالفَرَسِ ـ والعُقْمُ: عَدَمُ النَّسْلِ، يريدُ أنَّ نِسبةَ الولدِ إلى مَن ليس لهُ ولدٌ زُورٌ وبَهْت، فكذا نسبةُ الفضلِ والعَملِ إلى غيرِ أهلِهما كَذِبٌ بَحْت.

وبيانُه: أنَّ ظاهرَ حالِ الآمِرِ أنَّه مُؤْتَمِرٌ، فكأنَّه نَسَبَ إلى نَفْسِهِ أنَّه بالعملِ مُتأثِّرٌ، أو كأنَّهُ ادَّعَى أنَّ هذا الحالَ ثابتٌ له على هذا المنوال، والحالُ أنَّ فِعالَهُ تُخالِفُ الأقوال، فيكونُ كاذباً فيما ادَّعاهُ مِن المَقال(٢).

ثُمَّ بيَّنَ أنَّ قولهُ بلا عَمَل، وأمرَهُ لغيرِه لا يَخْلُو عن زَلَل، فقال:

---

(١) رواه بهذا اللفظ: البزار في «مسنده» (١٩٨٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ورواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٨٤٠)، من حديث علي رضي الله عنه بلفظ: «لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف».

(٢) في هامش «د»: «وحاصل معنى الكلام: استبعاد هذه الحالة، يريد أنه مضيع عمره فيما لا يعنيه، وتارك لما يعنيه؛ لأنه يقول ما لا يفعل، وإليه أشار رئيس الطائفة حيث قال: ويل للقائلين بالحق العاملين بالباطل، ادعوا في الدنيا منازل المقربين، ونزلوا في الأخيرة منازل المجرمين. مصنفك».

٢٧ ـ أَمَرْتُكَ الخيرَ لكنْ ما ائْتَمَرْتُ به وما اسْتَقَمْتُ فما قولي لكَ اسْتَقِمِ(١)

(ما) في الأوَّلَيْنِ نافيَةٌ، وفي الثَّالثِ استفهاميَّةٌ، و(الخيرَ) منصوبٌ بنَزْعِ الخافِضِ، كذا قالهُ أكثرُ الشُّرَّاحِ، ويَدُلُّ عليهِ قولُ البيضاويِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤] مِن أنَّ حذفَ الجارِّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن المطَّرِدِ مع (أنَّ) و(أنْ)، وأنْ يكونَ مِن غيرِه؛ كقولِهِ:

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ بهِ(٢)

وقال المحلِّيُّ: (أمر) يتعدَّى إلى اثنينِ، ثانيهما بنَفْسِهِ تارةً وبالباءِ أُخرى، والاستعمالانِ في البيتِ، انتهى. وكأنَّهُ نَظَرَ إلى ظاهرِ الاستعمال، واللهُ أعلمُ بالحال، وعَنَى أنَّهُ يُستعمَلُ تارةً بحذفِ الباءِ وتارةً بإثباتِها.

والمرادُ بالأمرِ: ما يَعُمُّ الأمرَ والنَّهْيَ، والخيرُ: ما له عاقبةٌ حَميدةٌ، والاستِقامةُ: الثَّباتُ، والإقامةُ على الطَّاعةِ والعبادةِ، وامْتِثالِ الأوامرِ واجْتنابِ الزَّواجِرِ.

يعني: هذا القولُ مِنِّي ليس له حقيقةٌ، وإنَّما هو مجرَّدُ صورةٍ، وحينئذٍ لا يكونُ له تأثيرٌ ونفعٌ كبيرٌ، ولذا قيل: عِظْ نَفْسَكَ، فإنِ اتَّعَظْتَ فعِظِ النَّاسَ، وإلَّا فاسْتَحِ. ويقالُ:

طبيبٌ يُداوِي النَّاسَ وهو مريضُ(٣)

٢٨ ـ ولا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الموتِ نافِلَةً ولَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ ولَمْ أَصُمِ

(١) في هامش «ل»: «إن ثبتت للنفس الاستقامةُ فتلك عين الكرامة».

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٢٥). والبيت في «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٣١)، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة. وعجزه:

فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

(٣) وصدره كما في «المرقاة» (٩/ ٣٢٦):

وغيرُ تقيٍّ يأمرُ الناسَ بالتُّقى

التَّزوُّد: طَلَبُ الزَّادِ وأَخْذُه عندَ التَّوجُّهِ إلى المرادِ، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الدُّنيا مَعْبَرة، والنَّاسُ عليها عَبَرة، وأكثرهُم بلا عِبْرَة، فلا بدَّ مِن تحصيلِ الزَّادِ ليَصِلَ السَّالكُ الـمُريدُ إلى الـمُرادِ.

والنَّافلةُ في اللُّغةِ مُطْلَقاً: الزِّيادةُ، وفي الاصْطِلاح: الطَّاعاتُ الزَّائدةُ على الفَرائِضِ والسُّنَنِ المؤكَّدةِ، فكما أنَّ الزَّادَ وُصْلةٌ إلى قُرْبِ الـمَقْصِدِ في السَّفرِ الدُّنْيويِّ، فكذا النَّافلةُ وسيلةٌ إلى حيثُ المقصودُ الأصليُّ في السَّيرِ المعنويِّ، ففي الحديثِ القُدْسيِّ: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ... وبَصَرَهُ...» الحديثَ[١].

والمعنى: ما جَعَلتُ شيئاً مِن النوافلِ زادَ السَّفرِ قبلَ الموتِ، ولا تَهيَّأتُ للوصولِ إلى مراتبِ الكمالِ قبلَ الفَوْتِ، واقتَصَرْتُ مِن قُصورِ هِمَّتي على فرضِ الصَّلاةِ والصِّيام، وما قُمْتُ بحقِّ العُبوديَّةِ حَقَّ القِيَام، بزيادةِ النَّوافلِ في اللَّيالي والأيَّام.

ثُمَّ انْتَقلَ مِن التَّشبيبِ إلى مَدْحِ الحبيبِ، فقال بلا وَصْلِ عَطْفٍ، مُشيراً إلى فَصْلِ لُطْفٍ:

٢٩ ـ ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَن أَحْيا الظَّلامَ إلى ... أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ[٢]

الظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ، والمرادُ منهُ هُنا: التَّركُ. والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ المَرْضِيَّةُ. والظَّلامُ[٣]: ذَهابُ النُّورِ، يُرادُ به اللَّيلُ بذِكْرِ اللَّازِمِ وإرادةِ المَلْزومِ، وإحْياؤُه: تركُ النَّومِ مُشتغِلاً بنوعِ عبادةٍ فيه، فإنَّ النَّومَ أخو الموتِ، واليَقَظةَ كالحياةِ، والإيقاظَ كالإحياءِ، فتنبيهُ النَّفْسِ مِن النَّومِ كإحيائِها، وفي الحديثِ: «الحمدُ للهِ الذي أَحْيانَا بعدَما أَمَاتَنا»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) في هامش «ل»: «الفصل الثالث في ذكر المدائح والدخول».

(٣) في «د»: «والظلام بالفتح».

(٤) رواه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضِيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري أيضاً (٦٣٢٥) =

والمرادُ مِن شِكايَةِ القَدَمينِ المكرَّمينِ: دَلالَتُهُما على الوَجَعِ النَّاشئِ مِن العَوارِضِ البشريَّةِ والأمورِ الحِسِّيَّةِ، وأمَّا الرُّوحُ فكانَتْ مُتَلذِّذةً بالرَّاحةِ المعنويَّة، ومُطْمئنَّةً بالحالاتِ والمقاماتِ الأُنسيَّةِ القُدْسيَّة، والعِبرةُ بالأحوالِ الباطِنيَّة، لا بالأعضاءِ الظَّاهريَّة، ولذا قال ﷺ: «ليس الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، إنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[(١)].

و(الضُّر) بالضَّمِّ ويُفتحُ، منصوبٌ بنزعِ الخافضِ[(٢)]؛ أي: مِن الضُّرِّ الكائنِ مِن جهةِ الوَرَمِ.

والمعنى: تركتُ سُنَّةَ مَن أَحْيا اللَّياليَ بذِكرِ اللهِ تعالى ومُناجاتِه، والقيامِ بأنواعِ طاعاتِه، حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماه، ولا يَتركُ عبادةَ مولاه، فقيل لهُ: أتتكلَّفُ هذا وقد غُفِرَ لكَ ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّر؟ فقال: «أَفلَا أكونُ عبداً شكوراً»، رواه البخاريُّ ومُسلمٌ[(٣)].

فإذا كانَ صلى الله تعالى عليه وسلم مع عُلُوِّ حالِه ورِفْعةِ كمالِهِ قامَ بهذا المَقام، وصلَّى والنَّاسُ نِيَام، فكيف يَصْلُحُ لسائرِ الأَنَام، أنْ يَرقُدوا طُولَ اللَّيالي كالأنعام، وقد قيل: للعابِدِ في اللَّيلِ أَجْرانِ على الطَّاعة: أجرُ تَرْكِ النَّومِ والرَّاحةِ، وأجرٌ لتَحَمُّلِ العبادة.

وقد ورد: الأجرُ على قَدْرِ المَشَقَّة[(٤)].

= من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عنه، ومسلم (٢٧١١)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عنه.

(١) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) فعل «اشتكى» يتعدى بنفسه، فلا داعي للقول بنزع الخافض هنا. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: شكا).

(٣) رواه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عنه.

(٤) وهذا غير لازم في كل حالة على قول بعض العلماء، واستدل لذلك بفضل كلمة الشهادة ـ مع سهولتها ـ على كثير من العبادات الشاقة. انظر: «فتح الباري» (٢/ ٣٢٨).

ولمَّا ذَكَرَ عبادتَهُ صلى الله تعالى عليه وسلم، التي هي الوسيلةُ إلى الدَّرجاتِ العُلْيَا في العُقْبَى، أشارَ إلى مَقامِ زُهْدِهِ في الدُّنيا، واختيارِ الرِّياضةِ في مَرْضاةِ المَوْلَى، وقال:

٣٠ ـ وشَدَّ مِن سَغَبٍ أحشاءَهُ وطَوَى تَحْتَ الحِجارةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ

(شَدَّ) عطفٌ على (أَحْيا)، و(مِن) سَببيَّةٌ، و(السَّغَبُ) بفتحتينِ: الجوعُ، والحشَا: القلبُ وما أحاطَ به الجَوفُ، وحَشَا البَطْنِ: أمْعاؤُه، والجمعُ: أحشاءٌ.

وطَوَاه: لفَّهُ، والكَشْحُ: الخَصْرُ، وهو مفعولُ (طَوَى). والـمُتْرَفُ اسمُ مفعولٍ بمعنَى: الـمُفْرِطُ في النُّعومةِ. و(الأَدَم) بفتحتينِ: جمعُ الأَدِيمِ، وهو الجِلْدُ.

يعني: تركتُ طريقةَ مَن ارْتاضَ بالجوعِ حتَّى احتاجَ إلى شَدِّ أحشائِهِ، ورَبْطِ أضلاعِهِ مِن أعضائِهِ، وقد رَبَطَ الحجرَ على خصرِهِ النَّاعمِ ليستعينَ بثِقَلِ الحجرِ على خِفَّةِ الأَحْشاء، ويستريحَ ببردِهِ مِن حرارةِ باطنِ الأَعْضاء، مع أنَّه سيِّدُ الأَنْبيَاء، وسَنَدُ الأَوْلِيَاء؛ لاختيارِ المَوْلَى له الفقرَ على الغِنَى، فإنَّه أَوْلَى لسلوكِ طريقِ العُقْبَى، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦].

وأمَّا قولُه صلى الله تعالى عليه وسلم: «كادَ الفقرُ أنْ يكونَ كُفراً»[1]، مع نُدْرتِه، إشارةٌ إلى كمالِ مَشَقَّتِه، وعَدَمِ تحمُّلِ كلِّ أحدٍ على مرارتِه، ولذا قال صلى الله تعالى

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٣٦)، وابن الجوزي في «العلل» (١٣٤٦)، من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه. قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ». لكن قال الزركشي في «التذكرة» (ص ٢٠٩): ومن شواهده ما أخرجه النسائي وابن حبان في «صحيحه» من جهة أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر» فقال رجل: ويعتدلان؟ قال: «نعم». قلت: رواه النسائي (٥٤٨٥)، وابن حبان (١٠٢٦)، من طريق دراج أبي السمح عن أبي الهيثم به، ودراج في روايته عن أبي الهيثم ضعف كما في «التقريب».

عليه وسلم: «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ»[١] مِن الأَصْفِيَاء.

وشَدُّهُ الحجرَ على بطنهِ مِن الجوعِ وقعَ لهُ في حفرِ الخندقِ، رواهُ البخاريُّ عن جابرٍ[٢].

ورَوَى مسلمٌ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: جِئْتُ رسولَ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً فوَجَدْتُه جالساً مع أصحابهِ يحدِّثُهم وقد عَصَّبَ بطنَهُ بعصابةٍ، [فقُلْتُ لبعضِ أصحابهِ: لِمَ عَصَّبَ رسولُ اللهِ ﷺ بَطْنَهُ؟] فقالوا: مِن الجوع[٣]. نقله المحلِّيُّ.

ولمَّا كان في البيتِ الأوَّلِ إشارةٌ إلى صَلاتهِ وعبادتهِ، وفي هذا البيتِ إيماءٌ إلى صومهِ ورياضتهِ، وقد يَتَوهَّمُ مُتوهِّمٌ مِن العَوَامِّ أنَّ[٤] رياضتَهُ كانتِ اضْطِراريَّة، وعندَ الخواصِّ تُعتبرُ الرِّياضةُ الاختِيَاريَّة، أزالَ ذلكَ المَقالَ، فقال:

٣١ ـ ورَاوَدَتْهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ عَن نَفْسِهِ فأَرَاهَا أيَّما شَمَمِ

المُراوَدةُ: المُطالَبةُ، والمُفاعَلَةُ إذا لم تَكُنْ للمُغالَبةِ فهي للمُبالَغةِ، و(الشُّمُّ): جمعُ الأَشَمِّ، والشَّمَمُ: الارْتِفاعُ، و(مِن ذهبٍ) صفةٌ أو حالٌ، و(أيَّما شَمَم)؛ أي: شديدَ الارْتفاعِ، مفعولٌ ثانٍ لـ (أَرَاها)، وأصلُه: أنَّ (ما) زائدةٌ للتَّأكيدِ و(أيّ) مضافٌ إلى (شَمَمِ) وهو مصدرٌ بمعنى الوصفِ؛ أي: مُرتفعاً أيَّ مُرتَفعٍ، يقالُ: مَرَرْتُ برجلٍ أيِّ رجلٍ؛ أي: كاملٍ في الرُّجوليَّةِ، ثُمَّ استُعْمِلَ المضافُ والمضافُ إليه بمعنى الوَصْفِ المناسِبِ للمَقامِ.

والمعنى: أَعْرَضَ عن الدُّنيا وأَقْبَلَ على المَوْلَى، وآثَرَ مَتاعِبَ الفقرِ على مناصِبِ الغِنَى، حتَّى إنَّ الجبالَ الشَّامخة مِن الدَّنانيرِ الرَّاسِخة عَرَضَتْ نفسَها عليه،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضِيَ اللهُ عنه، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٤١٠١).

(٣) رواه مسلم (٢٠٤٠)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) في «د»: «أن هذه».

وتَزيَّنتْ بأنواعِ الزِّينةِ لَدَيه، ومالَتْ غايةَ الميلِ إليه، لعلَّه يَرفعُ النَّظرَ عليها، فتَرفَّعَ عن الالْتِفاتِ إليها، قال تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]، وما ذلك إلَّا بأَمْرِهِ بعدَ قضائِهِ وقَدَرِهِ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

وفيهِ إشارةٌ إلى ما رُوِيَ: أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ قال لهُ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ لكَ: أتُحِبُّ أنْ أَجْعلَ لكَ هذهِ الجبالَ ذهباً وتكونُ معكَ حيثُما كنتَ؟ فأطرَقَ ساعةً ثُمَّ قال: «يا جبريلُ! الدُّنيا دارُ مَن لا دارَ لهُ، ومالُ مَن لا مالَ لهُ، وقد يَجْمعُها مَن لا عقلَ له»، فقال لهُ جبريلُ: ثَبَّتَكَ اللهُ تعالى بالقولِ الثَّابتِ. قال المحلِّي: ذكره صاحب «الشفا» وغيرُه[1].

وفي هذا برهانٌ شافٍ وبيانٌ كافٍ، على فضلِ الفقيرِ الصَّابرِ على الغنيِّ الشَّاكِرِ، كما أجمعَتْ عليهِ السَّادةُ السُّنِّيَّة والطَّائفةُ الصُّفِّيَّةُ الصُّوفيَّة، نَفَعَنا اللهُ بأسرارِهم، وجَعَلَنا تابعينَ لآثارِهم، وكأنَّهُ أشارَ إلى معنَى هذا المَقال، مَن قال مِن أربابِ الكَمَال: هِمَّةُ الرِّجالِ تَهُدُّ الجِبال.

وفيهِ تلميحٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٣]، وإيماءٌ مَليحٌ إلى مَزِيَّةِ فضيلةِ نبيِّنا صلى الله تعالى عليه وسلم حيثُ عَرَضَ عليه المَوْلَى جميعَ الدُّنيا؛ لأنَّ الذَّهبَ وسيلةٌ إلى تمامِ لذَّاتها، وجميعِ شَهَواتها، مع أنَّهُ على وجهِ

---

(١) انظر: «الشفا» (١/ ١١٣). وهذا الحديث ـ كما ذكر العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ١٠٨٤) ـ ملفق من حديثين: الأول حديث أبي أمامة الذي رواه الترمذي إثر الحديث (٢٣٤٧)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٤) (٢٢١٩٠)، بلفظ: «عَرَضَ علي ربي عزَّ وجلَّ لِيَجْعَلَ لي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَباً فقلت: «لاَ يا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْماً وَأَجُوعُ يَوْماً..» الحديث، وإسناده ضعيف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند». والثاني حديث عائشة رضِيَ اللهُ عنها الذي رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٧١) (٢٤٤١٩)، ولفظه: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له». وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٨٦).

الإباحةِ، بل بدونِ المحاسَبةِ، كما وردَ في روايةٍ: فأَعْرَضَ عنها ولَمْ يَقبَلْ شيئاً مِنها، مع كمالِ الاحتياجِ بها، وإمكانِ تحصيلِ العباداتِ الماليَّةِ بسبَبِها، وسيِّدُنا يوسفُ عليه السَّلامُ عَرَضتِ امرأةٌ نفسَها عليهِ على وجهِ الحُرْمةِ، فوقعَ فيما وَقَعَ مِن الهَمِّ والهِمَّة[1]، فيا لها مِن همَّةٍ عظيمَة، ويا لها مِن نعمةٍ جَسيمَة، ويا لها مِن عصمةٍ وَسيمَة.

٣٢ـ وأَكَّـدَتْ زُهْـدَهُ فيهـا ضَرورتُـهُ إنَّ الضَّـرُورةَ لا تَعْـدُو عَلَـى العِصَـمِ

الزُّهـدُ: عـزوفُ النَّفْسِ عـن الدُّنيـا، والإعراضُ عـن الـهَوَى، والضَّـرورةُ: شـدَّةُ الحاجـةِ، ومنهـا الاضْطِـرارُ ضِـدُّ الاختِيَـار.

ويقالُ: عَدَا عليه: إذا غَلَبَهُ واستَوْلَى عليه.

والعِصَـمُ: جمـعُ عِصْمةٍ، وهي قوَّةٌ بالِغَـة، أو زاجِرةٌ سـابِغَة، أَوْدَعَها اللهُ تعالى فـي خَـوَاصِّ عبـادِه وأكابِرِ عُبَّـادِه، يَمْنعُهم عـن التَّعـرُّضِ لمَنْهيَّاتـِه، والإعراضِ عن مَأمُوراتِه.

يعني: أكَّد فَقْرَهُ الظَّاهريَّ، واحْتيَاجَهُ الحِسِّيَّ، زُهدُهُ وإعراضُهُ عن أعراضِ الدُّنيا، وعَدَمُ إقبالِهِ على جبالِ الذَّهَبِ الذَّاهبِ في الـهَوَى، فإنَّ هذا أمرٌ خارِقٌ للعادةِ، ولا يَختارُ هذا إلَّا مَن تَلَذَّذَ بحلاوةِ العِبادةِ، ومع هذا لا يكونُ تَرْكُ الدُّنيا والتَّوَجُّهُ إلى المَوْلَى

---

(١) هذا الكلام من المؤلف ـ رحمه الله ـ فيه نظر لا يخفى، ونبي الله يوسف منزه عما لمح إليه المؤلف من الهم، وقد قال أبو حيان رحمه الله في «البحر» (١٢/ ٤٤٤) (طبعة الرسالة) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ [يوسف: ٢٤]: طول المفسرون في تفسير هذين الهمين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق، والذي أختاره: أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها البتة، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارَفْتَ لولا أن عصمكَ الله... وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب...، إلى آخر ما قال، فراجعه ثمة.

إلَّا بعِصمةِ اللهِ في حقِّ الأنبياءِ، وبحفظهِ في جانبِ العلماءِ والأولياء[١]، فإذا حَصَلتْ لهم العِصمةُ الجَليَّة، وغَلَبَتْ بحِفْظِ اللهِ همَّتُهم العَليَّة، لا تَعْدُو ولا تَغْلِبُ الضَّرورةُ الغالِبيَّة على القُوَّةِ القَلْبيَّة، رَزَقَنا اللهُ مِن أذواقِهِم القُدْسيَّة، ونَفَعَنا بنَفَحاتِـهِمُ الأُنسيَّة.

٣٣ـ وكيفَ تَدْعُو إلى الدُّنْيا ضَرورةُ مَنْ لَـوْلَاهُ لَـمْ تُخْـرَجِ الدُّنْـيا مِـن العَـدَمِ

قال المحلِّيُّ: (تُـخْرَجْ) على بناءِ المفعولِ، وفيهِ نُكتةٌ لطيفةٌ لا تَخْفَى.

والدُّنْيا تأنيثُ الأَدْنَى بمعنى: الأَقْرب إلينا بالنِّسبةِ إلى الأُخرى، وقيل: مُشتقَّةٌ مِن الدَّناءَةِ والخِسَّةِ، وله بمقامِ التَّعجُّبِ غايةُ الـمُناسَبة، وهي في الأصلِ صفةُ الحياةِ أو الدَّارِ، وقد تُسْتعمَلُ بمعنَى أعراضِها الكاسِدَة، وأغراضِها الفاسِدَة، مِن الجاهِ والمالِ، وما يَتْبعُهما ممَّا يَجرُّ إلى الوَبَالِ في المآل، وبهذا الاعتبارِ تكونُ الدُّنيا مَذمومةً دَنِيَّة، وأمَّا إذا صُرِفتْ في مَرضاةِ الـمَوْلَى تكونُ مُستَحْسَنةً مَرْضيَّة، كما وَرَدَ: «نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالح»[٢].

ومع هذا تركُها أفضلُ عندَ الأكابرِ الكُمَّل، ولذا قال عيسى عليهِ السَّلامُ: يا طالِبَ الدُّنيا لِتبَرّ، تَرْكُكَ للدُّنْيا أَبرّ[٣].

وقـال ﷺ: «لـو أنَّ رجـلاً فـي حِجْـرِهِ دَراهمُ يَقْسِـمُها، وآخـرَ يَذْكُـرُ اللهَ، كان الذاكـرُ اللهَ أفضـلَ»، رواه الطبرانـيُّ[٤].

---

(١) في «ل»: «الأولياء» دون واو العطف.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢١١)، والطبراني في «الأوسط» (٣١٨٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رضِيَ اللهُ عنهما، وإسناده صحيح كما قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٨٩٢).

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٠٦).

(٤) رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٩٦٩) من طريق أبي الوازع عن أبي بردة عن أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه مرفوعاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤): «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله وثقوا». =

ثُمَّ الدُّنيا والآخرةُ على وجهِ الكمالِ لا تَجْتَمِعان، ولذا قيل: إنَّهما ضَرَّتان، أو: مِثْلُ كفَّتي الميزان.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مَن أَحَبَّ دُنْياهُ أَضَرَّ آخِرَتهُ، ومَن أَحَبَّ آخِرَتهُ أَضَرَّ بدُنْياه، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى»[١].

والمعنى: كيف تَدْعو إلى الـمَيْلِ إلى الدُّنيا الدَّنيَّة، وأعراضِها الفانِيَةِ الرَّدِيَّة، الضَّرورةُ الاخْتيَاريَّة، أو الفقرُ والحاجةُ الاختياريَّة، لِمَن لولا وجودُهُ، وفَضْلُه وجُودُهُ، لَمْ تَظْهرِ الدُّنيا مِن العَدَم إلى الوُجود، ولا وُجِدَ في العالَم غيرَ المُوْجِدِ موجود، وفيه لائِحةٌ إلى أنَّ الدُّنيا تابعةٌ له[٢]، ولا خُلِقتْ إلَّا لهُ ولأَتْباعِهِ، فكيف يكونُونَ تابِعِينَ لها، أو مغلوبينَ لهواها، بل هِمَّـتُهمُ العاليَة، ونَهْمَتُهم الغالِيَة، عَدَمُ الالتِفاتِ إلى النَّعيمِ الباقيَة، فَضْلاً عن اللَّذَّاتِ الفانِيَة، ولذا قيل: الدُّنيا حرامٌ على أهلِ الآخِرةِ، والآخِرةُ حرامٌ على أهلِ الدُّنيا، وهما حَرَامانِ على أهلِ اللهِ.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى ما وَرَدَ في الحديثِ: «لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخطيئةَ، وكان[٣] قد رأى على قوائمِ العرشِ مكتوباً: لا إلهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ، فسألَ اللهَ بحقِّ محمدٍ أنْ يَغفرَ له، فقال: إذْ سَأَلْتَني بحقِّه فقد غَفَرْتُ لكَ، ولولا محمَّدٌ ما خَلَقْتُكَ»، رواه الحاكمُ والبيهقيُّ[٤].

= لكن قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٣٨): «الصحيح عن أبي الوازع عن أبي برزة الأسلمي من قوله، خرجه جعفرٌ الفريابي».

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩) من حديث أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه. وقال الهيثمي في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٨٤): رواه أحمد ورواته ثقات.

(٢) كلمة «له» من «د»، وليست في «ل».

(٣) كلمة «كان» من «د»، وليست في «ل».

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٨٩) وقال: تفرد به عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف.

وآدمُ أبو البَشَرِ، وقد خَلَقَ اللهُ لهم ما في الأرضِ، وسخَّر لهم الشَّمسَ والقمرَ واللَّيلَ والنَّهارَ وغيرَ ذلك، وأمَّا الحديثُ القُدْسيُّ المشهورُ: لولاكَ لَـمَا خَلقْتُ الأفلاكَ، فليسَ له أصلٌ، لكنَّ معناهُ صحيحٌ.

٣٤ ـ محمَّـدٌ سـيِّدُ الكونَيْـنِ والثَّقَلَيْـ ـنِ والفَرِيقَيْـنِ مِن عُـرْبٍ ومِن عَجَمِ

رُوِيَ في (محمَّد) الجرُّ على أنَّهُ بَدَلٌ مِن (مَن)، والرَّفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ وهو: (هو)، والأظهرُ أنَّه مبتدأٌ، و(سيِّدُ) خبرُه، و(الكونَيْنِ)؛ أي: الوُجودَينِ، بمعنى: المَوجُودَينِ، وهما: الدُّنيا والعُقْبَى، والمرادُ: أهلُهما، أو: عالَـمُ الغَيبِ وعالَمُ الشَّهادةِ.

وقيل: الإضافةُ بمعنى: (في).

وعطفُ (الثَّقَلَينِ والفَرِيقَيْنِ) للتَّخصيصِ بعدَ التَّعميمِ، وللرَّدِّ على مَن خَصَّ رسالتَه[١] إلى الأنسِ دونَ الجنِّ، وإلى العربِ دونَ العَجَمِ، و(مِن) الأُولى بيانيَّةٌ والثَّانيةُ زائدةٌ للضَّرورة[٢].

وفي العربِ والعجمِ لُغتانِ: فَتْحُهما، وضمُّ الأوَّلِ وسكونُ الثَّاني، ففي البيتِ تَفَنُّنٌ.

وتُقرأُ نونُ (الثَّقَلين) مِن المِصْراعِ الثَّاني.

والمعنى: محمدٌ الذي كَثُرتْ مَحامِدُه ومَناقِبُه، وكَثُرتْ حامِدِيَّتُه[٣] حيثُ عُرِفتْ مَراتبُه ـ فإنَّه في الأصلِ اسمُ مفعولٍ للمُبالَغةِ، ثُمَّ نُقِلَ مِن الوصفيَّةِ إلى الاسْميَّةِ، فرائحةُ الوصفيَّةِ لائحةٌ في العَلَميَّة ـ سيِّدُ مَن وُجِدَ في الكونَيْنِ، وأفضلُ مَن ظَهَرَ في العالَمينِ؛ لأنَّه تعالى خَلَقَ لأَجْلِهِ الدَّارَينِ، وأرسلهُ إلى الثَّقلَيْنِ مِن الجنِّ والإنسِ،

---

(١) في «د»: «الرسالة».

(٢) في هامش «د»: «و(من عرب) بضم أوله وسكون ثانيه، و(من عجم) بفتحتين معطوف على (من عرب) و(من) للبيان. من شرح الشيخ خالد الأزهري».

(٣) في «ل»: «حامديه».

والصِّنفينِ مِن العَرَبِ والعَجَمِ المكلَّفينِ، بل قيل: إنَّه مُرسَلٌ إلى الملائكةِ، وقيل: إلى الحجرِ والشَّجرِ والنَّباتاتِ، وجميعِ المخلوقاتِ، وسائرِ الحيواناتِ، بل قيل: إنَّه مُرسلٌ إلى الأنبياءِ السابقِين[1]، فهو أفضلُ الخَلْقِ أجمعين، على الإطلاقِ بالاتِّفاق.

٣٥ ـ نبيُّنا الآمِرُ النَّاهي فلا أحدٌ   أَبَرَّ في قولِ لا مِنهُ ولا نَعَمِ

النبيُّ أصلُه الهَمْزُ، وقد قُرِئَ به[2]، وهو فعيلٌ بمعنَى المفعولِ أو الفاعلِ، فإنَّه مُخْبَرٌ ومُخْبِرٌ، والجمهورُ بالياءِ المشدَّدةِ، والظاهرُ أنَّه مُبْدَلٌ.

وقيل: إنَّه مأخوذٌ مِن النَّبْوةِ وهو الرِّفْعةُ، فإنَّه مرفوعُ الـمَرتبةِ.

وهو إنسانٌ بعثهُ اللهُ وأَوْحَى إليهِ سواءٌ أُمِرَ بالتَّبليغِ أم لا، فهو أعمُّ مِن الرَّسولِ، وأشارَ إليهِ بقولِهِ: (الآمِرُ النَّاهي). و(أَبَرَّ) بمعنَى: أَصْدَق، مِن بَرَّ في الحديثِ: صَدَقَ.

يعني: سيِّدُنا ونبيُّنا ومولانا ورسولُنا هو الآمِرُ بما هو مأمورٌ مِن عندِ اللهِ؛ مِن العقائدِ الرَّضِيَّة، والأعمالِ السَّنِيَّة، والأخلاقِ البَهِيَّة، والنَّاهي عن الأمورِ الدَّنِيَّة، والأفعالِ الرَّدِيَّة، وهو في تكميلِ النَّاقِصينَ حاذِقٌ، وفي إخبارِه بكلِّ ما أَخْبرهُ صادِقٌ؛ لأنَّه ما يَنْطِقُ عنِ الهوَى، بل بالوَحْيِ الجَلِيِّ أو الخَفِيِّ مِن عندِ المَوْلَى، فلا أحدَ أصدقُ منه في النَّفي والإثبات، ولا أحقُّ منهُ في الوعدِ والوعيدِ وسائرِ الحالات.

٣٦ ـ هو الحَبِيبُ الذي تُرْجَى شَفَاعتُه   لكلِّ هولٍ مِن الأهوالِ مُقْتَحِمِ

(الحبيبُ) بمعنى: المحبوبِ، ومَحبَّةُ المخلوقِ: هي مَيلُ النَّفْسِ إلى مُلائِمِهِ،

---

(١) في «د»: «والسابقين».

(٢) قرأ نافع قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـِٔنَ﴾ و﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ و﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ و﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ بالهمز في كل القرآن، إلاَّ في موضعين في سورة الأحزاب: قوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ﴾، ففيهما تفصيل انظره في «التيسير» للداني (ص ١٥٧).

ومَحبَّةُ الخالقِ لعبدِه: تَمكينُه مِن سعادتهِ، وتوفيقُه على عبادتهِ، وتَهْيئةُ أسبابِ قُرْبتهِ، والإفاضةُ عليهِ مِن خزائنِ رحمتهِ.

والشَّفاعةُ: طَلَبُ العفوِ والفضلِ مِن الغَيْرِ للغَيْرِ.

والهولُ: مصدرٌ بمعنَى الخوفِ، يُستعمَلُ بمعنى الهائلِ أو المَهُولِ منهُ. واقْتَحَمَ في الأمرِ؛ أي: دخلَ فيه بشدَّةٍ، والتَّقديرُ: لكلِّ هولٍ مُقتحَمٍ فيه.

والمعنى: ذلك السيِّدُ العَلِيُّ الشَّان، والنَّبيُّ الجَليُّ البُرهان، هو حبيبُ اللهِ وأحبَّائِه، ولا عِبرةَ بمَن سِواهُمْ مِن أعدائِه، الذي ثَبتَتْ شفاعتُه وتُرْجَى إجابتُه لكلِّ أمرٍ عسيرٍ وهولٍ خَطيرٍ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ لهُ شفاعاتٍ متعدِّدَة؛ كما وَرَدَ بها الأحاديثُ المعتمَدَة:

منها: الشَّفاعةُ العُظْمَى، وهي المَقامُ المحمود، واللِّواءُ الممدود، الذي يَحتاجُ إليهِ الوالدُ والمولود.

ومنها: الشَّفاعةُ في إسقاطِ العذابِ، أو تخفيفِهِ عن المعذَّبين[1].

ومنها: المُسامَحةُ عن ذنوبِ المُستَحِقِّين.

ومنها: رَفْعُ درجاتِ مَن شاءَ اللهُ مِن المؤمنين.

٣٧ ـ دَعَا إلى اللهِ فالمُسْتَمْسِكونَ بِهِ ... مُسْتَمْسِكونَ بحبلٍ غيرِ مُنْفَصِمِ

الاسْتِمْساكُ: التَّمسُّكُ والتَّشَبُّثُ والتَّعَلُّقُ، والحَبْلُ معروفٌ، ويُستعارُ لِمَا يَتعلَّقُ به ويُتَوَصَّلُ به إلى المطلوب. والانْفِصامُ: الانْقِطاعُ.

والمعنى: دَعَا الخَلْقَ إلى طاعةِ الخالقِ دعوةً تامَّةً كاملة، غيرَ منسوخةٍ مخصوصةٍ بل هي شامِلَة، للخَلْقِ إلى يومِ القيامةِ واصِلَة، وفيه إشارةٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ

(١) يعني: من المؤمنين، فإن الكافرين في نار جهنم خالدين، لا يخفف عنهم وما هم منها بمخرجين.

سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وإيماءٌ إلى قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [فصلت: ٣٣]، فمَن تمسَّكَ بدعوتِهِ مِن كتابِهِ وسُنَّته، فقد تمسَّك بحبلٍ وثيقٍ غيرِ منقطعٍ إلى حينِ وُصْلته، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ أي: لا انقطاعَ، وفيه إشارةٌ إلى بِشارةِ حُسْنِ الخاتمة.

٣٨ ـ فاقَ النَّبيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولَـمْ يُدَانُـوهُ فـي عِلْـمٍ ولا كَـرَمِ

فاقَهُ وفاقَ عليه: زادَ عليهِ في الرِّفعةِ مِن فوقٍ.

و(الخَلْق) بفتحِ الخاءِ: حُسْنُ الصُّورةِ، وهي اعتدالُ الأعضاءِ، وتَناسُبُ الأشكالِ، و(الخُلُق) بضمَّتينِ ـ وقد يُسكَّنُ الثَّاني ـ: حُسْنُ السِّيرةِ، وهي اعتدالُ قُوَى النَّفْسِ وأوصافِها بالكمال، وخَصَّ منها العِلْمَ لأنَّه رأسُ الفضائل، والكَرَمَ لأنَّه أُسُّ الفَوَاضل، وهو مَبْنيٌّ على القُدرةِ، فهما مَرْجِعَا الكمالاتِ بأسرِها، ومَدَارُ نظامِ الكائناتِ عن آخِرِها.

يعني: أنَّه صلى اللهُ تعالى عليه وسلم فاقَ الأنبياءَ في الجمالِ الصُّوريِّ، حتَّى رَجَّحوهُ على الكريمِ[1] بنِ الكريمِ بنِ الكريمِ، وفي الكمالِ المعنويِّ، حتَّى أَثْنَى اللهُ عليه بقولِهِ تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولَمْ يُقارِبْهُ أحدٌ مِن الأنبياء، فضلاً عن العلماءِ والكُرَماءِ مِن الأولياءِ والأصفياء، في جنسٍ مِن أجناسِ علمِهِ، وفي نوعٍ مِن أنواعِ كَرَمِهِ، واطْلُبْ تفصيلَ هذه المناقِبِ العَلِيَّة، في كتابِ «المَواهِبِ اللَّدُنِّيَّة».

٣٩ ـ وكُلُّهُمْ مِن رسولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفاً مِن البحرِ أو رَشْفاً مِن الدِّيَمِ

---

(١) في هامش «ل»: «أي: يوسف عليه السلام».

الغَرْفُ والاغْتِرافُ: أخذُ الماءِ باليدِ مِلْءَ الكفِّ، والرَّشْفُ: المصُّ، والدِّيمُ: جمعُ الدِّيمةِ، وهي المطرُ الدَّائمُ المتَّصلُ باللَّيلِ والنَّهارِ.

والمعنى: وجميعُ الأنبياءِ ـ أو كلُّ واحدٍ مِنهُم ـ مُلْتمِسٌ ومُستَمِدٌّ مِن رسولِ اللهِ الفَرْدِ الأكمل، والغوثِ الأفضل، وهو مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ الـمُضْمَرِ؛ للتَّنبيهِ على الوَصْفِ النَّبيه.

(غَرْفاً)؛ أي: شيئاً يَسيراً، أو مَدداً كثيراً، مِن بحرِ عِلْمِه، (أو رَشْفاً)؛ أي: استِطْعاماً لطيفاً واستِسْقاءً شريفاً مِن أمطارِ كَرَمِه، ومِن مَوائدِ نِعَمِه.

٤٠ ـ وواقِفونَ لَدَيْهِ عندَ حَدِّهِمُ مِن نُقْطةِ العِلْمِ أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ

(لَدَيهِ)؛ أي: عندَه صلى الله تعالى عليه وسلم، وحَدُّ الشَّيءِ: غايتُه ومُنْتهاهُ، والنُّقطةُ بالضَّمِّ: ما حَصَلَ مِن النَّقْطةِ بالفَتْحِ، مِن نَقَطَ الكتابَ نَقْطاً ونَقَّطَهُ: وَضَعَ عليهِ النُّقْطةَ. و(الشَّكْلةُ) بالفتحِ مِن شَكَلْتُ الكتابَ: إذا قيَّدْتَه بالإعراب. و(الحِكَم): جمعُ الحِكْمةِ، وهي إحكامُ الرَّأي والتَّدْبير، وقيل: إتْقانُ العلمِ والعَمَلِ.

وخَصَّ النُّقْطةَ بالعلمِ والشَّكْلةَ بالحِكَمِ؛ لأنَّ الشَّكْلَ يَحصُلُ به مَزيدُ بيانٍ لا يحصلُ بالنُّقطة، كذا قيل.

والأظهرُ: أنَّ النُّقطةَ أَوْلَى بمزيَّةِ الظُّهورِ، ولذا أُضيفَتْ إلى العلمِ، والشَّكْلةَ أمرٌ زائدٌ خارجٌ عن ماهِيَةِ المفهومِ المتوقِّفِ على النُّقطةِ التي مَدارُ البِنْيةِ عليها، ولذا نُسِبَتْ إلى الحِكَمِ، وهي علومٌ دَقيقةٌ عقليَّةٌ مُتفرِّعةٌ على العلومِ الشَّرْعيَّة، ولذا لـمَّا أرادَ رئيسُ[1] الحُكماءِ الظَّاهريَّةِ أنْ يستغنيَ عن رئيسِ العلماءِ الباطنيَّةِ، رُدَّ عن الباب، ووَقَعَ في الحِجَاب، المُنْتجِ للعذاب، والحِرْمانِ عن الثَّواب.

---

(١) كتب فوقها في «ل»: «المراد به: علي بن أبي سينا قلت: لعله يريد (أبو علي ابن سينا)، الملقب بالرئيس».

ولمَّا كان كلٌّ مُفرَداً لفظاً وعبارةً عمَّا أُضيفَ إليهِ معنًى، جازَ إفرادُ الضَّميرِ العائدِ إليهِ أوَّلاً في (مُلْتَمِسٌ)، وجمعُه ثانياً في (واقفون)؛ كقولِهِ تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [ق: ١٤]، وقولِهِ تعالى: دَعَا الخَلْقَ إلى طاعةِ الخالقِ دعوةً تامَّةً كاملة، غيرَ منسوخةٍ مخصوصةٍ بل هي شامِلَة، للخَلْقِ إلى يومِ القيامةِ واصِلَة ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

والمرادُ مِن (العلمِ): علمُ اللهِ الذي لا يَتَناهَى، ومِن (الحِكَم): حِكَمهُ التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى.

ثُمَّ إنَّ علومَ الأنبياءِ والعلماءِ بأسرِها بمنزلةِ نقطةٍ مِن كلماتِ اللهِ التي لا تَنْفَدُ، وحِكَمَ الحكماءِ عن آخِرِها بمنزلةِ شَكْلةٍ مِن حِكَمِ اللهِ التي لا تُعَدُّ، وهذه النُّقطةُ والحِكمةُ حاصِلَتانِ لهُ عليه السَّلامُ على وجهِ التَّمَام، والأنبياءُ لهم حَدٌّ مُعيَّن، ومَقامٌ معلومٌ مُبيَّن، يقفونَ عندَه لا يَتَخطَّونَ عنهُ قَدْرَ أُنْمُلة، ولا يَتعدَّونَ منهُ طُولَ نَـمْلة.

وما ذَكَرْتهُ في نُقطةِ العلمِ إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإشارةٌ إلى قولِ الخَضرِ لموسى عليهما السَّلامُ لـمَّا غَمَسَ العصفورُ منقارَهُ في البحرِ: «ما عِلْمُكَ وعِلْمِي وعِلْمُ الخلائقِ في عِلْمِ اللهِ تعالى إلَّا مقدارُ ما غَمَسَ هذا العُصفورُ مِنقارَهُ» رواه البخاريُّ[1].

ويَحْتمِلُ أنْ يُرادَ بالعلمِ والحِكَمِ: عُلومُهُ وحِكَمهُ صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنَّ عِلْمَهُ حاوٍ لفُنونِ[2] العلمِ؛ كعلمِ القراءةِ والتفسيرِ والحديثِ والفقهِ والقِصَصِ والـمَوَاعظِ والعقائدِ وغيرِها، وفي كلٍّ مِنها صُنِّفَ مُجلَّداتٌ وأُلِّفَ مُدوَّناتٌ، وكذا حِكَمُهُ جامِعٌ لأنواعِ الحِكَمِ:

منهـا: علمُه بالطِّـبِّ الظَّاهـريِّ المتعلِّقِ بالأشـباح، وعِلْمُهُ بالعـلاجِ المعنويِّ المُصْلحِ لأمـراضِ الأَرْواح.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما.

(٢) في هامش «ل»: «لعله: لأنواع».

ومنها: علومُ خَوَاصِّ الأشياءِ مِن مَنافِعِها أو مضارِّها.

ومنها: معرفةُ أحوالِ الفَلَكيَّةِ والآفاقيَّةِ، المسمَّاةِ بالهيئةِ السَّنِيَّةِ السُّنِّيَّة.

ومنها: عِلْمُهُ بالأمورِ الغَيبيَّةِ التي عَجزَ عنها الكَهَنةُ والـمُنَجِّميَّة.

ومنها: حقائقُ الصُّوفيَّةِ ودقائقُ العَرَبيَّة، فدَوَّنَ الدَّفاترَ وزَيَّنَ المنابرَ تحريرُها[1] وتقريرُها، حتَّى صار علماءُ أُمَّتي وَرَثَةَ الأنبياء، وظَهَرتْ لهم خَوَارِقُ العاداتِ المنسوبةُ إلى الأولياءِ الأَصْفيَاء.

فعِلْمُ كلِّ نبيٍّ وحِكْمتُهُ كنقطةٍ مِن كتابِ عِلمِهِ، وشَكْلةٍ مِن بابِ حِكَمِهِ، يعني: حَدُّهم ورُتْبَتُهم بالنِّسبةِ إلى مَقامِهِ ومَنزلتِهِ مِثْلُ مَرْتبةِ النُّقطةِ مِن اللَّفظِ والـمَبنَى، أو نسبةِ الشَّكْلةِ والإعرابِ مِن المعنى، ولذا قالَ صلى الله تعالى عليه وسلم: «أُوْتِيتُ بجوامعِ الكَلِم»[2]، و: «أُمِرْتُ بمكارِمِ الأخلاق»[3]، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]، فـ(مِن) في البيتِ على هذا بيانيَّةٌ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ ابتدائيَّةٌ، و(أو) للتَّقْسيم.

٤١ ـ فَهْوَ الذي تَمَّ معناهُ وصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبيباً بارِئُ النَّسَمِ

يُقرأُ البيتُ بسكونِ الهاءِ في (فهو) وبإشباعِها في (معناه)، وهما لُغتانِ مشهورَتان، وقراءَتانِ مُتَواتِرَتان، فأخطأَ مَن قال: إنَّهما مِن ضَروراتِ الشِّعر.

و(حَبيباً) حالٌ، وقيل: مفعولٌ ثانٍ لـ(اصْطَفَاهُ) بتَضْمينِهِ معنى: جَعَلَ،

(١) في «ل»: «بتحريرها».

(٢) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه. ولفظ البخاري: «بعثت بجوامع...»، ولفظ مسلم: «أعطيت جوامع...» وفي رواية: «أوتيت جوامع...»، وفي رواية كالبخاري: «بعثت». وأما لفظ المؤلف: «أوتيت بجوامع...» فلعله خطأ.

(٣) معناه صحيح لكن لم أجده بهذا اللفظ.

و(النَّسَم) بفتحتَيـنِ: جمـعُ نَسَـمةٍ، وهـي النَّفْـسُ، أو كلُّ ذي رُوحٍ، وقيـل: هـي الآدَمـيُّ، والفـاءُ للجـزاء.

أي: إذا عَرَفْتَ[1] أنَّه عَلَا على الأنبياءِ في الخَلْقِ والخُلُقِ، وفاقَ عليهِم في الشَّريعةِ والحقيقةِ، أو في الأعمالِ والأحوالِ[2]، أو في العِلْمِ والعملِ، أو في الظَّاهِرِ والباطنِ، أو في مُعامَلتِهِ مع الخَلْقِ والحَقِّ، أو في الكمالِ الـمُطْلَق، ثُمَّ اختارَهُ واجْتَباه، واتَّخذَهُ مُحِبّاً أو مَحبوباً وارْتَضَاه، مِن بينِ الخلائقِ بارئُ النَّسَمات، وفاطِرُ الأرضِ والسَّماوات.

و(ثُمَّ) لإفادةِ التَّرتيبِ في الصِّفات، وقيل: إنَّها على بابها مِن التَّراخي، يعني: قُرِّرَتْ لهُ مرتبةُ النُّبُوَّةِ بعدَ تمامِ الصُّورةِ والسِّيرةِ، وإنْ كانَ إعطاءُ هذه الرُّتبةِ المعنويَّةِ غيرُ متوقِّفةٍ على وجودِ الكمالاتِ الصُّوريَّةِ، فإنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ بالسَّويَّة، وإنَّما الاختلافُ مَبْنيٌّ على الأمورِ العاديَّة، وفيهِ إيماءٌ إلى وجهِ انتظارِ الاصْطِفاءِ إلى المدَّةِ الأَرْبَعينيَّة، وترجيحهِ على عيسَى ويَحْيَى ممَّن أُعطيَ النُّبُوَّةَ في حالِ الطُّفوليَّة، وإنْ كان المتبادِرُ إلى الوهمِ عكسَ هذهِ القضيَّة، وهذا مستفادٌ مِن الكلماتِ العِصَاميَّة.

وفـي البيـتِ تَلْويـحٌ إلـى قولـهِ تعالـى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وتلميـحٌ إلـى حديثٍ صحيحٍ، وهو قولُـه صلى الله تعالى عليـه وسـلم: «إنَّ اللهَ اصْطَفَـى كِنانةَ مِن ولـدِ إسـماعيلَ، واصْطَفَى مِن كنانةَ قُريشـاً، واصْطَفَـى مِـن قُريشٍ بني هاشـمٍ، واصْطَفانـي مِن بني هاشـمٍ» رواهُ مسـلمٌ[3].

وفي روايةٍ: «إنَّ اللهَ اصْطَفَى مِن وَلَدِ إبراهيمَ إسماعيلَ» الحديثَ رواهُ الترمذيُّ[4].

---

(١) في «ل»: «عرف».

(٢) كتب تحتها في «د»: «جواب إذا». وهذا غير ظاهر، ولم أجد في السياق ما يصلح أن يكون جواباً لـ(إذا).

(٣) رواه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضِيَ اللهُ عنه.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٠٥) من حديث واثلة رضِيَ اللهُ عنه وقال: حسن صحيح.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يومَ القيامةِ ولا فَخْرَ، وبيدِي لِواءُ الحمدِ ولا فَخْرَ، وما مِن نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمَن سِوَاه إلَّا تحتَ لوائي، وأنا أوَّلُ مَن تَنْشقُّ عنهُ الأرضُ ولا فَخْرَ، وأنا أوَّلُ شافعٍ [وأوَّلُ] مُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ» رواهُ أحمدُ والتِّرمذيُّ وابنُ ماجه[1].

٤٢ ـ مُنَزَّهٌ عن شَريكٍ في مَحَاسِنِهِ فجوهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنْقَسِمِ

(مُنَزَّهٌ) خبرٌ ثانٍ لـ (هو)، أو مُبتَدَؤُه محذوفٌ، وهو: هو، والمحاسِنُ: جمعُ حَسَنٍ على خلافِ القياس، و(فيهِ) بإشباعِ الضَّمَّةِ صفةُ (الحُسْنِ) أو حالٌ منه.

وفي إثباتِ الجوهَرِ للحُسْنِ الذي هو عَرَضٌ والحُكْمِ عليه بعَدَمِ الانْقِسامِ لَطافةٌ لا تَـخْفَى.

يعني: أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم مُنْفرِدٌ في جمالِ الصُّورةِ البَهِيَّة، والسِّيرةِ السَّنِيَّة، لا يُشارِكُه في كمالِهما أحدٌ مِن البَرِيَّة، إمَّا في مجموعِ المحاسِنِ مِن حيثُ المجموعُ على الوجهِ الحقيقيِّ، وإمَّا في كلِّ واحدٍ منها على طريقِ الادِّعائيِّ، فكأنَّ مَحاسِنَ غيرِه غيرُ حُسْنٍ في جَنْبِ حُسنِهِ.

٤٣ ـ دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصَارَى في نَبِيِّهِمُ واحْكُمْ بما شِئْتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ

يجوزُ في (نبيِّهم) التَّشديدُ والهمزُ، ويُقرأُ بإشباعِ ميمِ الجمعِ ولو وَقْفاً؛ تَنْزيلاً للوَقْفِ منزلةَ الوصلِ للوَزْنِ، و(مَدْحاً) تمييزٌ، والاحْتِكامُ: استِعمالُ الحِكمةِ وإتقانُ الحُكْمِ.

يعني: اتْرُكْ في مَدْحِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم مِثْلَ ما ادَّعَتْهُ النَّصارى في نبيِّهم عيسى عليهِ السَّلامُ مِن الاتِّحادِ، والحُلولِ، والتَّثْليثِ، والتَّناسُخِ، والتَّوالُدِ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٢)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد رضِيَ اللهُ عنه. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ونحوِ ذلك ممَّا يُوجِبُ الكفرَ والشِّرْكَ والضَّلَالَ، ويَترتَّبُ عليه العذابُ والنَّكَالُ، والوَبَالُ والأغلال، حيثُ قال بعضُهم: المسيحُ ابنُ اللهِ، وقال بعضُهم: إنَّ اللهَ هو المسيحُ، وقال بعضُهم: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ، واحْكُمْ ما شِئْتَ في حقِّه مِن جهةِ نَعْتِهِ ومَدْحِهِ؛ مِن شَرفِ شأنِه، وعُلُوِّ مَنْصبِهِ ومكانِه، وتكلَّمْ بالحِكْمَةِ، وأَتْقِنْ في الحُكْمِ بالمِدْحةِ، حتَّى لا تتجاوَزَ عن الحدِّ الإنسانيِّ إلى الوصْفِ الصَّمَدانيِّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، أينَ التُّرابُ وربُّ الأرباب؟!

٤٤ ـ وانْسُبْ إلى ذاتِهِ ما شِئْتَ مِن شَرَفٍ وانْسُبْ إلى قَدْرِه ما شِئْتَ مِن عِظَمِ

(ما) موصولةٌ، و(مِن) بيانيَّةٌ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ فيهما، والفاءُ للعطفِ التَّفسيريِّ، أو للفَصاحةِ عن الشَّرطِ التَّقْديريِّ؛ أي: إذا تَركْتَ مِثْلَ دَعْوَى النَّصارَى وكلامَ الحَيَارَى فلكَ السَّعةُ في دائرةِ النِّسبةِ إلى ذاتِهِ المعظَّمةِ ما شِئْتَ مِن الأوصافِ المكرَّمةِ؛ مِن جمالِ الخَلْقِ، وكمالِ الخُلُقِ، وطِيبِ العِرْقِ، وذكاءِ اللُّبِّ وصَفاءِ الجَنَانِ، وبلاغةِ الكلامِ وفصاحةِ اللِّسانِ، وسائرِ كمالاتِ الإنسانِ، فإنَّه مَنْبعُ الإحسانِ، ومُبْدَعُ الرَّحمنِ.

وأيضاً لك الرُّخصةُ في النِّسبةِ الدَّائرةِ على إحاطةِ كمالِ قَدْرِهِ ومَرْتبتِه، وجمالِ طَوْرِهِ وعَظَمتِه، ما أَرَدْتَ مِن أنواعِ العظمةِ وفنونِ الكرامةِ، وأجناسِ المعجزةِ التي لا يُسْتَقْصَى حَدُّها، ولا يُحْصَى عَدُّها[1].

٤٥ ـ فإنَّ فَضْلَ رسولِ اللهِ ليسَ لهُ حَدٌّ فيُعْرِبَ عنهُ ناطِقٌ بفَمِ

الفاءُ للتعليلِ لامْتِناعِ المدحِ بالتَّفصيلِ، ونَصْبُ (يُعْرِبَ) على جوابِ النَّفْيِ، وضميرُ (عنهُ) للحدِّ، ويُقرأُ بالإشباعِ على لُغةِ مُراعاةً للزِّنَةِ، والباءُ للاستِعانةِ متعلِّقةٌ بـ (ناطقٌ) أو (يُعْرِبَ).

---

(١) في هامش «ل»:

«وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف»

والإعرابُ: الإفصاحُ والبيانُ والإيضاحُ، وهو لا يكونُ إلَّا باللِّسان، فالتَّعبيرُ عنهُ بالفمِ مِن بابِ إرادةِ الحالِ بذِكْرِ المكان، وفائدةُ ذِكْرِهِ مع أنَّ النُّطْقَ لا يكونُ بغيرِهِ: زيادةُ إفادةِ عمومِ الحكمِ في عَدَمِ حَصْرِ قَدْرِه، وقولُه تعالى: ﴿وَمَامِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣٨] مِن نظائرِهِ.

يعني: إنَّما أمرتُكَ بالنِّسبةِ الإجماليَّة، في عَدِّ صِفاتِهِ الكَماليَّة، فإنَّ فضائلَهُ التَّفصيليَّة ليس لها نهايَة، حتَّى يُمْكِنَ أنْ يُبَيِّنَهُ أحدٌ على غايَة، ولو بَلَغ مَبْلَغَ البُلغاءِ والفُصَحاءِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه أفضلُ من جميعِ الملائكةِ وسائرِ الأنبياء، بل إيماءٌ إلى أنَّه لا يَعْلَمُ حقيقةَ الذَّاتِ المحمَّديَّة، وحقيقةَ الصِّفاتِ الأحمديَّة، إلَّا الموصوفُ بصفاتِ الرُّبوبيَّة، ولذا قال بعضُ العارِفين: الخَلْقُ عَرَفوا الصِّفاتِ الأُلوهيَّة، ولَمْ يَعرِفوا النُّعوتَ المُصْطفويَّة.

٤٦ ـ لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَماً أَحْيا اسْمُهُ حينَ يُدْعَى دارِسَ الرِّمَمِ

العِظَمُ بكسرِ العينِ خِلافُ الصِّغَرِ، كذا في «القاموس»[1]، فيكونُ مُستعاراً للعَظَمةِ، والرِّمَمُ: جمعُ الرِّمَّةِ؛ كالقِطَعِ والقِطْعةِ، وهي العظامُ الباليَةُ.

ويقالُ: دَرَسَ الرَّسمُ: إذا عَفَا، فانْدِراسُها زيادةٌ في البِلَى.

و(قَدْرَه) مفعولٌ به قُدِّمَ لاهتمامِهِ، و(عِظَماً) تمييزٌ؛ كـ: طابَ زيدٌ نَفْساً، و(اسْمُهُ) فاعلُ (أَحْيا)، والنِّسبةُ مَجازيَّة، فإنَّ الإحياءَ مِن الصِّفاتِ الإلهيَّة، وضميرُ (يُدْعَى) راجعٌ إلى (اسْمُهُ)، أو إلى الله، أي: يُسأَلُ باسْمِهِ، و(دارِسَ) مفعولٌ، والإضافةُ مِن قَبيلِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ؛ أي: الرَّميمَ الدَّارِسَ، والجملةُ جوابُ (لو).

والمعنى: أنَّه ظَهَرَ لهُ الآياتُ البيِّناتُ الدالَّةُ على رسالتِهِ ونبوَّتِهِ، وتَبَيَّنَتْ له الكراماتُ والمعجزاتُ المُشْعِرةُ على عُلُوِّ مَرْتبتِهِ ورِفْعتِهِ وعَظَمتِهِ بقَدْرِ ما

(١) انظر: «القاموس» (مادة: عظم).

اقْتَضَى مِن قضاءِ اللهِ وقَدَرِه وحكمتِهِ وإرادتِه، ومِن جملةِ مُعجزاتِهِ إحياءُ الموتَى حتَّى على أيدي بعضِ أمَّته، ومع هذا لو أرادَ اللهُ تعالى المناسَبةَ التَّامَّةَ السَّنِيَّة بينَ ذاتِهِ العَلِيَّة وآياتِهِ البَهِيَّة، لأَحْيا اللهُ تعالى باسمِهِ فضلاً عن رَسْمِهِ إذا دُعِيَ وذُكِرَ اسمٌ مِن أسمائِهِ أو وصفٌ مِن أوصافِ صفاتِهِ العظامَ الباليَةَ والأجسامَ الفانِيَةَ مِن الأمواتِ الحقيقيَّةِ والمَجَازِيَّة، حيثُ جَعَلَ خاصيَّةَ اسمِهِ المحمَّديِّ أو وَصْفِهِ الأحمديِّ[1] أنَّهُ إذا ذُكِرَ على ميتٍ حقيقيٍّ لصارَ حيّاً حاضِراً، وإذا ذَكَرَهُ كافرٌ أو غافلٌ جُعِلَ مؤمناً وحُوِّلَ ذاكراً، لكنَّ اللهَ تعالى سَتَرَ جمالَ هذا الدُّرِّ المكنون، وكمالَ هذا الجوهرِ المَصُون، لحكمةٍ بالغةٍ ونكتةٍ سابِغَة، ولعلَّها ليكونَ الإيمانُ غيبيّاً، والأمرُ[2] تكليفيّاً، لا الشُّهودُ عينيّاً والعِيَانُ بديهيّاً، أو لئلَّا يَصيرَ مَزْلقةً لأقدامِ العَوَامّ، ومَزَلَّةً لتنصر[3] الجهَّال بمعرفةِ المَلِكِ العلَّام.

ولا شُبهةَ أنَّ في مَقامِ المبالغةِ عَودُ ضميرِ (يُدْعَى) إلى (اسْمُه) أَوْلَى مِن أنْ يُقالَ: يُدْعَى اللهُ تعالى بأسمائِهِ الحُسنَى. ولا يَرِدُ أنَّ القرآنَ لشَرفِهِ شأنٌ لا يُمْكِنُهُ البيانُ، فإنَّ الكلامَ في عظمةِ الدَّلالة، لا في شَرَفِ المَقالة، فإنَّهُ لو كان دلالةُ القرآنِ ظَهَرتْ على قَدْرِ عَظَمةِ نبيِّنا العظيمِ الشَّأْنِ لَمَا أنكرَ أحدٌ نبوَّتَهُ ورسالتَه، وأَظْهَرَ اللهُ في الدُّنيا عظمتَه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]؛ أي: لكانَ هذا القرآنَ، لكنَّه صُرِفَ عمَّا ذُكِرَ لَمَّا كان هناك مانعٌ منيعاً ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ثُمَّ خَطَرَ لي أنَّ الناظِمَ لو قال:

لو ناسَبَتْ عُظْمَهُ آياتُه عِظَماً ... أَحْيا اسمُه حينَ يُدْعَى العَظْمَ في الرِّمَمِ

---

(١) في «د»: «اسمه الأحمدي أو وصفه المحمدي».

(٢) في «د»: «والأمرور»، وفي «ل»: «والأمور»، ولعل المثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

(٣) كلمة: «لتنصر» كذا وقعت في «د»، وغير واضحة في «ل».

بضمِّ العينِ في (عُظْمَه)، وبفتحِها في (العَظْم) لكانَ أنسبَ بالمناسبةِ اللَّفظيَّة، والمُلاطَفةِ النُّطْقيَّة، مع مُراعاةِ اللَّطائفِ المعنويَّة، التي تَقْتَضِي الذَّاتَ الجامِعيَّة.

٤٧ ـ لَمْ يَمْتَحِنَّا بمَا تَعْيَا العُقولُ به حِرْصاً علينا فلَمْ نَرْتَبْ ولَمْ نَهِمِ

الامتحانُ: الابتِلاءُ والاختبارُ، وعَيِيَ بالأمرِ: عَجَزَ عنهُ ولَمْ يَهْتدِ لوَجْهِهِ.

والعقلُ: مَلَكةٌ تَعْقِلُ صاحِبَها عن الفَضَائح، وتمنعُه عن القَبَائح.

والحرصُ: شدَّةُ الرَّغبةِ في الشَّيءِ والميلِ إليه، وصَرْفِ الهِمَّةِ عليه.

والارتيابُ: الشَّكُّ والتَّردُّدُ.

ويقالُ: وَهَمَ بالفتح: إذا رَجَّحَ جانبَ الباطِلِ، وهام: إذا تَحيَّرَ في عقلهِ العاقِل.

و(ما) موصولةٌ، والضَّميرُ في (به) راجعٌ إليه، و(حرصاً) مفعولٌ لهُ أو حالٌ.

والمعنى: أنَّ النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم مِن غايةِ رأفتهِ ونهايةِ رحمتهِ لَمْ يأتِنَا بشيءٍ مِن عقائدِ الإسلام، ولَمْ يُكلِّفْنا بشيءٍ مِن تكاليفِ الأحكام، لَمْ يَهْتدِ العقلُ بإدراكهِ أو يَعْجِزُ صاحبُه عن إدراكِه، بل أَتَانَا بالحَنيفيَّةِ النَّوْراء، والملَّةِ السَّمْحةِ البَيْضاء؛ لأَجْلِ حِرْصهِ علينا، وكمالِ الْتفاتهِ إلينا، فلَمْ نَشُكَّ في رسالتِه، ولَمْ نَتحيَّرْ في مُتابَعَتِه، ولَمْ نَخْتَرْ طريقاً على طَريقتِه، الجامعةِ بينَ شريعتهِ وحَقيقتِه.

وفي البيتِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤٨ ـ أَعْيَا الوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فليسَ يُرَى في القُرْبِ والبُعْدِ منهُ غيرَ مُنْفَحِمِ

الإعياءُ: التَّعْجيزُ، و(الوَرَى): الخَلْقُ، وضميرُ (مَعْناهُ) يُقرأُ بالإشْباعِ، و(المعنى): مقصودُ الكلام، وكمالُ كلِّ شيءٍ على وجهِ التَّمَام، وفي نسخةٍ: (للقُرْب) فاللَّامُ بمعنى (في).

وضميرُ (مِنهُ) يُشْبَعُ، وكذا (فيه) في نسخةٍ، والضميرُ راجعٌ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي نسخةٍ: (مِنْهُم) فالضميرُ راجعٌ إلى (الوَرَى)، وجوِّزَ على النُّسخةِ الثَّانيةِ عَودُ الضَّميرِ إلى (معناه).

والانْفِحامُ: قَبولُ الإلْزام، وأصلُه: أنَّ الخَصْمَ يَتسَوَّدُ وجهُه كالفَحْمِ عند الإلْزام.

وإسنادُ الإعياءِ إلى الفَهْمِ مَجَازيٌّ؛ أي: أَعْيا اللهُ الوَرَى عن فهمِ معناهُ. و(فَهْمُ) مضافٌ إلى مفعولٍ؛ أي: فَهْمُهمْ معناهُ.

وما بعدَ (ليس) مُفسِّرٌ لضميرِ الشَّأنِ فيها، و(يُرَى) مَبنيٌّ للمفعولِ، و(في القُرْب) مُتعلِّقٌ به أو بـ(ليس)، ويجوزُ نصبُ (غيرَ) على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ(يُرَى) على تقديرِ أنْ يكونَ مِن الرُّؤيةِ القَلْبيَّة.

والمعنَى: أنَّ فَهْمَ مَعانيهِ الخَفيَّةِ البَهيَّة، وكَمَالاتِهِ السَّرِيَّةِ السَّنِيَّة، أَعْجزَ الكائناتِ بأسرِها، والمخلوقاتِ بشَرَاشِرِها، فليسَ يُبْصَرُ - بل ولا يُعْلَمُ - في القُرْبِ والبُعْدِ المكانيَّينِ، أو العَهْدِ والعَصْرِ الزَّمانيَّين، منهُ صلى الله تعالى عليه وسلم غيرُ[1] عاجزٍ عن إدراكِ حَقيقةِ مَعْناه، وغيرُ ساكتٍ عن حَقِّيَّةِ مَبْناه، سواءٌ مَن تَشَرَّفَ بلُقْياه، وطُوبَى لِـمَن رآه، أو تَحسَّرَ على عدمِ مُطالَعةِ طَلْعةِ مولاه، مَقُولاً في حَقِّهِ: واشَوْقاه.

أو القُرْبُ والبُعْدُ بحسَبِ الـمَرْتبةِ واعتِبارِ المَنْزلةِ، يعني: يَستوِي في عَدَمِ العلمِ بإحاطةِ كمالاتهِ، والتَّحَيُّرِ في عُلُوِّ ذاتهِ ورفعةِ صِفاته، مَن قَرُبَ إليهِ في الحالِ والـمَقام؛ كأُولي العَزْمِ مِن الرُّسلِ الكِرَام، والملائكةِ المقرَّبينَ وحَمَلةِ العرشِ الكِرَام، ومَن بَعُدَ عن مُساهَمتِهِ ومُسايَرتِهِ مِن عَوَامِّ الأَنَام.

٤٩ - كالشَّمسِ تَظْهرُ للعينينِ مِن بُعُدٍ صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ مِن أَمَمِ

---

(١) كلمة «غير» ضبطت في «ل» بالضم.

(بُعُد) بضمَّتين لغةٌ، والإكْلالُ: التَّعجيزُ عن الإدراكِ، و(الطَّرْف): البَصَر، و(أَمَم) بفتحَتَين: القُرْبُ.

يعني: أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم في وَصْفِهِ الذي تَقَدَّمَ ـ مِن أنَّه عَجَزَ عن فَهْمِ مَبَانيهِ وإدراكِ مَعانيهِ القريبُ والبعيد، والشَّقيُّ والسَّعيد ـ كالشَّمسِ التي تَظْهَرُ للعينينِ مِن جِهةِ البُعدِ حالَ كونِها صغيرةً، وتُعْجِزُ البَصَرَ والنَّظَرَ مِن القُرْبِ وتُصَيِّرُ نَفْسَ الرَّائي حَسيرةً، وهذا مِن تشبيهِ المعقولِ بالمحسوس؛ لتقريبِ الفَهْمِ المَنْكوس.

والحاصلُ: أنَّ الشَّمسَ ـ على ما قيل: إنَّها قَدْرُ كُرةِ الأرضِ مئةً وتسعاً وسِتِّينَ مَرَّةً[١] ـ كما أنَّها تَظهرُ مِن المسافةِ البعيدةِ صغيرةً، وإذا تَقَرَّبَ الشَّخصُ لإدراكِ حقيقتِها ومَنزلتِها يَرَى نَفْسَه عاجزةً حقيرةً، كذلك هو صلى الله تعالى عليه وسلم يُرَى في باديءِ النَّظَرِ أنَّه فردٌ مِن آحادِ البشرِ، وإذا تَأَمَّلَ الواحِدُ في جمالِ ذاتِه وكمالِ صِفاتِه، تَحيَّرَ وعَجَزَ عن إدراكِ مراتبِ دَرَجاتِه، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قال المفسِّرون: المرادُ بالبَعْضِ: ذاتُه العَلِيَّةُ الصِّفات.

أو يقالُ: إنَّه ﷺ يُرَى في نظرِ الأغيارِ مِن أهلِ الغفلةِ عن الأسرارِ صغيراً[٢]، وفي عينِ أهلِ البَصيرةِ مِن الأعيانِ وخُلاصةِ الإنسانِ كبيراً[٣]، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ظاهراً ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]؛ أي: باطناً. ومنهُ قولُه صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهمَّ اجْعَلْني في عَيني صَغيراً»؛ أي: لمشاهَدةِ عَظَمتكَ «وفي أَعْيُنِ النَّاسِ كبيراً»[٤]؛ أي: لِـمُكاشَفةِ قُدْرتِكَ.

(١) في هامش «ل»: «مقدار الشمس».

(٢) في النسختين: «صغير»، والصواب المثبت.

(٣) في النسختين: «كبير»، والصواب المثبت.

(٤) رواه البزار في «مسنده» (٤٤٣٩) من حديث بريدة رضِيَ اللهُ عنه، وقال أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (٢/ ١٦٢): حديث منكر لا يعرف.

٥٠ ـ وكيفَ يُدْرِكُ في الدُّنْيا حَقيقتَهُ قومٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عنهُ بالحُلُمِ

(كيف) ظرفٌ متضمِّنٌ لاستفهامِ الإنكارِ والاستبعادِ، ومُتعلِّقٌ بـ (يُدْرِكُ)، وتَقَدَّمَ لصَدارةِ الاستِفْهام، و(الحُلُم) بضمَّتينِ لغةٌ، وهو ما يَراهُ النَّائمُ، والمرادُ هنا: الخَيَالُ. والقومُ هُمُ الوَرَى، أو ما وراءَ الأنبياءِ والأولياءِ.

والمعنى: كيفَ يَعلَمُ في الدُّنيا الدَّنيَّة حقيقةَ الذَّاتِ المحمَّديَّة، وحَقِّيَّةَ الصِّفاتِ الأحمديَّة، جماعةٌ غافلةٌ كالنِّيَام، قَنِعُوا عن معرفتهِ بالخَيَالاتِ والأوهام، وفيهِ تَنبيهٌ على ما رُوِيَ: «النَّاسُ نِيَامٌ فإذا ماتُوا انْتَبَهُوا»(١)، وإشارةٌ تحتَها بِشارةٌ: أنَّ شمسَ جمالهِ وكوكبَ جلالهِ تَطْلُعُ مِن أُفُقِ كمالهِ في الآخرةِ وقت النَّدَامة، كما قال: «آدمُ ومَن دُونَهُ تحتَ لِوَائي يومَ القِيَامةِ»(٢)، فإنَّ البصائرَ تَكْمُلُ حينئذٍ لإدراكِ السَّرائرِ للقريبِ والبَعيد، قال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، ولذا قال بعضُ العارِفين: إنَّما امْتَنعَ رؤيةُ اللهِ تعالى في الدُّنيا الفانيَةِ لأنَّ الباقيَ لا يُرَى إلَّا بالعينِ الباقيَة.

٥١ ـ فمَبْلَغُ العِلْمِ فيهِ أنَّهُ بَشَرٌ وأنَّهُ خيرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

يُقرأُ البيتُ بإشباعِ هاءِ (فيه) على قراءةِ المكِّيِّ، وكسرِ الميمِ في (كُلِّهِمِ)، والإشباعُ مِن الحُكْمِ الشِّعريِّ.

يعني: نهايةُ بلوغِ عِلْمِنا، وغايةُ وصولِ فَهْمِنا، في مَبْنَى ذاتِهِ: أنَّهُ بشرٌ عَظِيم، وجوهرٌ جَسِيم، مِن أفرادِ الإنسان، وآحادِ الأَعْيان، وفي معنَى صفاتهِ أنَّه أفضلُ الكائنات، وسيِّدُ المَوْجودات، وإنما أَكَّدَ بالـ (كُلّ) دَفْعاً لخلافِ البعضِ، وهذا إشعارٌ بالعجزِ والقُصورِ لأهلِ الثَّقَلَين، عن إحاطةِ كُنْهِهِ في الجانِبَين.

---

(١) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٩٩٣): «لم أجده مرفوعاً، يعزى لعلي بن أبي طالب». ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٢) عن سفيان الثوري قوله.

(٢) رواه الترمذي (٣٦١٥) من حديث أبي سعيد رضِيَ اللهُ عنه، وقال: حسن صحيح.

٥٢ ـ وكلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بها فإنَّمـا اتَّصَلَـتْ مِـن نُـورِهِ بِهِـمِ

(كلُّ) مرفوعٌ على الابتداءِ، والواوُ لعطفِ الجملِ، ويَبْعُدُ قولُ عصامِ الدِّينِ: إنَّه منصوبٌ عطفاً على اسمِ (أنَّ)، والآيُ: جمعُ الآيةِ بمعنَى المعجزةِ، و(الرُّسْلُ) بسكونِ السِّينِ تخفيفاً: جمعُ الرَّسولِ، و(الكِرَامُ): جمعُ الكريمِ، وهو مِن بابِ الاكتِفاءِ[1]، إذ يُفْهَمُ غيرُه بالطَّريقِ الأَوْلَى.

يعني: جميعُ ما أَتَى الرُّسلُ والأنبياءُ مِن خَوَارِقِ العاداتِ فإنَّما اتَّصَلتْ تلك الآياتُ الظَّاهراتُ، أو المعجزاتُ الباهراتُ، مِن أثرِ نُورِهِ الأصليِّ، الذي اتَّصلَ إليهِم بالطَّريقِ الفَرْعيِّ، فمعجزاتُ السَّابقِينَ معجزةٌ له، كما أنَّ كراماتِ اللَّاحِقِينَ كرامةٌ له، فالسَّابِقونَ واللَّاحِقونَ إنَّما هُمْ في الحقيقةِ له نائِبون، كالمقدِّمةِ والسَّابِقةِ للأميرِ سائِرون، وإلى حُكْمِهِ صائِرون، وكذا كلُّ عِلْمٍ ومعرفةٍ ونُكتةٍ وحِكمةٍ فإنَّها مِن أشعَّةِ أنوارِه، ولمعةِ أسرارِه.

٥٣ ـ فإنَّه شمسُ فضلٍ هُمْ كَوَاكبُها يُظْهِـرْنَ أنوارَهـا للنَّـاسِ فـي الظُّلَـمِ

---

(١) الاكتفاء: أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة، ويختص غالباً بالارتباط العطفي كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ أي: والبرد، وخصص الحر بالذكر لأن الخطاب للعرب وبلادهم حارة، والوقاية عندهم من الحر أهم لأنه أشد عندهم من البرد، وقيل في تأويله غير ذلك.

ومنه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ أي: والشر، وإنما خص الخير بالذكر لأنه مطلوب العباد ومرغوبهم، أو لأنه أكثر وجوداً في العالم، أو لأن إضافة الشر إلى الله ليس من باب الآداب.

ومنه: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]؛ أي: وما تحرك، وخص السكون بالذكر لأنه أغلب الحالين على المخلوق من الحيوان والجماد، ولأن كل متحرك يصير إلى السكون.

ومنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ أي: والشهادة؛ لأن الإيمان بكل منهما واجب، وآثر الغيب لأنه أمدح، ولأنه يستلزم الإيمان بالشهادة من غير عكس. انظر: «الإتقان» للسيوطي (٢/ ٢٠٣).

تَخييلٌ حَسَنٌ وتعليلٌ مُسْتَحْسَنٌ، فإنَّ تشبيهَ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم بالشَّمسِ تَشبيهٌ بليغٌ، والإضافةُ بمعنَى (مِن)؛ أي: مِن أفضالِ اللهِ، كذا قيلَ.

والأظهرُ: أنَّ الفضلَ بمعنى الفَضيلةِ والزِّيادةِ، والإضافةَ لأَدْنَى الـمُلابَسةِ، يعني: كما أنَّ الشَّمسَ متميِّزةٌ بزيادةِ الضَّوءِ وأصالةِ النُّورِ مِن سائرِ الأقمارِ والكواكبِ الكَوَامِلِ، كذلك نبيُّناً ممتازٌ بفضلِ أسرارِ الفضائلِ، وأصلِ أنوارِ الشَّمائلِ، عن سائرِ أربابِ الفَوَاضِلِ، وهم ـ يعني: الرُّسلَ والأنبياءَ ـ أمثالُ الكَوَاكبِ لتلك الشَّمسِ.

والإضافةُ تُفيدُ أنَّ كوكبَ الشَّمسِ مُخْتصٌّ بما يَستفِيضُ مِن فَيْضِه، ويَستفيدُ مِن ضَوئِه، وهو القمر، كما هو في محلِّه مُقرَّر، فجَمْعُهُ لتَعَدُّدِ المشبَّهِ به[1]، وقيل: باختلافِ أحوالِهِ مِن الهلاليَّةِ والبَدْريَّةِ وغيرِهما.

وقيل: المرادُ مُطْلَقُ الكواكبِ، فيكونُ الحُكْمُ تغليبيًّا أو مُبالغةً أو ادِّعائيًّا، (يُظهِرْنَ)؛ أي: الكواكبُ أنوارَ الشَّمسِ للنَّاسِ، وخُصُّوا الشرفهم، ولو قال: للخَلْقِ، لعَمَّ.

(في الظُّلَمِ): جمعُ ظُلمةٍ؛ أي: ظُلَمِ اللَّيالي.

والمعنى: أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم بمنزلةِ الشَّمسِ في أفقِ سماءِ العَدْلِ والفَضْلِ، بزيادةِ النُّورِ ومَزِيَّةِ الأَصْلِ، وسائرُ الأنبياءِ في المشارقِ والـمَغَارِبِ، إنَّما هم بمنزلةِ القمرِ مِن بينِ الكواكِبِ، في أنَّهم يَستمدُّونَ مِن نورِ نُبوَّتهِ القَدِيمةِ، ويَستنيرونَ مِن ضياءِ رسالتهِ القَويمةِ، أو لأنَّهم كالنُّجومِ يُظْهِرونَ أنوارَهُم في اللَّيالي الـمُظْلِمَة، والأوقاتِ المُدْهِمَة.

(للناس)؛ أي: لبعضِهِم، أو لكلِّهِم، والتَّخصيصُ بالنَّاسِ لأنَّ الجِنَّ لَمْ يُبْعَثْ غيرُ نبيِّنا بهم.

وإذا طَلَعَ نورُ الشَّمسِ المحمَّديَّة، غابَ كواكبُ الأنبياءِ والرُّسلِ الأَحَديَّة، وعلى

(١) فوقها في «د»: «أي: الأنبياء».

هذا فالتَّعبيرُ عن الأنبياءِ المشبَّهينَ بالكواكبِ الـمُنوِّرين بضميرِ الإناثِ في (يُظْهِرْنَ) بناءٌ على حُكْمِ المعبَّرِ به، وهذا عكسُ ما وَرَدَ في القرآنِ مِن قولِهِ تعالى: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وفيه إشارةٌ إلى نَسخِ شريعةِ نبيِّنا صلى الله تعالى عليه وسلم شرائعَ مَن قَبْلَهُ مِن الأنبياء، وإيماءٌ إلى أنَّ يومَهُ ليسَ بعدهُ ليلٌ، ودِيْنَهُ لا يَعْقُبُه زوالٌ وفَنَاء.

٥٤ ـ أَكْرِمْ بخَلْقِ نَبيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ بالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ

(أَكْرِمْ بِه) صيغةُ تَعَجُّبٍ، والخَلْقُ بالفتحِ: الخِلْقةُ والصُّورةُ، وبضَمَّتينِ: الصِّفةُ والسِّيرةُ.

والاشْتِمالُ في أصلِ الاستِعْمالِ: التَّلَفُّفُ بالشَّمْلةِ والتَّلَبُّس بها مع الإحاطةِ.

و(البِشْر) بالكسرِ: ما يَظهَرُ في بَشَرةِ البَشَرِ مِن أثرِ السُّرورِ، ويسمَّى: البَشاشةَ، وفي بعضِ النُّسخِ: (بالبِرِّ)، وهو سَعَةُ الخيرِ والسَّماحةُ.

والاتِّسامُ بالشَّيْءِ: الاتِّصافُ به، مِن الوَسْمةِ وهي العَلَامةُ.

وجملةُ (زانَهُ) صفةُ (نبيٍّ) أو (خَلْقِ نبيٍّ).

و(بالحُسنِ) متعلِّقٌ بـ(مُشْتمِلٍ) وهو بالجرِّ صفةٌ أُخرَى، ومِثْلُه ما بعدَه، والحُسْنُ راجِعٌ إلى الخَلْقِ، والبِشْرُ ناظِرٌ إلى الخُلُق، أو كلٌّ منهُما أعمُّ، وهو في ذَوْقي أَتَمُّ.

يعني: ما أَكْرمَ خَلْقَ نبيٍّ وصُورتَهُ الظَّاهِرةَ، الذي زَيَّنهُ وحَسَّنهُ خُلُقُه وسيرتُه الباطِنةُ الطَّاهِرة، فهو كما قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] هو[1] الموصوفُ باشتِمالِ الحُسْنِ وإحاطَتِهِ جميعَ حالاتِهِ ومَقَالاتِه، وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه، والـمُتَّصِفُ بالارْتِسامِ بالبِشْرِ التَّامِّ،

---

(١) كلمة «هو» ليست في «ل».

والبَشَاشـةِ علـى طريـقِ الـدَّوَام، والابْتِسـامِ فـي وجـهِ الخـاصِّ والعـامّ، علـى وجهٍ يرتضِيـهِ الملِـكُ العـلَّام، عليـه الصَّلاةُ والسَّـلام، مـا دامَـتِ اللَّيالـي والأيَّام.

وإنْ كُنْتَ تُريدُ أنْ تُدْرِكَ لائحةً مِن صِفاتِ خَلْقِهِ الجَسيم، أو تَشَمَّ رائحةً مِن نُعوتِ خُلُقِهِ العَظيم، فعليكَ بـ«الشِّفا» و«المواهب»؛ لتَظْفَرَ بالعجائبِ والغَرَائب.

٥٥ ـ كالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبَدْرِ في شَرَفٍ والبحـرِ فـي كَـرَمٍ والدَّهْـرِ فـي هِمَمِ

أي: هو صَلَّى اللهُ تعَالَى عليهِ وسلَّمَ، وشَرَّفَ وكَرَّمَ، مِثْلُ الزَّهْرِ والوَرْدِ في الظَّرافةِ والطَّراوة، وفي اللَّطافةِ والطَّلَاوة[1]. ومِثْلُ البَدْرِ وهو ليلةَ أربعةَ عَشَرَ، الـمُعبَّرِ عنه بطَرَفي الرِّفعةِ والتَّعْليَةِ على الكائنات، وفي غَلَبَةِ نُورهِ على سائرِ المخلوقات، وهو وما قَبْلَهُ متعلِّقانِ بخَلْقِهِ المكرَّم، كما أنَّ الوصفانِ المتأخِّرانِ راجِعانِ إلى خُلُقِهِ الـمُعظَّم، ومِثْلُ البحرِ في أنواعِ الإحسانِ إلى أفرادِ الإنسان، كما قال تعالى في سورةِ الرَّحْمن: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٢ ـ ٢٣]. ومِثْلُ الدَّهر ـ وهو أعمُّ مِن العَصْر ـ في الهِمَّة، والقَصْدِ والنيَّة، والظاهرُ أنَّ المرادَ بها مَلَكةُ الشَّجاعةِ، وعُلُوُّ همَّةِ الزَّمانِ تَخْييليٌّ، وأمَّا وَصْفُه فتَحْقيقيّ، والتَّشبيهُ مِن بابِ تشبيهِ النَّعتِ الـمَعْنويِّ بالأمرِ الحِسِّيّ.

وممَّـا وَرَدَ فـي نُعومـةِ بَدَنـهِ ورعانـةِ جَسَـدِه: مـا أَخْرجهُ الشَّـيخانِ عـن أنسٍ رضِـيَ اللهُ عنـه: ما مَسِسْـتُ حريـراً ولا دِيباجـاً ألينَ مِن كـفِّ النبيِّ صلـى الله تعالى عليه وسـلم[2].

وممَّا جاء في عُلُوِّ مَقامهِ ونُورِ وجههِ: ما أشارَ إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بقولهِ: «فَضْلُ العالِـمِ على العابِدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البَدْرِ على سائرِ الكواكِبِ»،

---

(١) في «د»: «والطلاقة».

(٢) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

رواهُ أحمدُ والتِّرمِذيُّ وغيرُهما[١]، وقال في حديثٍ آخَرَ: «فَضْلُ العالِـمِ على العابِدِ كفَضْلِي على أَدْناكُمْ»، رواه الترمذي وغيره[٢].

وممَّا رُوِيَ في كَرَمِهِ وإحسانِه وبِرِّهِ وامْتنانِه: ما رواهُ مسلمٌ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ما سُئِلَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم على الإسلامِ شيئاً إلَّا أعطاهُ، قال: فسألهُ رجلٌ غَنَماً بينَ جَبَلينِ فأعطاهُ إياهُ، فأَتَى قومهُ فقال: يا قومِ أَسْلِموا، فواللهِ إنَّ محمَّداً يُعطِي عطاءَ مَنْ لا يخافُ الفقرَ[٣].

وممَّا يَدُلُّ على قُوَّةِ قَلبِهِ وهِمَّتِهِ ومَلَكةِ شَجاعتِهِ: رَكْضُ بغلتِهِ لمَّا ولَّى المسلمونَ في حُنَينٍ قِبَلَ الكفَّارِ إلى أنِ انْهَزَمُوا بحَصَياتٍ رماهُم بها[٤].

وعن البَرَاءِ: كنَّا واللهِ إذا احْمَرَّ البأسُ نتَّقِي بِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم[٥].

رَوَى الحديثينِ مُسلمٌ، والتَّشبيهُ الأخيرُ على عادةِ شُعراءِ العربِ ومُبالَغتِهم في تَحسيناتِ الأدبِ، ونظيرُه قولُ الشَّاعرِ في ممدوحِهِ:

لـه هِمَـمٌ لا مُنْتَهَـى لكبيرِهـا وهِمَّتـهُ ... الصُّغـرَى أَجَـلُّ مِـن الدَّهْـرِ[٦]

وقد نُسِبَ هذا البيتُ إلى حسَّانٍ مَدَحَ به النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٢٦٨٢)، من حديث أبي الدرداء رضِيَ اللهُ عنه. ورواه أيضاً أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة رضِيَ اللهُ عنه وقال: حديث غريب.

(٣) رواه مسلم (٢٣١٢).

(٤) رواه مسلم (١٧٧٥).

(٥) رواه مسلم (١٧٧٦).

(٦) أنشده ضمن أبيات أعرابي لداود بن المهلب، وفيه قصة ذكرها التنوخي في «المستجاد من فعلات الأجواد» (ص ٣٢).

٥٦ ـ كأنَّـهُ وهـو فَـرْدٌ فـي[1] جَلَالَتِـهِ فـي عَسْـكَرٍ حيـنَ تَلْقـاهُ وفـي حَشَـمِ

(في جلالته) صفةٌ لـ (فردٍ)، و(في عَسكرٍ) متعلِّقٌ بمحذوفٍ في محلِّ رفعٍ على أنَّهُ خَبَرُ (كأنَّ)؛ أي: كأنَّ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم والحالُ أنه مُنْفرِدٌ بذاتِه، وثابتٌ في عَظَمَةِ صِفاتِه، وكائنٌ في ظهورِ كَمَالاتِه، مِن كمالِ هيبتِه، وجَلالِ أُبَّهتِه، قائمٌ في قلبِ عسكرٍ كبير، وفي وَسْطِ حَشَمٍ كثير، حينَ تَلْقاهُ أيُّها المخاطَبُ، وتَرَاهُ في ذلك الموكِبِ.

وفي البيتِ إشارةٌ إلى قوَّةِ شجاعتِه، وعَظَمةِ مَهابَتِه، بأنْ يكونَ حالَ الانْفِرادِ مِن قوَّةِ الجَأْشِ كمَن يكونُ في قلبِ الجيوشِ مِن حالِ الانْتِعاش، وإيماءٌ إلى أنَّه لا يَخلُو عن مُتابعةِ أعوانِه، ومُشايَعةِ خِلَّانِه مِن الرِّجالِ الغَيبيَّة، والملائكةِ السَّماويَّة.

وفي نسخةٍ: (مِن جَلَالتِهِ) على أنَّه علَّةٌ للتَّشبيهِ الـمُستفادِ مِن (كأنَّ)، وهو في المعنَى وجهُ الشَّبَهِ؛ إذِ القَصْدُ تَشْبيههُ مُفْرَداً بنَفْسِهِ الـمُختار، مصحوباً بعسكرٍ وحَشَمٍ في الهيبةِ والوَقَار.

وفي نسخةٍ: (بُهَم) ـ بدلَ (حَشَم) ـ بضمِّ الباءِ: جمعُ بَهْمٍ بفتحِها، وهو الشَّجِيعُ، وقيل: جمعُ بُهمةٍ كـ: تُهمة، وهو العسكرُ أو الرُّكبانُ، والنُّسخةُ المشهورةُ أَوْلَى؛ لإتيانِ هذهِ اللَّفظةِ في القَوَافي الآتيَةِ.

٥٧ ـ كأنَّما اللُّؤْلُؤُ المَكْنونُ في صَدَفٍ مِـن مَعْدِنَـيْ مَنْطِـقٍ منـهُ ومُبْتَسَـمِ

يُقرأُ البيتُ بسكونِ الهمزةِ الأُولَى وإبدالِـها مِن (اللُّؤلؤ)، وبإشباعِ هاءِ (منه)، وهو راجعٌ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم.

والمَنْطِقُ: مكانُ النُّطْقِ، وهو القلبُ أو اللِّسانُ، وهما مَظْهَرُ البيانِ.

والمُبْتَسَمُ بصيغةِ المفعولِ: مكانُ التَّبَسُّمِ وهو الشَّفَتانِ، وهما مَظْهَرُ الأسنانِ.

---

(١) في هامش «ل»: «من»، وهي نسخة كما سيرد.

ويُـمْكِنُ أنْ يكونَ الـمَنْطِقُ والـمُبْتَسَمُ مَصْدرانِ، والإضافةُ بمعنَى اللَّام، وعلى الأوَّلِ للبيانِ.

وفي البيتِ تَشْبيهانِ: أحدُهما مَعْنويٌّ، والآخَرُ حِسِّيٌّ، يعني: أنَّ جَوَامِعَ كَلِمِهِ ودُرَرِه، ومَنْظومَ أسنانِهِ وثَغْرِهِ؛ كاللُّؤلؤِ المَصُونِ في لَطَافتهِ وغُرَرِه، كما قال البُحْتُرِيُّ:

فمِـنْ لُؤْلُـؤٍ يُبْدِيـهِ عنـدَ ابْتِسـامِهِ ومِـن لُؤْلُـؤٍ عنـدَ الـكلامِ يُسَـاقِطُه[1]

وشبَّهَ الفمَ والقلبَ بالمَعْدنِ في أنَّه لا يَنْفَدُ بكثرةِ لَطافتهِ، ووَصَفَ اللُّؤْلؤَ بالمكنونِ الدَّالِّ على طَرَاوَتهِ، وتقييدُه بكونهِ في صَدَفهِ ومَعْدِنهِ لكونهِ فيهِ أحسنَ منهُ في غيرِه.

قال المحليُّ: حُكِيَ أنَّ بعضَهم رأى في المنامِ أنَّ الصِّدِّيقَ يَزُفُّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بهذا البيتِ والبيتِ الذي قَبْلَه، بأحسنِ الأنغامِ.

ولَمَّا أشارَ ببعضِ كمالاتهِ الصُّوريَّةِ والمعنويَّةِ مِن خَلْقهِ وخُلُقهِ حالَ الحياةِ، أَوْمَأَ بأنَّه أيضاً متميِّزٌ عن سائرِ المخلوقاتِ في حالِ المَمَات، كما قالَ صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأَرْضِ أنْ تَأْكُلَ أَجْسادَ الأَنْبِيَاء»[2].

٥٨ ـ لا طِيْبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَه طُوْبَـى لمُنْتَشِـقٍ منـهُ ومُلْتَثِـمِ

الطِّيبُ: اسمٌ لِمَا يُتطَيَّبُ بهِ، وعَدَلَ به: ساواهُ، والتُّرْبُ بالضمِّ بمعنَى التُّربةِ أو التُّرابِ، ونَصبُهُ بنزعِ الخافضِ، والضَّمُّ بمعنَى الجمعِ واللَّمِّ.

والأَعْظُمُ: جمعُ العِظَام، والمرادُ: جميعُ أعضائهِ المعظَّمةِ، مَجازاً بذِكْرِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ.

---

(١) البيت في «الصناعتين» لأبي هلال العسكري (ص ٢٠٨)، و«وزهر الآداب» للقيرواني (١/ ٢١٥)، و«محاضرات الأدباء» لأبي القاسم الأصبهاني (٢/ ٣٢٦)، وروايته في المصادر:

فمِـن لؤلـؤٍ تَجْلُـوهُ عنـد ابتسـامِها ومِـن لؤلـؤٍ عنـد الحديـثِ تُسـاقِطُهْ

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٨)، وأبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٤٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦)، من حديث أوس بن أوس رضِيَ اللهُ عنه.

و(طُوبَى) مصدرٌ مِن بابِ طابَ؛ كبُشْرَى وزُلْفَى، والواوُ منقلِبةٌ عن الياءِ لضمَّةِ ما قَبْلَها، وهو مرفوعُ المحلِّ؛ كقولِكَ: سلامٌ لك، أو منصوبُ المحلِّ؛ كـ: طِيباً لكَ، و: سلاماً لك. واللامُ للبيانِ كما في: سَقْياً لكَ، ومعناهُ: أَصَبْتَ خيراً أو طِيباً، وفيهِ معنَى التَّعجُّبِ والتَّمَنِّي.

وانْتَشَقَ؛ أي: شَمَّ، وتُقرأُ هاءُ (منهُ) بالإشباعِ، وضَميرُهُ راجعٌ إلى (ترب)[1]، وهو أبلغُ مِن أنْ يكونَ عائداً إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم. ولَثَمَهُ والْتَثَمهُ: قَبَّلَهُ.

يعني: لا يُوجَدُ طيبٌ[2] مِن مِسْكٍ أو عبيرٍ أو عنبرٍ أو غيرِها يُساوي نفسَه بترابِ تربتِهِ التي لَمَّتْ أعضاءَهُ وجَمَعَتْ أجزاءَه، وأحاطَتْ بجسمِهِ الشَّريفِ، وقُرِنَتْ بقُرْبِ بدنِهِ اللَّطيف.

ولهذا يَتعجَّبُ ويَتمَنَّى ـ ويُقالُ: ويَترَنَّى ـ بأنَّ الحالَ المستَطابةَ حاصلةٌ لـمُنْتَشِمٍ مِن ذلك التُّراب، ومُقبِّلٍ مِن ذلكَ الأَعْتاب، وهو كنايةٌ عن الزِّيادةِ والاقْتِراب، مِن ذلك البَاب، ففي الحديثِ المتَّفقِ عليه عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه قال: ما شَمَمْتُ عَنْبراً ولا مِسْكاً ولا شَيْئاً أَطْيَبَ مِن رِيحِ رسولِ اللهِ ﷺ[3].

والبيتُ مُقْتَبَسٌ مِن مَرْثِيَةِ البَتُولِ الزَّهْراءِ فاطِمةَ الكُبْرى رضِيَ اللهُ عنها:

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصائِبٌ لَوْ أَنَّها ... صُبَّتْ عَلَى الأَيَّامِ صِرْنَ لَيَالِيَا
ماذا عَلَى مَنْ شَمَّ تُرْبَةَ أَحْمَدٍ لَوْ ... لَمْ يَشَمَّ[4] مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا[5]

---

(١) في النسختين: «تربة»، والمثبت هو الموافق لما في البيت.

(٢) في النسختين: «طيبك»، والصواب المثبت.

(٣) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٤) في هامش «ل»: «أن لا يشم»، وانظر التعليق الذي بعده.

(٥) البيتان في «الوفا بحقوق المصطفى» لابن الجوزي (ص ٨١٩)، و«نهاية الأرب» للنويري (١٨/ ٢٦٥)، و«سلوة الكئيب» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص ١٦٢). وفيها جميعاً: «أن لا =

ثُمَّ صَرَّحَ العلماءُ بأنَّ ضَريحهُ صلى الله تعالى عليه وسلم أفضلُ مِن الكعبةِ، وإنَّما الخلافُ المشهورُ بينَ مكَّةَ والمدينةِ، بل رُوِيَ عن الغزاليِّ: أنَّ تُربةً لَصِقَتْ بجسدهِ مِن الفَرْش، أَعْلى رتبةً مِن العرش[١].

ثُمَّ لمَّا ذَكَرَ أنَّه بَلَغَ مَبْلَغَ الكمالِ في جميعِ الأحوال، أشارَ إلى أنَّه ظَهَرَ مِن مَبادِيهِ لوائحُ الجَمَال، فقال:

٥٩ ـ أَبَانَ مَوْلِدُه عن طِيبِ عُنْصُرِه ... يـا طِيْـبَ مُبتـدَأٍ مِنـهُ ومُخْتَتَـمِ

الإبانةُ: الإظهارُ، والمَولِدُ والمبتدَأُ والمختَتَمُ، وفي نسخةٍ: (المُفْتَتَح): أسماءُ زمانٍ.

والعُنْصُرُ: الأصلُ والأركانُ. و(منه) بإشباعِ الهاءِ، والضميرُ راجعٌ إليهِ ﷺ.

يعني: أَظْهرَ زمانُ ولادتِه، بإظهارِ اللهِ وإرادتِه، عن نظافةِ مادَّتِه وأصلِه ونَسَبِه، ولَطَافةِ خِلْقَتِهِ وحَسَبِه، فيا قومِ انْظُروا طِيْبَ زمانِ ابتِداءِ خِلْقتِه، وطَهَارةَ وقتِ اختتامِ رِحْلتِه.

والنِّداءُ للتَّعجُّب والتَّعْجيب، والحثِّ على فَهْمِهِ والتَّرْغيب، وفيهِ إيماءٌ إلى حُسْنِ فاتِـحتهِ وخاتِمَتِه، وإنْباءٌ إلى عُلُوِّ سعادَتهِ في بِدَايَتِه، التي هي أساسُ نهايتِه، ولذا قال الصِّدِّيقُ الأكبرُ لـمَّا قبَّلَهُ بعدَ مماتِه: طِبْتَ حيّاً ومَيِّتاً[٢]، وكما قال الشَّاعر:

فـي المَهْـدِ يَنْطِـقُ عـن سَـعادَةِ جَـدِّهِ ... أثـرُ النَّجَابـةِ سـاطِعَ البُرْهـانِ[٣]

والمرادُ بالابتداءِ والاخْتِتام: الاستمرارُ والدوام؛ كما في قولهِ تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

٦٠ ـ يـومٌ تَفَـرَّسَ فيـهِ الفُـرْسُ أنَّهـمُ ... قـد أُنْـذِروا بحُلـولِ البُـؤْسِ والنِّقَـمِ

= يشم»، وفيها أيضاً عكس الترتيب في البيتين.

(١) في هذا الكلام والاستدلال نظر، فإن مثل هذه الأمور الغيبية يستدل لها بالحديث والأثر.

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٧).

(٣) انظر: «خزانة الأدب» (٢/ ٢٠٠).

المـرادُ باليـومِ: مُطْلَقُ الزَّمان؛ لقولِهِ فـي البيتِ الآتي: (وباتَ إيوانُ كسـرى)، وهـو بدلٌ مِن (مولـدُه)، أو خبرُ مقـدَّرٍ هو: هو.

و(تَفَـرَّسَ)؛ أي: نَظَـرَ وعَلِمَ بالفِرَاسـةِ، وهي قـوَّةٌ يُدْرِكُ بها الإنسـانُ المعانيَ الباطِنَـةَ مِن المخايـلِ الظَّاهرةِ.

و(الفُـرْسُ): اسـمُ جمعٍ لأهـلِ بلادِ فارِسَ، وهو بكسـرِ الرَّاءِ في لغـةِ العربِ، وبسُـكونها في كلامِ العَجَمِ.

و(أنَّهـمُ) يُقرأُ بصِلَةِ الميم. و(البُؤْس) يُهْمَزُ ولا يُهْمَزُ، وهو الشِّدَّةُ المُوْرِثَةُ للهَمِّ والحزنِ. و(النِّقَم) بكسرِ النُّونِ وفتحِ القافِ: جمعُ نِقْمةٍ بمعنَى العُقوبةِ.

يعني: زمانُ وِلادَتِه، وأوانُ بدَايَتِه صلى الله تعالى عليه وسلم، هو وقتٌ ظَهَرَ بطريقِ الفِرَاسَة، في ساعتِه الموصوفَةِ بالنَّفَاسَة، لأهلِ الفُرْسِ مِن عُظمائِهِمْ وعُلَمائِهِمْ، أنَّهم قد أُعْلِموا إعْلاماً مُتضمِّناً للتَّخويف، بنزولِ الشَّدائدِ والعُقوباتِ بهمْ على وَجْهِ التَّضعيف، مِن زوالِ دولَتِهم، وانْقِراضِ مِلَّتِهِمْ، حيثُ قارَنَ ولادَتَهُ الآياتُ والعلاماتُ، التي يُقالُ لها: الإرْهاصَاتُ، وهي خَوَارِقُ العادات، المتقدِّمةُ على ظُهورِ المُعْجِزات، كما أشارَ إلى بعضِها المصنِّفُ، ويَعْجِزُ عن إحصائِها المُنْصِف.

٦١ـوباتَ إيوانُ كِسْرَى وهو مُنْصَدِعٌ كشَـمْلِ أصحابِ كِسْـرَى غيرَ مُلْتَئِمِ

(باتَ) عطفٌ على (تَفَرَّسَ)؛ أي: صارَ في وقتِ البَيْتوتةِ، والمرادُ: ليلةُ مِيلادِهِ عليهِ التَّحِيَّةُ، والإيوانُ بكسرِ الهمزةِ مُعرَّبٌ لـمُسقَّفٍ لا يكونُ لجانبِهِ المقدَّمِ جدارٌ.

و(كِسْرَى) بكسرِ الكافِ وفتحِها مُعَرَّبُ خُسْرُو، وهو اسمٌ لملِكِ الفُرْسِ؛ كفِرْعونَ لمِصْرَ، وقَيْصَرَ للرُّومِ، والنَّجاشيِّ للحَبَشةِ، والخاقَانِ للتُّرْكِ، وتُبَّعٍ لليَمَن.

والانْصِـدَاعُ: الانْشِـقَاقُ. والشَّـمْلُ: التَّفَرُّقُ بعـدَ الاجْتِماعِ. والالْتِئـامُ بالهمزِ: الاتِّصالُ.

والمـرادُ بـ(كسـرى) الثَّانـي غيـرُ الأوَّلِ، وليـس مِـن بـابِ الإظهـارِ موضعَ الإضمـارِ، فـإنَّ الأوَّلَ أَنُوشـرْوَانُ بـنُ قُبَـاذَ العـادِلُ، وحديـثُ: «وُلِـدْتُ فـي زمـانِ الملِـكِ العـادِلِ» لا أصـلَ لـهُ كمـا قالـه السَّـخَاوِيُّ(١)، وأمَّـا الثَّانـي فهـو أَبْرَوِيـزُ بنُ هُرْمُـزَ بـنِ يَزْدَجِرْدَ بـنِ أَنُوشـرْوَانَ.

وفي «شرح المنظومة»: أنَّ هذا الثَّانيَ عمُّ والدِ الإمامِ الأعظَمِ أبي حنيفةَ نُعمانَ ابنِ ثابتِ بنِ طاوُسِ بنِ هُرْمُزَ، وتلميذُه الإمامُ محمدٌ يَصِلُ إليهِ في طاوُسٍ، وهو محمدُ بنُ حسنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاوُسٍ(٢).

و(غيـرَ مُلْتَئِـمِ) خبـرُ (بـاتَ)، و(كَشَـمْلِ) متعلِّـقٌ بـ(غيرَ ملتئِـمِ)، وإنَّمـا لَمْ يَلْتَئِـمْ ليكـونَ تذكـرةً باقِيَـة، وتَعِيَهـا أُذُنٌ واعِيَة.

ويجوزُ أنْ يكونَ (كَشَمْلِ أصحابِ كِسْرَى) خبرَ (بات)، و(غيرَ مُلْتئِمِ) حالاً مِن الشَّمْلِ، فيرادُ مِن الالْتِئام: الاتِّفاقُ.

والمعنـى: صـارَ ليلـةَ ظُهـورِه وبُـدُوِّ نُـورِه صلى الله تعالـى عليه وسـلم طاقُ إيوانِ كِسْـرَى مكسـوراً إشـارةً إلـى كَسْـرِهم، وغيرَ مُلتئـمٍ إيمـاءً إلى عَـدَمِ جَبْرِهـم؛ كتفرقـةِ أصحـابِ كسـرَى الآخَـرِ بعـدَ اتِّفاقِهـم اتِّفاقـاً لَـمْ يَتَّفِـقْ لأحـدٍ مِـن مُلـوكِ الأرض؛ كمَسْـنَدِهِ، ومَقَامِـهِ وحَشَـمِهِ وجُيوشِـهِ وأعوانـهِ وخَدَمـهِ، فلَـمْ يَزالـوا فـي الانْهِـدامِ والانْهِـزام حتـى جاءَ تَباشـيرُ الإسـلام.

رُوِيَ: أنَّه لمَّا ارْتَجَّ إيوانُه، خافَ هو وأعوانُه، إذْ سقطَ أربعَ عَشْرةَ شُرْفةً، فوجَّهَ قاصِداً إلى النُّعمانِ بنِ مُنذرٍ أحدِ ملوكِ العربِ؛ ليَستفسِرَ عن سِرِّ ما بدا، فرَفَعَ الخبرَ إلى سَطِيحٍ وقد أَشْفَى على الضَّريح، وهو أحذقُ كَهَنةِ العرب، ما كانَ لهُ عَظْمٌ سِوَى

(١) انظر: «المقاصد الحسنة» (ص ٧٠٧).

(٢) في «د»: «تابوس» في المواضع الثلاثة.

رأسِهِ أصلاً، فقال: يكونُ أسبابُ شَتَاتٍ، ويموتُ مُلوكٌ ومَلِكاتٌ بعدَدِ الشُّرُفات.

قيل: قال كِسْرَى: بينَما يعيشُ أربعةَ عَشَرَ مَلِكاً ويموتون، يُدَبِّرُ اللهُ فيما سيكون.

فماتَ عَشَرةٌ مِنهم في أربعِ سِنين، وانْقَرَضَ أربعتُهم إلى خلافةِ أميرِ المؤمنين، عثمانَ رضي الله تعالى عنهُ وعن كلِّ الصَّحابةِ أجمعين.

٦٢ ـ والنَّارُ خامِدةُ الأنفاسِ مِن أسفٍ عليـهِ والنَّهْـرُ سـاهِي العينِ مِن سَـدَمِ

الخُمودُ: الانْطِفاءُ، ونَفَسُ النَّارِ كِنايةٌ عن لَـهَبِها، والأَسَفُ: الحُزْنُ، والسَّاهي: الغافِلُ، والسَّدَمُ: الحَيْرةُ. وجملةُ: (النَّارُ خامِدَة) عَطْفٌ على قوله: (وهو مُنْصَدِعٌ)، ويجوزُ أنْ تكونَ عطفاً على (بات)؛ لأنَّ هذهِ الجُملَ في تقديرِ المفرداتِ.

يعنـي: والنَّارُ التـي كانَتْ مُوقَـدةً مُدَّةَ ألفِ سـنةٍ ـ لأنَّهم كانـوا يَعْبدُونَها، ولها خَدَمـةٌ يَحفظونَهـا ويفقدونهـا[١] ـ خَمدَتْ وهَمـدَتْ عندَ ظهورِ نورِ ولادتِه، وأشـعَّةِ شـمسِ نبوَّتِهِ وولايتِه.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن اقْتبَسَ مِن هذا النُّورِ انْطَمَسَ وانْطَفأَ عنهُ النَّارُ، ويُؤيِّدهُ أنَّ نارَ جهنَّمَ تقولُ: «جُزْ يا مُؤمنُ فإنَّ نُورَكَ أَطْفأَ لَـهَبي»[٢].

وقولُه: (مِن أَسَف)؛ أي: مِن تَأَسُّفٍ وتَحَزُّنٍ على كسرَى، أو الفُرْسِ، أو على كفرِهم حيثُ عَبَدُوها وتَرَكوا عبادةَ خالِقِها، أو مِن أَجْلِ حصولِ الأَسَفِ والحُزْنِ لهم بتَفَقُّدِ[٣] مَعْبودِهم.

---

(١) قوله: «ويفقدونها»، كذا في النسختين، ولعل الصواب: «ويتفقدونها».

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٤)، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٣٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور ابن عمار، وهو ضعيف.

(٣) كذا في النسختين، ولعل الصواب: «بفقد».

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الحادثَ والفانيَ غيرُ مستحِقٍّ للعبوديَّة، بل الحيُّ الذي لا يموتُ يَسْتحِقُّ الرُّبوبيَّة.

وقولُـه: (والنهـر)؛ أي: وصـار في تلـكَ اللَّيلـةِ الـمُظْلِمةِ والسَّـاعةِ المكرَّمةِ نهـرُ الفـراتِ غافـلاً يَنْبوعُـه عـن مَجْـراهُ مِـن حَيـرةِ الفِـراقِ، ووَقَـعَ في سـاوةَ وهي باديـةٌ بيـنَ دمشـقَ والعراقِ.

أو المرادُ بالعينِ: الباصِرةُ، فالمعنى: سَهَا عينُ ماءِ الفُراتِ لتَحَيُّرِهِ مِن مفاجأةِ البَلْوَى، وضلَّ الطَّريقَ لطُرُوِّ العَمَى، كذا قيل.

وقيل: أي: نهرُ كسرَى الذي جَعَلَ فوقَهُ سدًّا عظيماً ومَقاماً كريماً، وصَرَفَ فيه خَرَاجَ العالَمِ، ولَمْ يَرَ مِثْلَه عينُ بني آدَمَ، يَبِسَ في تلك اللَّيلةِ عَيْنُه، مِثْلَ قاسي قلبٍ لَمْ تَدْمَعْ عينُه مِن الحيرةِ في القُدرةِ الإلهيَّة، والخشيةِ مِن العَظمةِ السُّلطانيَّة.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الجماداتِ لها تَغَيُّراتٌ بتغييرِ المغيِّرِ الرَّبَّانيّ، وتأثيراتٌ بتأثيرِ المؤثِّرِ الصَّمَدانيّ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

وفي هذا كلِّه ردٌّ على الطَّبيعيَّة، التي تُخالفُ الأصولَ الشَّرعيَّة، وفيه إشعارٌ إلى أنَّ كلَّ نهرٍ مِن العلومِ العقليَّة، المتضمِّنةِ للدَّقائقِ الفَلْسفيَّة، ليس لها وجودٌ عندَ بحرِ عُلومِهِ الشَّرعيَّة، ويَنْبوعِ مَعَارِفِهِ الحقيقيَّة.

٦٣ ـ وساءَ ساوَةَ أنْ غاضَتْ بُحَيْرَتُها وَرُدَّ وارِدُها بالغَيظِ حينَ ظَمِي

ساءَهُ: أَحْزنَهُ، و(ساوَة): بلدةٌ بعينِها تابِعةٌ لـهَمْدانَ في قديمِ الزَّمان، وصارَتْ أيَّامَ هارونَ الرَّشيدِ مِن أتْباعِ قُمْ قريباً مِن كاشانَ.

و(غاضَ) بمعنَى: نَقَصَ، جاء لازِماً ومُتعدِّياً، والبُحيرةُ: تصغيرُ البحرِ، قيل: وهي عَظيمةٌ، فتصغيرُها للتَّعظيم. و(رُدَّ) على بناءِ المفعولِ، وواوُه للعطفِ أو للحالِ. والوارِدُ: هو الـمُشرِفُ على الماءِ دَخَلَهُ أو لَمْ يَدْخُلْه، ويقالُ للسَّابِقِ أيضاً.

والباءُ للمُلابَسةِ إنْ كان (الغَيْظ) بالظَّاء الـمُشَالةِ، أو للسَّببيَّة على روايتِهِ بالضَّادِ بمعنَى النَّقْصِ، وهو متعلِّقٌ بـ(رُدَّ). و(حينَ) يتعلَّقُ بـ(رُدَّ) أو بـ(الغيظ) أو بـ(وارد).

و(ظَمِي) فِعْلٌ ماضٍ مِن الظَّمأ بالهمزِ، وهو العطشُ، فلمَّا سَكَّنَ الهمزةَ وَقْفاً أَبْدَلَ ياءً، وما وَقَعَ في بعضِ النُّسخِ مِن حذفِ الياءِ فهو سَهْوُ قَلَمٍ.

والمعنى: أَحْزنَ أهلَ ساوَةَ ـ وكانَتْ حَوالَيْها صوامعُ لليهودِ وكنائسُ للنَّصارَى مُعْتَبَرة، ومُتنزَّهاتٌ مُشْتَهِرة ـ نُقْصانُ بُحيْرتِـها مائِها، وانْتِقاصُ[1] ماءِ بُحيرتها في ليلةِ الميلادِ على خِلَافِ المُعتاد، ورَجَعَ قاصِدُ مائِها وطالِبُ ما بها[2] بالقَهْرِ والغَضَب، أو بسببِ النَّقْصِ والتَّعَب، حينَ عَطِشَ ورَجَعَ عَطشانَ، وعلى نَفْسهِ غَضْبان.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ بحرَ أهلِ العذابِ إنَّما هو كسرابٍ بقِيعَةٍ يَحسبهُ الظَّمآنُ ماءً، بخلافِ الكَوْثرِ الذي أُعْطيَ خيرُ البَشَر، فإنَّهُ مَن شَرِبَ منهُ شَربةً لا يَظمأُ بعدَها أبداً.

وفي نسخةٍ: (غارَتْ) بدلَ: (غاضَتْ) وهو أظهرُ في المعنَى، وأدلُّ على المُدَّعَى، ويندفِعُ وهمُ النُّقْصانِ بقولِهِ: رُدَّ الوارِدُ السابِقُ فكيفَ باللَّاحقِ؟ وأكَّدَ دَفْعَه أيضاً بقولِهِ:

٦٤ ـ كأنَّ بالنَّـارِ مـا بالمـاءِ مِـن بَلَـلٍ ... حُزْنـاً وبالمـاءِ مـا بالنَّـارِ مِـن ضَـرَمِ

---

(١) في «ل»: «ماءها أو انتقاص».

(٢) في «د»: «أو طالب مائها».

(الضَّرَم) بفتحتَيْن: الْتِهابُ النَّارِ، والألِفُ واللَّامُ في (الماءِ) و(النَّارِ) للعَهْدِ؛ أي: نارِ فارِسَ وماءِ بحيرة، وقيل: للجِنْس. والأوَّلُ أظهرُ.

والمعنى: أنَّ الذي كان بالماءِ مِن بَلَلٍ كأنَّه حَصَلَ بالنَّار؛ لأَجْلِ الحزنِ على زوالِ الكُفْرِ والكفَّار، فكأنَّها تَبْكي على اضْمِحْلالِ الكفرِ وجَلَاءِ عَبَدتِـها، وتَحترِقُ على مُفارَقةِ أحِبَّتِها، وكأنَّ بالماءِ حَصَلَ[1] الذي كانَ بالنَّارِ مِن شُعلةِ الالْتِهاب، حُزناً على مُفارَقة الأصحابِ والأَحْباب، فكأنَّه يَحترِقُ وَجْداً لفُقْدانِ شارِبَتِها، وتأسُّفاً لذهابِ مُتَنَزَّهاتِـها.

٦٥ ـ والجِنُّ تَهْتِفُ والأنوارُ ساطِعَةٌ والحَـقُّ يَظْهـرُ مِـن معنًـى ومِـن كَلِمِ

(الجـن) مأخـوذٌ مِـن جَنَّهُ: إذا سَتَرهُ، سُمُّوا به لاسْتِتارِهم عن أعيُـنِ النَّاس. وهَتَـفَ؛ أي: صـاحَ وأَفْهَـمَ الكلامَ مِـن حيث لا يَراهُ السَّـامِعُ.

يعني: وطائفةُ الجِنِّ أيضاً عَلِموا بولادتِه، وأَخْبَروا بحُلولِ وقتِ رسالتِه، والأنوارُ في زمانِ ظهورِ ذلك النُّورِ ظَهَرتْ على الأنَام، بحيثُ أضاءَتْ قُصورَ الرُّومِ والشَّام.

و(الحقُّ)؛ أي: أَمْرُ نبوَّتِهِ (يَظهَرُ مِن مَعْنًى) قارَنَ ولادَتَه وهو الإضاءَةُ، (ومِن كَلِمٍ) نَطَقَتْ بِهِ الجنُّ لإرادةِ الإشاعَة.

رُوي: أنَّـه سَـمِعَ النَّـاسُ مِـن جبـلِ أبـي قُبيسٍ والحَجُـون، عنـدَ ولادةِ ذلك الـدُّرِّ المَكْنـون، أصـواتَ الجـنِّ فـي مـدحِ أمِّـهِ آمِنَـةَ، ولَـمْ يَـرَوا مِنهـم أَحَـداً: لقد وَلَـدْتِ خيـرَ البَرِيَّـةِ أحمدَ.

ونُقِـلَ عن أمِّ عثمـانَ بنِ أبي العَاصِ أنَّهـا قالَتْ: كنتُ حَضَرْتُ ليلةَ الـمِيلاد، فرأيتُ الأنوارَ سـاطِعةً على جميعِ العِبَـادِ والبِلَاد[2].

---

(١) في «ل»: «وصل».

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥/ ١٤٧ و١٨٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» =

وقالتْ صَفيَّةُ بنتُ عبدِ المطَّلب: رأيتُ نوراً على نورِ السِّراجِ غالِب.

وقيل: المرادُ مِن هَتْفِ الجِنِّ: إخبارُهم للكَهَنةِ أنَّه سيُولَدُ صاحبُ النُّبوَّةِ، ومِن الأنوارِ السَّاطعةِ الواضِحة: أنوارُ جِبَاهِ آبائهِ وأجدادِهِ اللَّائحَة.

وقيل: تَظْهرُ حقيقتُه مِن صُورَتهِ ومعناه، أو مِن ظاهرِه وباطِنه، أو مِن الأمورِ المعقولةِ والمحسوسَة[1]، أو مِن مَعَاني القُرْآنِ وألفاظِ الفُرْقان.

٦٦ ـ عَمُوا وصَمُّوا فإعْلانُ البَشَائرِ لَمْ تُسْـمَعْ وبارِقَـةُ الإنـذارِ لَـمْ تُشَـمِ

الضّميرُ في (عَمُوا وصَمُّوا) ـ بفتحِ الصَّاد ـ إلى أهلِ العِناد، والدَّالُ قَرينةُ الحال؛ لأنَّ ذِكْرَ الحبيبِ يَدلُّ على العدوِّ، والأشياءُ تَتَبيَّنُ بأضدَادِها.

و(الإعـلانُ) بالكسـرِ: مصـدرُ أَعْلَـنَ بمعنَـى أظْهَـرَ، وبالفتـحِ: جمـعُ عَلَـنٍ بمعنَـى عَلَانيَـةٍ.

و(البَشَـائر): جمـعُ البَشِـيرةِ، وهـي الـمُبَشِّرةُ، وقيـل: جمـعُ البِشَـارةِ بكسـرِ البـاءِ، وهـي الخبـرُ المـورِثُ لسـرورِ البَشَـرةِ.

و(لَمْ يُسمَع) رُوِيَ بالتَّذكيرِ والتَّأنيثِ.

والبارَقةُ مصدرٌ بمعنَى البرقِ؛ كالكاذِبةِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، وقيل: اسمُ فاعلٍ وهي السَّيفُ، ويُرادُ بها: الإنذاراتُ اللَّامِعةُ.

و(الإنْذار): إعلامٌ فيه تخويفٌ ونصيحةٌ. وشامَ البَرْقَ: نَظَرَ إليه.

والمعنـى: عَمِـيَ الكفارُ عن رؤيةِ الأنوارِ فلَمْ يَنظروا إلى إنذاراتِـهِمُ الـمَرْئيَّةِ بالضِّيـاءِ واللَّمَعـان، وصَمُّـوا عن الأخبارِ والآثارِ فلَمْ يَسـمَعُوا بشـائرَ النُّبـوَّةِ الواقعةَ على وجـهِ الإعلان، قال الشـاعر:

= (٨/ ٢٢٠): فيه عبد العزيز بن عمران وهو متروك.

(١) في «ل»: «المعقولة المحسوسة».

لقد أَسْمَعْتَ لو نادَيْتَ حيّاً ولكنْ لا حياةَ لِمَنْ تُنادِي

والحاصل: أنَّهم ما انْتَفَعوا ببِشارةِ البَشِير، ولا تأثَّروا بنِذَارةِ النَّذير، لا مِن الآياتِ والمعجزاتِ المَرْئِيَّة، ولا مِن الدَّلالاتِ والحِكَميَّاتِ السَّمْعيَّة، أو: لا مِن رُؤْيةِ الأنوارِ في ليلةِ ولادتِه، ولا مِن أخبارِ الجنِّ بظهورِ رِسالتِه، أو: لا مِن كَسْرِ قَصْرِ كِسرَى حينَ أَبْصَروا، ولا مِن قولِ الكَهَنةِ لهم حينَ أَخْبَروا. لكونِهم صُمًّا عن سماعِ الحقِّ وقَبولِه، وعُمْياً عن رؤيةِ الحقِّ ووُصولِه.

وفي البيتِ لَفٌّ ونَشْرٌ مشوَّش، والأظهرُ أنَّه عَكَسَ ليتعلَّقَ ما بعدَهُ بما قبلَهُ لفظاً ومَعْنًى، فيكونَ مِن قَبيلِ: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

٦٧ ـ مِن بعدِ ما أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كاهِنُهُمْ بأنَّ دِينَهُمُ المُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

الجارُّ تَنَازَعَ فيه الفِعْلانِ المتقدِّمانِ. والكاهِنُ: المُخْبِرُ عن بعضِ الأمورِ الغيبيَّة، بالسَّماعِ مِن الطَّائفةِ الجِنِّيَّة، المُسْتَرِقَةِ مِن الملائكةِ السَّماوِيَّة، وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

والاعْوِجَاجُ في الأمورِ الحِسِّيَّة: عَدَمُ الاستِقامةِ الصُّورِيَّة، وفي غيرِ الحِسِّيَّة: عَدَمُ الاستِقامةِ المعنَوِيَّة.

وقامَتِ السُّوق: إذا نَفَقَتْ.

والمعنى: صَمُّوا حيثُ لَمْ يَسمعوا بشائرَ الإنذار، مِن بعدِ ما أَخْبَرَ كاهِنُهُم أقوامَهُم الكفَّار، بأنَّ طريقتَهُم التي تَدَيَّنوا بها، وخَرَجوا عن طريقِ الصَّوابِ الذي فُطِروا عليه بسببِها، لم يَقُمِ اعْوِجاجُها، ولَمْ يَحْصُلْ رَوَاجُها، قال تعالى: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ ﴾ [الإسراء: ٨١].

وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّه أَجْمَعَ المُحِقُّ والمُبْطِلُ على حَقِّيَّةِ نُبوَّتهِ وصِدْقِ رِسالتِهِ، فالإصرارُ على الإنكارِ؛ لإطفاءِ نورِ الأبصارِ، ولذا قال النَّاظِمُ -رحمهُ اللهُ تعالى- بعدَهُ:

٦٨ -وبَعْدَ ما عايَنُوا في الأُفْقِ مِن شُهُبٍ مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ ما في الأَرْضِ مِن صَنَمِ

(بعد) رُوِيَ بالجرِّ والنَّصبِ، و(ما) مَصْدريَّةٌ أو موصولةٌ، و(الأُفْق) بسكونِ الفاءِ مخفَّفٌ وضمِّها: مفردُ الآفَاقِ، وهي جَوانبُ السَّماءِ.

و(الشُّهُبُ) بضمَّتينِ: جمعُ شِهابٍ بمعنَى الكوكبِ المُضيءِ، ويُطْلَقُ على شُعْلةِ نارٍ ساطعةٍ، والأصحُّ أنَّها مُنْفصِلةٌ مِن نارِ الكَواكبِ وليسَتْ نَفْسَ الكَواكبِ؛ لضَمِّها قارَّةً في الفَلَكِ على حالِها، وما ذاكَ إلَّا كَقَبسٍ يُؤْخَذُ مِن النَّارِ وهي ثابِتةٌ كامِلةٌ غيرُ ناقِصةٍ.

والانْقِضاضُ: السُّقوطُ، يُقالُ: انْقَضَّ السَّهْمُ: سَقَطَ، وتَجوزُ الحَرَكاتُ الثَّلاثُ في (مُنْقضَّة)، ونُصِبَ (وَفْقَ) بنزعِ الخافضِ، أو على الحاليَّةِ؛ أي: حالَ كونِها مُوافِقةً لِمَا في الأرضِ.

والمعنى: عَمُوا حينَ لَمْ يَرَوا بَوَارِقَ الإنذارِ الواضِحةِ، مِن بعدِ مُعايَنَتهِمْ في أطرافِ السَّماءِ بعضَ الشُّهُبِ السَّاقِطةِ اللائِحَةِ، على وَفْقِ سقوطِ ما في الأرضِ مِن الأصنامِ الكالِحَة.

والحاصلُ: أنَّه ما نَفَعَهم الآياتُ الآفاقيَّة، مِن مَنْعِهِمُ الاسْتِراقاتِ السَّمْعيَّة، ولا الآياتُ الأَنْفُسيَّة، مِن انْكِبابِ الأصنامِ على الوجوهِ المَقْلوبيَّة، فلَمْ يَنْجَحْ فيهِمُ العِيَانُ، كما لَمْ يَنفعْ لهمُ البَيَان، واللهُ المستعانُ، وعليهِ التُّكْلان.

٦٩ -حتَّى غَدَا عن طَريقِ الوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِن الشَّياطينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

(حتَّى) عاطِفةٌ أو ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بـ(مُنْقَضَّةٍ)، و(غَدَا) بمعنَى: صارَ، وقيل:

بمعنى: ذَهَبَ، معطوفٌ على (مُنْقَضَّةٍ)؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

و(منْهَزم) اسمُ (غدا)، و(يقفو) خبرُه، (إثْرَ) ظرفٌ، و(مِن الشَّياطينِ) صفةُ (مُنْهزِمٌ)، و(عن طَريقِ الوَحْي) وفي نسخةٍ: (الحقِّ) متعلِّقٌ بـ (يَقْفُو) لتَضَمُّنهِ معنى: يَهْربُ، كذا قيل، وقيل: مُتعلِّقٌ بـ(غدا)، والأَظْهَرُ أنَّه مُتعلِّقٌ بـ(مُنْهَزِمٌ)، و(طريق الوَحْي): أبوابُ السَّماءِ.

يعني: وقتَ ظهورِ نُورِ وِلادتِهِ الميمونَةِ، وحينَ نِفَاسِ وِلادةِ أمِّهِ الآمِنةِ المأمونَةِ، انْقَضَّ الشُّهُبُ حتَّى صارَ الشَّياطينُ الـمُسْترِقُونَ مُنْهَزِمين هارِبين، عن أبوابِ السَّماءِ التي هي طُرُقُ وحيِ الأنبياءِ والـمُرسَلِين، ويَتْبَعُ كلَّ منهزِمٍ منهُم عَقِبَ مُنْهزِمٍ آخَرَ مُتتابِعين.

والحاصلُ: أنَّ تَتابُعَ الشُّهبِ مع كثرتِهِ ظَهَرَ أيَّامَ ظهورِ النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم ووَقْتَ ولادتِهِ، ولـمْ يَكُنْ للكفَّارِ عهدٌ بمثلِ ذلك، وإنْ كانَ لهم علمٌ في الجُمْلةِ بانْقِضاضِها رُجوماً لأولئك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وأمَّا قولُه تعالى حكايةً عنهم ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩]، فالمرادُ به: بعدَ البِعْثةِ، كذا حقَّقَهُ الشَّيخُ جلالُ الدِّينِ المَحَلِّيّ، رَفَعَ اللهُ تعالى مَحلَّه العَلِيّ.

٧٠ ـ كأنَّهُمْ هَرَباً أبطالُ أبْرهةٍ   أو عَسْكَرٌ بالحَصَى مِن راحتَيْهِ رُمِي

ضميرُ (كأنَّهم) إلى الشَّياطين، و(هَرَباً) تمييزٌ، أو حالٌ بمعنَى: هارِبين، و(الأبطالُ) جمعُ بَطلٍ بمعنَى الشُّجاع، و(أبْرهة) اسمُ رئيسِ أصحابِ الفيلِ، (أو

عَسْكرٌ) بالرَّفعِ عطفاً على (أبطالُ)، والرَّاحةُ: بطنُ الكفِّ، والضَّميرُ راجعٌ إلى النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وضميرُ (رُمِي) راجعٌ إلى العَسْكرِ.

والمعنى: كأنَّ الشَّياطينَ حينَ يُقْذَفون بالشُّهُبِ مِن السَّماءِ الدُّنيا، وهُم هاربونَ إلى الأرضِ السُّفْلَى، شجعانُ أبرهةَ حيثُ شَرَدوا مع الفيلِ لـمَّا رَمَتْهم الأبابيلُ بحجارةٍ مِن سِجِّيلٍ، أو كأنَّهم عسكرُ بدرٍ أو حُنينٍ حيثُ انْهزَموا حينَ رُمُوا بالحَصَيَاتِ مِن كفَّيهِ الكريمتَينِ.

وفي بناءِ (رُمِي) على صيغةِ المجهولِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٨].

فالمصراعُ الأوَّلُ: إشارةٌ إلى قضيَّةِ أصحابِ الفيلِ؛ إذْ كانَ مَوْلدُه عامَ الفيلِ ليلةَ الإثنينِ لاثْنَيْ عَشَرَ مِن شهرِ ربيعٍ الأوَّلِ.

وسَبَبُ القِصَّةِ: أنَّ مَلِكَ اليمنِ بَنَى كنيسةً بصَنْعاءَ ليَصْرِفَ الحاجَّ إليها، فأَحْدثَ رجلٌ مِن كِنانةَ فيها ولَطَّخَ بالعَذِرةِ قِبْلتَها، فحَلَفَ ليَهْدِمَنَّ الكعبةَ، فجاءَ بجيشٍ كثيرٍ وفيلٍ عظيمٍ مع أفيالٍ إلى مكَّةَ، فحينَ تَهَيَّؤُوا للدُّخولِ غُشِيَ عليهِم وولَّوا هارِبينَ، ورُمُوا بحجارةٍ مِن سِجِّيلٍ، قيل: كلُّ حَجَرٍ أصغرُ مِن الحِمَّصِ وأكبرُ مِن العَدَسِ يَجيءُ على مِغْفَرِ العسكريِّ، ويَخرجُ مِن دُبُرهِ الدَّابِريِّ، وهو قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

والمِصراعُ الثَّاني: إشارةٌ إلى غزوةِ بدرٍ، رواهُ البُخاريُّ[١]، وإلى غزوةِ حُنينٍ

(١) لم أجد في البخاري رمي الكفار بالحصى، لكن روى الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٦٨) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما: أن المَلأَ من قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا في الحِجْرِ فَتَعَاهَدُوا بِاللاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى لو قد رَأَيْنَا مُحَمَّداً قُمْنَا إليه قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فلم نُفَارِقْهُ حتى نَقْتُلَهُ... فَأَقْبَلَ رسول اللهِ ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فَأَخَذَ قَبْضَةً من تُرَابٍ فَحَصَبَهُمْ بها، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ» قال: فما أَصَابَتْ رَجُلاً منهم حَصَاةٌ إلا قد قُتِلَ يوم بَدْرٍ كَافِراً.

رَواهُ مُسلمٌ[١]، وهو من معجزاتِهِ عليه السَّلامُ، فإنَّه أَخَذَ كفّاً مِن ترابٍ وقال: «شاهَتِ الوُجوهُ»، وحَثَا في وجوهِ الكفَّارِ، فلَمْ يَبْقَ منهم عينُ أحدٍ إلَّا وقد دَخَلَها منه شيءٌ[٢].

قال عصامُ الدِّينِ: المشهورُ أنَّه كان كفّاً مِن الحَصَى، والمفهومُ مِن البيتِ خِلَافُه.

قلتُ: تَثْنِيَةُ الرَّاحَتينِ باعتبارِ الواقِعَتينِ في الغَزْوتَينِ، وقد سبَّحتْ تلك الحَصَى في كَفَّي المصطَفَى حتَّى سَمِعهُ أصحابُ أهلِ الصَّفا، وهذه معجزةٌ أُخرى أشارَ الناظِمُ إليها، حيث قال:

٧١ ـ نَبْذاً بِهِ بعدَ تسبيحٍ ببطْنِهِما　　　نَبْذَ المُسَبِّحِ مِن أحشاءِ مُلْتَقِمِ

(نبذاً) مصدرُ (رَمَى) مِن غيرِ لَفْظِهِ، أو التَّقديرُ: نَبَذهُ نَبْذاً به، والباءُ زائدةٌ لتَقْويَةِ عَمَلِ المصدرِ، والضَّميرُ في (به) إلى (الحَصَى)، والتَّذكيرُ لأنَّه اسمُ جِنْسٍ.

وضميرُ بطنِهما لـ (راحَتَيهِ) ففيهِ تَجريدٌ، والباءُ بمعنَى: في.

و(نَبْذَ المسبِّح) صفةُ (نَبْذاً) بتقديرِ مضافٍ؛ أي: نَبْذاً مِثْلَ نَبْذِ المسبِّحِ، أو بَدَلٌ منهُ. وهو مُضافٌ إلى المفعولِ؛ أي: نَبْذَ اللهِ المُسبِّحَ وهو يونُسُ عليه السَّلامُ، والأحشاءُ: جمعُ الحَشَى، وهو ما في البَطْنِ، والـمُلْتَقِمُ: الحوتُ.

يعني: رُمِيَ رَمْياً بالحَصَى مِن راحَتَيْهِ الشَّرِيفتَيْنِ وكفَّيهِ الكَرِيمتَينِ بعدَ تسبيحٍ عظيمٍ، حيثُ سمعَهُ بعضُ أصحابِهِ الكريم، كما رُمِيَ يونُسُ عليه السَّلامُ مِن بطنِ الحوتِ بعدَ الالْتِقام، حيثُ قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقد قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢ ـ ١٤٥]، والقَصْدُ

(١) رواه مسلم (١٧٧٥) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما.

(٢) رواه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع رضِيَ اللهُ عنه في قصة حنين. وانظر حديث ابن عباس عند أحمد الذي تقدم قريباً.

تَشبيهُ نَبْذِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بالحَصَى المسبِّحِ على وجوهِ العسكرِ فهَرَبَ[1] مُنْكسِراً، كنَبْذِ اللهِ يونُسَ عليهِ السَّلامُ مِن بطنِ الحوتِ حيّاً فرَجَعَ مُنْجَبِراً، في أنَّ كلّاً منهما خارقٌ للعادةِ، وكما أنَّ نَبْذَ المُسبِّحِ كان سبباً لنجاتِهِ وهدايةِ قومِهِ، كذلك نَبْذُه عليه السَّلامُ كان سبباً لخلاصِ المؤمنينَ وهدايَةِ بعضِ الكافرِينَ.

قال الجلالُ المَحَلِّيُّ: وكأنَّ النَّاظِمَ وَقَفَ على دليلِ تسبيحِ الحَصَى المَرْميِّ به، ولَمْ يَقِفْ عليهِ مَن اعتَرضهُ بالنَّفْي في ذلك، أو قَصَدَ التَّسْبيحَ الثَّابت في غيرِ ذلك[2]، قال أنسٌ رضِيَ اللهُ عنه: أخذ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفّاً مِن حصًى، فسبَّحْنَ في يدِهِ حتَّى سَمِعْنا التَّسبيحَ، ذَكَرهُ صاحِبُ «الشِّفا» وغيرُه[3]، وعلى هذا فقولُ النَّاظِمِ: (بعدَ تَسبيحِ)؛ أي: لجِنْسِ الحَصَى في موطِنٍ آخَرَ، انتهى.

لكنْ لا يَظْهرُ حينئذٍ وجهُ التَّعبيرِ بالنَّبْذِ، والتَّشبيهِ بنَبْذِ المُسبِّحِ.

٧٢ـ جاءَتْ لدَعْوتهِ الأشجارُ ساجِدةً تَمْشِي إليهِ على ساقٍ بلا قَدَمِ

السَّجْدةُ: الانْخِفاضُ، وذا يَتِمُّ بوضعِ الرَّأسِ على الأرضِ، ولذا يُفَسَّرُ بوَضْعِ أفضلِ الأجزاءِ على أرذلِ الأشياء، أو المرادُ الخضوعُ والانْقِيادُ.

---

(١) في «د»: «فهزموا».

(٢) في هامش «ل»: «وعن جابر رضِيَ اللهُ عنه قال عطش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوةٌ، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه وقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي عليه السلام يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قيل لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مئة. رواه البخاري [٤١٥٢] ومسلم [١٨٥٦]».

(٣) انظر: «الشفا» (٢/ ٢٥٦). ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١٢٠)، وابن الجوزي في «العلل» (٣٢٧)، وقال: هذا حديث لا يصح. وفيه أنهن سبحن في كف عمر وعثمان أيضا. وروى ابن الجوزي نحوه في «العلل» (٣٢٦) من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه، ونقل عن النسائي قوله: هذا حديث باطل منكر.

والمعنى: جاءتِ الأشجارُ لأَجْلِ دعوتِه، وأجابَتْ وقتَ طَلَبِهِ ومُناداتِه، حالَ كونِها مُنْقادةً خاشِعَةً، على رأسِها واقِعَة، وتمشي إليهِ ﷺ خاضِعَةً، على ساقٍ بلا قدمٍ رافعةً واضِعَة.

وفي البيتِ أنواعٌ مِن خَوَارِقِ العادات؛ الأولى: فَهْمُ الخطابِ مِن النَّبَاتات، مع أنَّها ليسَتْ مِن ذواتِ الحَيَاة، ثُمَّ مَجيئُها وتَعَدُّدُ الحَرَكاتِ والسَّكَنات، ثُمَّ قَصْدُها إليهِ وتَوَاضُعُها لَدَيْه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

ثُمَّ مَشْيُها على ساقٍ بلا قَدَم: إمَّا على رأسِها، أو مع انْخِفاضِها وخُضُوعِها وأدَبِها.

قال عِصَامُ الدِّين: المجيءُ إنَّما حَصَلَ مِن شجرةٍ واحدةٍ على ما وَرَدَ في التَّواريخِ والأخبار، فجَمْعُ (الأشجار) محمولٌ على التَّكْرَار.

يعني: تكْرارَ حركتِها مع وجودِ وَحْدَتِها، وغَفَلَ عمَّا ذكرهُ صاحبُ «الشِّفَاء»، وغيرُه مِن أهلِ الوَفَاء، في شَمائلِ الـمُصْطَفَى عليهِ التَّحيَّةُ والثَّناء: أنَّ أعرابيّاً سألَ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم آيةً، فقال لهُ: «قُلْ لتلك الشَّجرةِ: رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يَدْعوكِ»، فمالَتْ [عن] يمينِها وشمالِها، وبينَ يَدَيْها وخَلْفَها، فقَطَعَتْ عُروقَها ثُمَّ جاءَتْ تَجرُّ عُروقَها في الأرضِ حتَّى وَقَفَتْ بينَ يَدَيْه، فقالتْ: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، قال الأعرابيُّ: فمُرْها فلْتَرجِعْ إلى مَنْبِتِها، فأمَرَها فرَجَعتْ، فدَلَّتْ عُروقَها في مَنْبِتِها فاسْتَوَتْ فيه[1].

ورَوَى مسلمٌ عن جابرٍ رضِيَ اللهُ عنه في حديثِهِ الطَّويلِ آخِرَ الكتابِ: ذَهَبَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقْضِي حاجتَهُ، فنَظَرَ فلَمْ يَرَ شيئاً يَستَتِرُ به، فإذا شَجَرتَينِ بشاطئِ الوادِي،

---

(١) انظر: «الشفا» (١/ ٢٢٥). والحديث رواه البزار في «مسنده» (٤٤٥٠)، وفيه: فأمرها رسول الله أن ترجع، فقام الرجل فقبل رأسه ويديه ورجليه وأسلم. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠): رواه البزار، وفيه صالح بن حيان وهو ضعيف. وما بين معكوفتين من «الشفا»، ولفظ البزار: «... فمالت على كل جانب منها حتى قلعت عروقها...».

فانْطَلَقَ إلى إحداهُما فأَخَذَ بغُصْنٍ مِن أغصانِها وقال: «انْقادِي معي بإذْنِ اللهِ تعالى»، فانْقادَتْ معهُ حتَّى أَتَى الشَّجرةَ الأُخرَى، فأَخَذَ بغُصْنٍ مِن أغصانِها وقال: «انْقادِي معي بإذْنِ اللهِ تعالى»، حتَّى إذا كانَ بالـمَنْصَفِ ممَّا بينَهما فقال: «الْتَئِمَا عَلَيَّ بإذْنِ اللهِ» فالْتَأَمَتَا، ثُمَّ بعدَ انقضاءِ حاجتِهِ افْترقَتَا، فقامَتْ كلُّ واحدةٍ مِنهُما على ساقٍ[1].

٧٣ـ كأنَّما سَطَرَتْ سَطْراً لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعُها مِن بَدِيعِ الخَطِّ في اللَّقَمِ[2]

(ما) في (كأنَّما) كافَّةٌ، والسَّطرُ: الكتابةُ، فاللَّامُ في (لِـمَا) بمعنَى الوقتِ.

والسَّطرُ: الصَّفُّ مِن الشَّيءِ، والفُروعُ: الأغصانُ، والبَدِيعُ: الغَريبُ العَجيبُ؛ فَعِيلٌ بمعنَى المفعولِ، والإضافةُ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، و(مِن) بيانٌ لـ (ما) الموصولةِ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: كَتَبَتْه.

و(اللَّقَم) بفتحتينِ: وَسَطُ الطَّريقِ، وقيلَ: اللَّوحُ، قيلَ: الأَوْلَى روايةً ودرايةً: (باللَّقَمِ) والباءُ بمعنَى (في). و(اللَّقَم): تَقْليبُ القَلَمِ الذي هو أداةُ الكتابةِ، ففيهِ نوعُ غَرَابةٍ، وهي مِن المحسِّناتِ البَدِيعيَّةِ.

وحاصِلُ المعنَى: أنَّهُ شَبَّهَ آثارَ أغصانِ الأشجارِ في الأرضِ المفيدةِ للمُعْتَبِرِ، بالخطِّ الدَّالِّ على اللَّفظةِ المفيدةِ للمَعاني للمُتَدَبِّرِ.

٧٤ـ مِثْلَ الغَمَامةِ أنَّى سارَ سائرةً تَقِيْهِ حَرَّ وَطِيسٍ للهَجِيرِ حَمِي

(مِثْلَ) منصوبٌ على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ؛ أي: مَجيئاً مِثْلَ الغَمَامةِ، بفتحِ الغينِ المُعْجَمةِ، ووَهِمَ عصامُ الدِّينِ حيثُ قال: على وزنِ العِمَامةِ. فإنَّها بكسرِ المهمَلةِ كما في «القاموس» وغيرِه[3].

---

(١) رواه مسلم (٣٠١٢).

(٢) في هامش «ل»: «بالملقم»، وهي رواية كما سيرد.

(٣) انظر: «القاموس» (مادة: عمم).

وبالرَّفْعِ خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هي - يعني: الأشجارَ - مِثْلُ الغَمَامةِ في الانْقِيَادِ إليه، والقيامِ بوظائفِ الخدمةِ لَدَيه، ﷺ، أو: مجيءُ الأشجارِ مِثْلُ تَظْليلِ الغَمَامةِ، على حَذْفِ المُضَافِ.

و(أنَّى) بمعنى: مِن أين؟ أي: أيّ موضعٍ إلى أيِّ موضعٍ[1]، أو بمعنى: كيف؛ أي: ماشياً أو راكباً، سريعاً أو بطيئاً.

و(سائرةٌ) بالرَّفعِ خبرٌ لمُقدَّرٍ؛ أي: هي سائرةٌ، و(تَقِيهِ) بمعنى: تَحْفظُه، خبرٌ ثانٍ لهذا المقدَّرِ، أو استئنافٌ. وبالنَّصْبِ على أنَّها حالٌ كما بعدَها؛ أي: تشبيهُ الغَمَامةِ حالَ كونِها سائرةً أنَّى سارَ.

والوطيسُ: التَّنُّورُ، والمرادُ: تَنُّورُ الهواءِ، و(حَمِي) فعلٌ ماضٍ، وسكونُ آخِرِه عارِضٌ في الوَقفِ، وهو صفةٌ للوَطِيس، يُقالُ: حَمِيَ الوَطِيسُ: إذا اشْتَدَّ الحربُ، وكذا: إذا صَعُبَ الأمرُ.

والهَجيرُ: نِصْفُ النَّهارِ الحارِّ، والباءُ بمعنَى: في، وكذا اللَّامُ كما في بعضِ النُّسخِ.

يعني: جاءتِ الأشجارُ ساجدةً لديهِ وماشيةً إليهِ مثلَ مجيءِ الغمامة، ساتِرةً عليهِ حافِظةً له عن شدَّةِ حرِّ النَّهار، وظاهرةً عندَ الأَخْيارِ والأَغْيار، حيثُ سارَ النَّبيُّ المُخْتار، فالأشجارُ تشرَّفتْ بخدمتهِ، والغمامةُ تشمَّختْ وارْتَفَعتْ بظلَّتهِ، فقد دانَتْ له الأسافلُ والأعالي، بعونِ اللهِ الملكِ المُتَعَالي.

قال المحلِّيُّ: وتظليلُها لهُ عليهِ السَّلامُ وَقَعَ في سفرِ عمِّه أبي طالبٍ به في رَكْبٍ تاجراً إلى الشَّام، رواهُ التِّرمِذيُّ[2].

---

(١) قوله: «إلى أي موضع» ليس في «د».

(٢) رواه الترمذي (٣٦٢٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٥٥): تفرد به =

قال عصامُ الدِّينِ: لو قال:

مِثْـلَ الغَمَامَـةِ لَمَّـا سـارَ سـائرةً ... وَقَتْـهُ حَـرَّ وَطيـسٍ للهَجِيـرِ حَمِـي

لـكان أَوْلَى؛ لأنَّ (أنَّـى) مُتَضمِّنةٌ معنـى: إنْ، وهي تجعلُ مدخولَها مستقبَلاً، والحـالُ أنَّ المَقـامَ يَقتَضِـي الماضي، وغايـةُ ما يَخطرُ بالبـالِ في دَفْعِ الإشـكالِ: أنْ يُعْتَبَرَ الاسـتقبالُ بالنَّظـرِ إلى ما قَبْلَ السَّـيْرِ، وهـو أوَّلُ زمانِ وجـودِ الغَمَامة.

٧٥ ـ أَقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ إنَّ لهُ ... مِـن قَلْبِـهِ نِسـبةً مَبْـرُورَةَ القَسَـمِ

قيل: القَسَمُ بغيرِ اللهِ جَرَى على العادَةِ، وإلَّا فالشَّرعُ عَدَّهُ شِركاً، ولهذا يُقدَّرُ في أمثالِهِ المضافُ؛ أي: لفظةُ الرَّبِّ.

ويُمكنُ أنْ يكونَ حكايةً عن كلامِ اللهِ تعالى، وللهِ أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِن مخلوقاتِهِ تعظيماً لبعضِ موجوداتِهِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢ ـ ٣٤].

وأغربَ العصاميُّ حيثُ قال: القَسَمُ الذي يُرادُ به تأكيدُ الحكمِ ليس بمنْهِيٍّ عنه، ولهذا في المحاوراتِ يُقسَمُ بالعُمرِ ونحوِه، ومَنَعَ أن يكون المنعُ عنه منقولاً.

وأقولُ: قد ثَبَتَ عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنَّه قال: «مَن حَلَفَ بغيرِ اللهِ تعالى فقد أَشْرَكَ»، رواهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والحاكمُ بسندٍ صحيحٍ عن ابنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما(١).

= قـراد، واسـمه: عبـد الرحمـن بن غزوان، ثقـة احتج بـه البخاري والنسـائي؛ ورواه النـاس عن قراد وحسـنه الترمـذي، وهو حديـث منكر جـداً...، ثم ذكر سـبب نكارته مـن وجـوه، فراجعه ثمة.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٦٩)، والترمذي (١٥٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٥)، قال الترمذي: هذا حديث حسن، وَفُسِّرَ هذا الحديثُ عندَ بعضِ أهلِ العِلْمِ أنَّ قولهُ: «فَقَدْ كَفَرَ أو أَشْرَكَ» على التَّغْلِيظِ.

وجاء في «الصَّحيحينِ» عن ابنِ عُمرَ أيضاً: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ ينهاكُم أنْ تَحْلِفوا بآبائكم، مَن كانَ حالِفاً فلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ»[١].

قال الطِّيبيُّ: وذلك لأنَّ الحَلِفَ تعظيمٌ للمحلوفِ به، وحقيقةُ التَّعظيمِ مختصَّةٌ باللهِ تعالى، ويُكْرهُ الحَلِفُ بغيرِ أسماءِ اللهِ تعالى، سواءٌ في ذلك النبيُّ والكعبةُ والملائكةُ والأمانةُ والحياةُ والرُّوحُ وغيرُها[٢].

والقمرُ يُطْلَقُ على النَّيِّرِ المُنيرِ باللَّيلِ بعدَ مُضِيِّ ثلاثِ ليالٍ، وأمَّا قَبْلَهُ فيُقالُ له: الهلالُ، والضَّميرُ في (لهُ) وفي (قَلْبِه) لهُ صلى الله تعالى عليه وسلم[٣].

و(مبرورةَ القَسَمِ) صفةٌ لـ (نِسْبةً)؛ أي: نِسبةً مُصحِّحةً للقَسَمِ، بحيثُ لو حَلَفَ حالِفٌ على ثُبوتِ تلك النِّسبةِ كان بارًّا وصادقاً.

وقيل: صفةُ (يميناً) دلَّ عليها (أقسمتُ).

والمعنى: إنَّ للقمرِ المُنْشَقِّ مُناسَبةٌ صَرِيحةٌ ومُشابَهةٌ صَحيحةٌ بقَلْبِهِ الأَنْورِ وصَدْرِه الأَزْهرِ، بحيثُ يُصدِّقُ الحالِفَ بثُبوتِ تلكَ النِّسبةِ كلُّ مَن لهُ مُسْكةٌ[٤]، ومِن وُجوهِ النِّسبةِ: الانْشِقاقُ بلا ضَررٍ، والالْتِئامُ بلا أَثَر، وإنَّ واحدةً آيةٌ مِن آياتِه، والأُخْرَى مُعجِزةٌ مِن مُعْجزاتِه.

وأمَّا انْشِقاقُ القلبِ: فقد رَوَى مسلمٌ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ أتاهُ وهو يَلعَبُ مع الغِلْمانِ، فأَخَذَه فصَرَعهُ فشَقَّ صَدرَهُ عن قَلْبِه، فاستَخْرَجَ القلبَ واسْتَخْرجَ منهُ عَلَقةً فقال: هذا حظُّ الشَّيطانِ منكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) انظر: «شرح المشكاة» للطيبي (٨/ ٢٤٣٦).

(٣) في «ل»: «والضَّميرُ في له له، وفي قبله له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم». وفيها زيادة وتحريف.

(٤) المسكة: العقل الوافر. انظر: «القاموس» (مادة: مسك).

فـي طَسْـتٍ مِـن ذهـبٍ، ثُمَّ لأَمَـهُ، ثُـمَّ أعـادَهُ فـي مكانِهِ، قـال أنـسٌ رضِـيَ اللهُ عنه: كنْـتُ أَرَى أَثـرَ المِخْيَطِ في صَـدْرِه[١].

وفـي «الصَّحِيحَيـنِ» عـن أبـي ذَرٍّ رضِـيَ اللهُ عنـه حديثُ: «فُـرِجَ سَـقْفُ بَيْتي وأنـا بمكَّـةَ، فنَـزَلَ جبريـلُ ففَرَجَ صَـدْرِي ثُمَّ غَسَـلَهُ مِـن ماءِ زَمْـزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْـتٍ مِـن ذَهَـبٍ مُمْتلـئٍ حِكْمـةً وإيمانـاً فأَفْرغَهـا في صَـدْري ثُـمَّ أَطْبقـهُ، ثُمَّ أَخَـذَ بيدي فعَرَجَ بـي إلـى السَّـماءِ..» الحديثَ[٢].

وأمَّـا انْشِـقاقُ القمـرِ: فقـد قـال اللهُ تعالى فـي كتابـهِ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٢].

وفـي «الصَّحِيحيـنِ» مِـن حديـثِ أنـسٍ رضِـيَ اللهُ عنـه: أنَّ أهـلَ مكَّةَ سـألوا رسـولَ اللهِ صلـى الله تعالى عليه وسـلم أنْ يُرِيَهُم آيةً، فأَرَاهُم انْشِـقاقَ القمرِ شِـقَّتَينِ حتَّـى رَأَوا أنَّ حِـراءَ بينَهُمـا[٣]، انتهى.

وثَبَـتَ أنَّ القمـرَ انْشـقَّ مَرَّتينِ[٤]، وتقدَّمَ أنَّ شَـقَّ الصَّـدرِ كان كرَّتينِ، فصارتِ النِّسـبةُ بين القلبِ المنيرِ والقمرِ المُسْـتَنيرِ نِسْـبتَينِ.

٧٦ـ وما حَوَى الغارُ مِن خَيْرٍ ومِن كَرَمٍ   وكلُّ طَـرْفٍ مِـن الكفَّـارِ عنـهُ عَمِـي

---

(١) رواه مسلم (١٦٢/ ٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٣) رواه البخاري (٣٨٦٨).

(٤) في هامش «د»: «شق القمر مرتين، وشق الصدر أيضاً مرتين». وحديث انشقاق القمر مرتين رواه مسلم (٢٨٠٢) عن أنسٍ: أنَّ أهلَ مكَّة سألُوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُرِيَهُم آيَةً، فأَراهُمُ انْشِقَاقَ القَمَرِ مَرَّتيْنِ. لكن المراد بالمرتين عند المحققين: شقتين أو فلقتين، لا أنه وقع الانشقاق مرتين كما يوهم ظاهر اللفظ. انظر تفصيل ذلك في «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٣٠٠ـ٣٠١).

أي: اذْكُـرْ مـا جَمَعـهُ غـارُ ثورٍ مِـن جبالِ مكّـةَ، و(مِن) بيـانٌ لـ(مـا)، والمرادُ مِـن الخيرِ الفَضائلُ، ومِن الكَـرَمِ الفَوَاضِلُ، أو الأفعالُ الجميلـةُ والأخلاقُ الجليلةُ، أو الخصـالُ المُكْتسـبةُ والخِـلَالُ المُسْـتوهَبةُ، وهو علـى حَذْفِ مضـافٍ؛ كـ: أهل، أو الإطْـلاقُ مِـن بـابِ المُبالَغةِ؛ كـ: رجـلٌ عَدْلٌ، والمـرادُ بهما: الجامِعَيـنِ لهما مِن النَّبـيِّ والوَلـيِّ، أو علـى طريقِ اللَّفِّ والنَّشـرِ المرتَّبِ، فالخيرُ الـمُطْلَقُ خيـرُ البَرِيَّة، والكَرَمُ يُـرادُ به أفضـلُ الأمَّةِ.

وقد رَوَى التِّرمِذِيُّ عن أبي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما لأحدٍ عندَنا يدٌ إلَّا وقد كافَيْناه، ما خَلَا أبا بكرٍ فإنَّ لهُ عندَنا يداً يُكافِيهِ اللهُ بها يومَ القيامةِ، وما نَفَعَني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بكرٍ»[1].

(وكلُّ طَرْفٍ)؛ أي: بَصَرٍ ونَظَرٍ (مِن الكفَّار) الدُّوَّارِ حولَ الغار، مُتَتَبِّعينَ للآثار، (عنه)؛ أي: عن النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وأَفْرَدَهُ بالذِّكرِ لأنَّه الأصلُ الـمَتْبوعُ.

أو التَّقديـرُ: عـن كلِّ واحـدٍ منهُما (عَمِـي) حيثُ لَـمْ يَرَوْهما، وهـو إمَّا ماضٍ وهـو الأظهرُ، فاليـاءُ أصليّـةٌ، أو صِفةٌ فالياءُ إشْـبَاعيَّةٌ، قـال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وقال الشـاعر:

ويُؤْذِي ضَوءُ شَـمسٍ عيـنَ خُفَّاشِ[2]

وقال:

كمـا يَضُـرُّ رِيَـاحُ الـوَرْدِ بالجُعَـلِ[3]

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٦١).

(٢) لم أجده.

(٣) عجز بيت للمتنبي، وصدره كما في «ديوانه» بشرح الواحدي (ص ٢٠٣):

بِـذي الغبـاوةِ مـن إنشـادها ضـررٌ

في «الصَّحيحين»: قال الصِّدِّيقُ: نَظَرْتُ إلى أقدامِهِم فوقَ رُؤوسِنا فقُلْتُ: يا رسولَ الله! لو أنَّ أحدَهم نظَرَ إلى قدمَيْهِ لأَبْصرَنا، فقال: «ما ظنُّكَ باثْنَيْنِ اللهُ ثالِثُهُما»[1].

وفي التَّنزيلِ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٧٧ـ فالصِّدْقُ في الغارِ والصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا وهُمْ يَقولُونَ ما بالغارِ مِن أَرِمِ

(الصِّدْق) مصدرٌ بمعنى: الصَّادقُ، أو الـمَصْدُوقُ، أو ذو الصِّدْق، بالمعنَى الأعمِّ، أو على طريقِ المبالَغةِ؛ كـ: رجلٌ عَدْلٌ.

يعني: الصَّادِقُ المصدوقُ الذي انْحَصَرَ فيه الصِّدْقُ بل هو عَينُ الصِّدقِ قارٌّ في الغارِ، فارٌّ مِن الكفَّارِ، بأمرِ الجبَّارِ، والصِّدِّيقُ معه في الغارِ والأَسْفار، إذ الصِّدِّيقُ ـ وهو كثيرُ الصِّدْقِ ـ لا يُفارِقُ الصِّدْقَ، فهو الجزءُ الذي لا يَنْفَكُّ.

ثُمَّ قيل: (لَمْ يَرِمَا) بفتحِ الياءِ وكسرِ الرَّاءِ؛ أي: لَمْ يَبْرَحَا ولَمْ يَزُولَا، وأصلُه بياءٍ بعدَ الرَّاءِ هي عينُ الفعلِ، حُذِفَتْ تَبَعاً لحَذفِها في إسنادِهِ إلى الـمُفْرَدِ لالْتِقاءِ السَّاكِنَينِ، والأصلُ في استعمالِ مِثْلِهِ إثباتُ الياءِ عندَ تَحريكِ الميمِ اعْتِداداً بالعارِضِ، وِزَانَ ما في التنزيلِ: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]، فهذا الوجهُ ـ وهو أن يكونَ الحذفُ لعَدَمِ اعْتِبارِ العارِضِ ـ أَوْجَهُ مِن الحملِ على ضَرورةِ الشِّعرِ لأنَّه محلُّ نَظَرٍ، فإنَّه ليسَ مِن قَبيلِ حَذفِ القياسِيِّ مِن ضَرُوراتِ الشِّعريِّ، وأيضاً يوجِبُ الالْتِباس المُشَوِّشَ في إرادةِ المعنَى على النَّاس، ونظيرُه ما قيل: إنَّهُ مجهولٌ من الرَّوْم[2] بمعنى الطَّلَب.

ومِن اللَّطائفِ: أنَّهما مَطْلوبانِ ولَيْسَا بمطلوبَيْنِ، بل إنَّهما مَحبوبانِ ولكنْ كانَا عن أَعْيُنِ الأعداءِ محجوبَيْنِ.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) في «ل»: «الورم»، وهو تحريف.

وقيل: إنَّهُ مشتَقٌّ مِن الوَرَمِ، يعني: ما انْتَفَخا مِن الغضبِ؛ للأدَبِ مع حُكْمِ الرَّبِّ.

وقيل: ما انْتَفَخا مِن الوَرَمِ النَّاشئِ مِن السُّمِّيَّاتِ، فإنَّ الغارَ كان مَأْوَى الحيَّات، فيكونُ مِن خَوارقِ العادات.

وقيل: إنَّه مُفْرَدٌ مُؤكَّدٌ بالنُّونِ الخفيفةِ، فأُبْدِلَتِ الفاءُ للوَقْفِ، والضَّميرُ لـ(الصِّدِّيق)، ويكونُ خَبراً عنهُ حيثُ لَسعَتِ الحيَّةُ رِجْلَهُ المباركَةَ، وارْتَفعَ عنهُ الوَرَمُ ببركةِ دعائِهِ المكرَّم، ﷺ.

وفي بعضِ النُّسخِ بصيغةِ المجهولِ مِن الرُّؤيةِ، وهو ظاهرُ المعنَى، لكنْ قال بعضُ الشُّرَّاح: إنَّه مِن تَصحيفِ الكتَّاب، واللهُ أعلمُ بالصَّواب.

(وهم يقولون)؛ أي: والحالُ أنَّ الكفَّارَ الواقِفِينَ على بابِ الغارِ العَمِيِّ عن الأَبصار، بعَوْنِ اللهِ الملِكِ القَهَّار: (ما بالغارِ)؛ أي: ليس فيهِ (مِن أَرِمٍ) بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الرَّاءِ؛ أي: أحدٌ، و(مِن) مَزيدةٌ للمُبالَغةِ، ناظِرينَ إلى حَوْمِ الحَمَامِ وبَيْضهِ حولَ الغارِ، ونَسْجِ العنكبوتِ على فَمِ الدَّار، كما أشارَ إليهِ بقوله:

٧٨ـ ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العنكبوتَ على ... خيرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ ولَمْ تَحُمِ

(البَرِيَّة) بتشديدِ الياءِ وبالهَمْزِ: أي: الخلائِقُ، والمرادُ بخيرِهِمْ هو النَّبيُّ المكرَّمُ صلى الله تعالى عليه وسلم، أو المرادُ: سيِّدُ الأنبياءِ وسَنَدُ الأولياء.

وقوله: (لَمْ تَنْسجْ) بكسرِ السِّينِ وضمِّها، (ولَمْ تَحُمِ) بضمِّ الحاءِ مِن الحَوْمِ وهو الدَّوْرُ حولَ الشَّيءِ، والتَّأنيثُ في الفِعْلَينِ باعتبارِ الجِنسينِ، وقيل: في العنكبوتِ لِمَا اشْتَهَرَ مِن أنَّ النَّسْجَ شُغْلُ الأُنْثَى كما أنَّ البيضَ مُخْتَصٌّ بالحمامة.

والمعنى: أنَّ الكفَّارَ لعَدَمِ يَقينِهِمْ بالنبيِّ المُختار، حَسِبُوا أنَّ العنكبوتَ لَمْ يَنْسُجْ على بابِ الدَّار، والحمَامَ لَمْ يَحُمْ حولَ الغار، فظنُّوا أنْ ليس في الدَّارِ دَيَّار،

ورجعوا عن تَتَبُّعِ الآثار، وقالوا: لو كانَ أحدٌ في الغار، لَـمَا كان هذهِ الآثار، حتَّى قال أميَّةُ بنُ خَلَفٍ حينَ قال بعضُهم: نَدْخُلُ الغار: أَمَا تَرَوْنَ مِن نَسجِ العنكبوتِ عليه؟ ما أُرَى إلَّا أنَّه قَبْلَ أنْ يُولَدَ محمدٌ(١).

وهذا مِن أعظمِ الآياتِ على كمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، حيث وَقَاهُ اللهُ مِن أعظمِ الأعداء، بأَوْهَنِ البِنَاء، ومِن أَظْهَرِ العلاماتِ على إعلاءِ قَدْرِ نَبيِّه العَلِيِّ، وصَفِيِّهِ الجَلِيِّ، حيثُ اسْتَخْدَمَ له الطَّيرَ والحشرات، كما أَظْهَرَ له تسبيحَ الجَمَادات، وتَسخيرَ النَّبَاتات، ولقدْ أَحْسَنَ النَّاظِمُ في تَبْيينِ أنواعِ الـمُعْجِزات، وأصنافِ خَوَارِقِ العادات.

قيل: وحمَامُ الحَرَمِ الآنَ مِن نسلِ تلك الحَمَامة، ونَهَى النبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم عن قتلِ العنكبوتِ بتلكَ الغَمَامة(٢).

٧٩ ـ وِقايةُ اللهِ أَغْنَتْ عن مُضاعَفةٍ   مِـن الـدُّرُوعِ وعـن عـالٍ مِـن الأُطُـمِ

(الأُطُم) بضمَّتين: جمعُ أَطَمَةٍ وهي الحُصَيْنُ؛ أي: حِفْظُ اللهِ الملِكِ الجبَّارِ لنبيِّه الـمُختارِ جَعَلَهُ مُسْتَغْنياً عن الدُّروعِ والأسلحةِ المتعدِّدَة، وعن الحصونِ العاليَةِ المرتَفِعَة، فإنَّ عنايَتَهُ كِفَايَة، ووِقايَتَهُ كلُّ وِقَايَة؛ لأنَّه يَحفَظُ مَن شاءَ بما شاءَ مِن

---

(١) رواه أبو نعيم من طريق الواقدي حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن النبي ﷺ. انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (١/ ٣٠٦). والواقدي متروك كما أن الخبر منقطع. وقصة نسج العنكبوت رواها أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٥١) ـ طبعة الرسالة ـ بإسناد ضعيف، وانظر الكلام عليه في التعليق على «المسند». وقصة الحمامتين رواها ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٤٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)، وفي إسناده عون ـ ويقال: عوين ـ بن عمرو القيسي، أعله العقيلي به وقال: لا يتابع عليه، وأبو مصعب المكي مجهول. وانظر: «نصب الراية» للزيلعي (١/ ١٢٣).

(٢) حديث النهي عن قتل العنكبوت قطعة من خبر موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه. انظر التعليق السابق.

مخلوقاتهِ، ويَقِي مَن أَرادَ وِقايَتَهُ ببديعِ مَصنوعاتِه، كما جَعَلَ الغارَ له بمنزلةِ الحِصْنِ الحَصِينِ، وصيَّرَ نَسْجَ العنكبوتِ في قوَّةِ الدِّرعِ الـمَتين.

رُوِيَ عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم يُحْرَسُ، حتَّى نَزَلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأَخْرجَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم رأسَهُ مِن القُبَّةِ وقال: «يا أيُّها النَّاسُ! انْصَرِفوا فقد عَصَمَني ربِّي»(١).

والمعنى: أنَّ العِصْمةَ أوَّلاً كانَتْ بواسطةِ الحِجَاب، ولَـمَّا ارْتَفَعَ الحِجابُ حُفِظَ بربِّ الأرباب.

وفي البيتِ إيماءٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية [التوبة: ٤٠]، وإشارةٌ إلى قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

٨٠ـ ماسامَني الدَّهرُ ضَيماً واسْتَجَرْتُ به ... إلَّا ونِلْتُ جِواراً منهُ لَمْ يُضَمِ

السَّوْمُ: إذاقةُ الشِّدَّةِ والمِحْنةِ، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩].

وفي نسخةٍ: (ما ضَامَني) مِن الضَّيْم، وهو الظُّلْمُ.

والنِّسبةُ إلى الدَّهرِ الذي هو مُطْلَقُ الزَّمانِ مَجَازِيَّةٌ عُرْفِيَّةٌ، والأحسنُ أنْ يُقدَّرَ مُضافٌ؛ أي: خالِقُ الدَّهرِ ومُقَلِّبُهُ ومُصَرِّفُهُ. و(ضَيماً) مفعولٌ ثانٍ على نُسخةِ السِّينِ، ومفعولٌ مُطْلَقٌ على نُسخةِ الضَّاد، وفي نسخةٍ: (يوماً) منصوبٌ على الظَّرْفيَّة.

(١) رواه الترمذي (٣٠٤٦) من حديث عائشة رضيَ اللهُ عنها، وقال: حديث غريب. وأشار إلى أنه روي مرسلاً دون ذكر عائشة رضيَ اللهُ عنها.

و(اسْتَجَرْتُ) عطفٌ على (سامَني)، والاسْتِجارَةُ: طَلَبُ الجِوَار، وهو المُهْلَةُ والخَلَاص، وقيل: الالْتِجاءُ والالْتِيَاذُ وطَلَبُ المَنَاص.

وقيل: (اسْتَجَرْتُ) حالٌ بتقديرِ: قد، وهو الأظهَرُ.

والاستثناءُ مُفرَّغٌ، والضَّميرُ في (بـه) راجعٌ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، و(نِلْتُ) بكسرِ النُّونِ مِن نالَهُ يَنالُهُ: إذا وَصَلَ إلى مُرادِهِ وحَصَّلَ مُنَاهُ ومَقْصودَهُ.

والجِوَارُ بكسرِ الجيمِ: المُجاوَرَةُ أو المُحافَظَةُ، والضَّميرُ في (مِنْهُ) للضَّيْمِ المدلولِ عليه بـ(ضَامَ) إنْ أُرِيدَ بالجِوَارِ الخَلَاصُ، وبـ(خيرِ البَرِيَّة) إنْ أُرِيدَ به طَلَبُ المَنَاص.

و(لَمْ يُضَمِ) مَبْنِيٌّ للمفعولِ.

ثُمَّ هذا البيتُ وما بعدَهُ وَقَعَ في بعضِ النُّسَخِ قبلَ قولِهِ: (خَدَمْتُه بمديحٍ) في آخِرِ القصيدةِ.

والمعنى: ما أَذَاقَني اللهُ تعالى في الزَّمانِ ضَرَراً مِن أمورِ الأكوانِ، وفي[1] وقتٍ مِن الأوقات، وساعةٍ مِن السَّاعات، والحالُ أنِّي قد الْتَجَأْتُ إليه، أو أَحَلْتُ الخَلاصَ عليه، إلَّا وقد نِلْتُ منهُ خلاصاً، ووجدْتُ فيه مَنَاصاً، لَمْ يُغْلَبْ ولَمْ يُظْلَمْ، أو لَمْ يُحْقَرْ بل يُحْتَرَم.

٨١ـ ولا الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَدِهِ إلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِن خيرِ مُسْتَلَمِ

(المُسْتَلَم) بفتحِ اللَّامِ اسمُ مكانٍ أو مفعولٍ؛ أي: ما طَلَبْتُ غِنَى الدُّنيا بالكفايةِ وغِنَى العُقْبَى بالسَّلامةِ مِن إحسانِهِ وامْتِنانِهِ، إلَّا أَخَذْتُ العطاءَ ونِلْتُ المُنَى مِن خيرِ مستلَمٍ منهُ ومطلوبٍ عنهُ.

وحاصلُ البيتينِ: أنَّ دَفْعَ الضَّررِ الصُّوريِّ والمعنويِّ، وجَلْبَ النَّفْعِ الدِّينيِّ

---

(١) في «د»: «في».

والدُّنيويِّ، حاصلٌ بالتَّمَسُّكِ إلى جَنَابِهِ، وواصِلٌ بالوقوفِ على عَتَبةِ بابه(١).

٨٢ ـ لا تُنكرِ الوحيَ مِن رُؤْياهُ إنَّ لهُ قَلْباً إذا نامَتِ العينانِ لَمْ يَنَمِ

(لَمْ يَنَم) بفتحِ النُّون، وفي نُسخةٍ (مَتَى) مكانَ (إذا)؛ أي: لا تُنْكِرْ أيُّها الـمُنْكِرُ، ولا تَسْتَغرِبْ أيُّها المُقِرُّ، الوَحْيَ الرَّبَّانيَّ والإلهامَ الصَّمَدانيَّ الحاصِلَ مِن رؤياهُ في المنام؛ لأنَّ لهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قلباً عظيماً وصَدْراً كريماً إذا نامَتْ عيناهُ لَمْ يَنَمْ قلبُه في رُؤْياهُ، وفي «الصَّحيحينِ»: أنَّه ﷺ قال: «إنَّ عَيْنَيَّ تنامانِ ولا يَنامُ قَلْبي»(٢).

٨٣ ـ وذاكَ حينَ بلوغٍ مِن نُبُوَّتهِ فليسَ يُنْكَرُ فيهِ حالُ مُحْتَلِمِ

يُقرأُ البيتُ بإشباعِ هاءِ (فيهِ) والضَّميرُ راجِعٌ إلى (حين البُلوغ).

والمحتلَمُ بفتحِ اللَّام مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الاحْتِلَام، كذا قيل، والأظهرُ أنَّهُ بكسرِ اللَّام بمعنى: بالِغ.

يعني: وذلك الوحيُ المعظَّمُ والحالُ المكرَّمُ كان في ابتداءِ أمرِ نبوَّتهِ وفي بدءِ بدوِّ رسالتهِ، وقد نُبِّئ على رأسِ أربعينَ سنةً، وهو حَدُّ مبدأ النُّبوَّةِ، فليس يُنكَرُ في ذلكَ الزَّمانِ وبلوغِ ذلك الأوَانِ حالُ بالغ مبلَغَ الرِّجالِ، موصوفٍ بأوصافِ الكَمال، مِن دَعْوَى الوَحي في المنام، فإنَّه مِن مقدِّماتِ وحيِ النبيِّ عليهِ السَّلام.

وفي «شرح السنة»: أنَّ مِن جُملةِ أيَّامِ الوَحيِ ـ وهو ثلاثةٌ وعشرونَ سنةً ـ كان

---

(١) الالتجاء والاستجارة إنما يكونان إلى الله، كما أن التماس الغنى لا يكون إلا منه سبحانه، وحاشا لرسول الله أن يقبل من عبد أن يلتجئ إليه أو يطلب منه شيئاً من هذه الأمور التي هي من خصائص العلي القدير سبحانه وتعالى، وفي البيتين مخالفة لقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولحديث: «وإذا استعنت فاستعن بالله»، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧].

(٢) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨)، من حديث عائشة رضِيَ اللهُ عنها.

ستَّةُ أشهرٍ في المَنام، وبهذا فُسِّر قولُه ﷺ: «رؤيا المؤمن جزءٌ مِن ستَّةٍ وأربعينَ جُزءاً مِن النُّبوة»(١).

٨٤ـ تَبارَكَ اللهُ ما وحيٌ بمُكْتَسَبٍ ولا نبيٌّ على غيبٍ بمُتَّهَمِ

(مُكتَسَب) و(متَّهم) صِيغتَا مجهولٍ.

يعني: تكاثَرَ خيرُه ودامَ نفعُه، أو تعالَى وتعظَّمَ كبرياؤه، وهذا إنشاءٌ للتعجُّبِ؛ أي: سبحانهُ ليسَ وحيُه حاصِلٌ باكتِسابِ الأعمالِ، ولا بتحسينِ الأخلاقِ والأحوال، بل مَحضُ موهبةٍ، ومجرَّدُ عطيَّةٍ، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولا يوجدُ نبيٌّ ثَبَتَتْ نبوَّتُه وتحقَّقَتْ معجزتُه متَّهماً على ما يأتي من المغيَّباتِ وإخبارِ أمورِ الكائنات، قال الله تعالى: ﴿وَما هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِظَنينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] على قراءة الظاء المشالة(٢)؛ أي: بمتَّهمٍ.

٨٥ـ كَمْ أَبْرأَتْ وَصَباً باللَّمْسِ راحتُه وأَطْلَقَتْ أَرَباً عن رِبْقَةِ اللمَمِ

(كم) خبريَّةٌ، و(الوَصَب) بفتحتين: الألمُ والتَّعبُ، وفي نسخةٍ بكسرِ الصَّاد؛ أي: المريض، وهو أوضحُ.

والراحةُ: الكفُّ، أو باطنُه.

والإطلاق ضدُّ التَّقييدِ، و(الأَرَبُ) بفتحتين: الحاجةُ، وفي نسخةٍ بكسرِ الرَّاء؛ أي: صاحبَ الحاجةِ، وهو أظهرُ معنًى.

---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٢/ ٢٠٤). والحديث رواه البخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤)، من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه. ورواه البخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عَمْرو والكسائي: ﴿بظنين﴾ بالظاء، وقرأ نافع وعاصِم وابن عامر وحَمْزَة: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص ٦٧٣).

والرِّبْقَةُ بالكسرِ: حبلٌ لـهُ عقدةٌ يُشدُّ بهِ التَّمائمُ، و(اللَّمَم) بفتحتين: صغارُ الذُّنوبِ، وطَرَفٌ مِن الجنون؛ لأنَّ الجنونَ فُنون.

يعني: كثيراً مِن الآلامِ، أو ذَوِي الأسْقامِ، حَصَلتْ لهمُ الرَّاحةُ مِن الألَمِ والسَّقَمِ، ببركةِ راحتهِ الأكْرَمِ، وكَفِّهِ الأفْخَمِ، وكَمْ أَخْلَصتْ أربابَ الحاجاتِ عن عقدةِ عُقودِ السَّيِّئات: إمَّا بالتَّوبةِ الماحِيَةِ عن العُقوبات، وإمَّا بالشَّفاعةِ الباعِثةِ على رِفْعةِ الدَّرجات.

أو: كَمْ أَرْسَلَتْ أربابَ الجنونِ الظَّاهِرِيِّ أو الباطِنِيِّ عن عُروةِ جُنونِهم، وعن ظُلْمةِ فُنونِهم، وجَعَلَهم مَجاذيبَ متوجِّهينَ إلى المَحَاريب.

رُوِيَ: أنَّ امرأةً أتتِ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم بابنٍ لها بهِ جنونٌ، فمسحَ بيدِهِ المبارَكةِ صدرَه فثَعَّ ثَعَّةً ـ بالمثلَّثةِ والمهمَلةِ؛ أي: قاءَ قيئةً ـ فخرجَ مِن جوفهِ مِثْلُ الجروِ الأَسْودِ[1].

وكان في كفِّ شُرحبيلَ الجُعْفيِّ سِلْعةٌ ـ بكسرِ السِّينِ؛ أي: زيادةُ لحمٍ ـ تمنعُه مِن القَبْضِ على السَّيفِ وعلى عِنَانِ الدَّابَّةِ، فَطَفَها صلى الله تعالى عليه وسلم بيدِهِ المبارَكةِ، فذَهَبتْ ولَمْ يَبْقَ لها أثرٌ[2]. ذكَرهُ صاحبُ «الشِّفا» وغيرُه مع وقائعَ كثيرةٍ[3].

٨٦ ـ وأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْباءَ دَعْوَتُهُ حتَّى حَكَتْ غُرَّةً في الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٥٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٤٦٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢): رواه أحمد والطبراني، وفيه فرقدٌ السَّبخي وثقه ابن معين والعجلي وضعفه غيرهما.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢١٥) من طريق مخلد بن عقبة بن عبد الرحمن بن شرحبيل الجعفي، عن جده عبد الرحمن، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وبكفي سلعة...، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٩٨): رواه الطبراني، ومخلد ومن فوقه لم أعرفهم، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٣) انظر: «الشفا» (١/ ٢٤٢).

في «القاموس»: الشَّهَبُ محرَّكةً: بياضٌ يَصْدَعُه سوادٌ؛ كالشُّهْبةِ بالضمِّ، وسَنَةٌ شَهْباءُ: لا خُضرةَ فيها، أو لا مَطَرَ.

و(الغُرَّةُ) بالضَّمِّ: بياضٌ في الجَبْهةِ.

و(الأَعْصُر): جمعُ عَصْرٍ، وهو الزَّمانُ، و(الدُّهُم) بضمَّتين: جمعُ أَدْهَمَ، وهو الأَسْوَدُ.

ونِسبتُهُ الإحياءَ إلى الدَّعوةِ مَجازِيَّةٌ سَببيَّةٌ، يعني: أَحْيَتْ دعوتهُ الـمُباركةُ بالسُّقْيا السَّنَةَ التي كانَتْ مَيِّتةً ويابسةً أرضُها لقلَّةِ المطر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ أي: سَنَةَ القَحْطِ التي هي شَهْباءُ لغَلَبةِ بياضِ الأرضِ فيها بعَدَمِ النَّباتِ على سَوادِها بالنَّباتِ، فهي بالنِّسبةِ إلى البياضِ مَيِّتةٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزقَ قد يَقِلُّ لكنْ لا يُعْدَمُ بالكلِّيَّةِ، إلى أنْ شابَهَتْ تلك السَّنَةُ بياضاً واضِحاً في جَبينها، وضياءً لامحاً في أوَّلِ حِينها، مستعارٌ مِن غُرَّةِ الفَرَسِ في الأَزْمنةِ السُّودِ لشدَّةِ خُضرةِ الزَّرعِ فيها حتَّى يُرى أسودَ مِن كثرةِ الزَّرعِ بها، يعني: تلك السَّنةُ أخصبُ منها حتَّى كأنَّها غُرَّةٌ فيها، وغُرَّةُ كلِّ شيءٍ: أَحْسَنُهُ وأَيْـمَنُه.

وقيل: المرادُ بالأَعْصُرِ الدُّهُمِ: أَزْمِنَةُ القَحطِ والغَلَاء.

٨٧ـ بعارِضٍ جادَ أو خِلْتَ البِطاحَ بها سَيْباً مِـن اليَـمِّ أو سَيْلاً مِـن العَـرِمِ

العارِضُ: السَّحَابُ، والباءُ مُتعلِّقٌ بـ (أَحْيَتْ) أو (دَعْوتُه) أو (حَكَتْ).

و(جادَ) مِن الجَودِ بفتحِ الجيمِ، وهو إكثارُ المطرِ، وقيل: مِن الجُودِ بالضَّمِّ.

و(أو) بمعنَى: إلى أَنْ. و(خِلْتَ) بكَسرِ الخاءِ مِن الخَـيَالِ وهو الظَّنُّ والحُسبانُ.

و(البِطَاح): جمـعُ أَبْطَـحَ أو بَطْحـاءَ، وهو الـوادي المتَّسِـعُ الـمُشْتَمِلُ على البَطْحـاءِ، وهـي الحَصْبـاءُ، وضميـرُ (بها) راجـعٌ إلى (السَّـنَة الشَّـهْباء).

و(سَيباً)؛ أي: عطاءً؛ أي: ماءً جارياً، وهو منصوبٌ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ(خِلْتَ)، ورُوِيَ بالرَّفْعِ على أنَّه مبتدأٌ و(بها) خبرُه، والجملةُ في محلِّ النَّصبِ مفعولٌ ثانٍ له.

والمعنى: أَحْيَتْ دَعوتُه الأرضَ الميتةَ بسببِ عُرُوضِ سحابٍ أَكْثَرَ المطرَ ـ أو جادَ بالمطرِ ـ إلى أنْ ظَنَنْتَ أَيُّها المخاطَبُ وحَسِبْتَ الأوديَةَ المتَّسِعةَ في تلك السَّنةِ عطاءً وافياً وماءً جارياً مِن البحرِ لكثرتِهِ، أو سَيلاً سارياً مِن الوادي المنكسِرِ سَدُّه لقوَّتِه.

وفيه تنبيهٌ نبيهٌ على أنَّ لدَعوةِ نبيِّه صلى الله تعالى عليه وسلم تأثيراً في ملكوتِ سمائِهِ وأرضِهِ، رَوَى الشَّيخانِ عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رجلاً دَخَلَ المسجدَ يومَ الجمعةِ ورسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم قائمٌ يَخْطُبُ، فقال: يا رسولَ الله! هَلَكتِ الأموالُ وانْقَطَعتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ يُغيثُنا، فرفَعَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يَدَيْهِ فقال: «اللهمَّ أَغِثْنا» ثلاثاً، وما نَرَى في السَّماءِ مِن سَحَابٍ ولا قَزعةٍ، فطَلَعَتْ سَحابةٌ ثُمَّ أَمْطرتْ، واللهِ ما رَأَينا الشَّمسَ سَبْتاً. ثُمَّ دَخَلَ رجلٌ مِن الجُمعةِ المقبِلةِ ورسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم قائمٌ يخطُبُ، فقال: يا رسولَ الله! هَلَكتِ الأموالُ وانْقطَعتِ السُّبُلُ، فادْعُ اللهَ أنْ يُمسِكَها عنها، فرفعَ يديهِ ثُمَّ قال: «اللهمَّ حَوَالَيْنا ولا عَلَيْنا...» إلى آخره، فأَقْلعتْ وخَرَجْنا نمشِي، وسُئل أنسٌ رضِيَ اللهُ عنه: أهو الرجلُ الأوَّلُ؟ فقال: لا أَدْرِي[1].

وقولـه: (سَبْتاً) بموحَّدةٍ بينَ السِّينِ والتَّاءِ؛ أي: قِطْعةً مِن الزَّمانِ، وفي روايةٍ للبخاريِّ: فما زِلْنا نُمْطَرُ إلى الجمعةِ القابِلةِ[2].

و(القَزَعة) بفتحِ القافِ والزَّاي: قطعةُ سحابٍ، كذا ذَكَرهُ الـمَحَلِّيُّ.

والأنسبُ بالرِّوايةِ الأخيرةِ للبخاريِّ أنْ يُفسَّرَ السَّبْتُ بالأسبوعِ مِن السَّبْتِ

(١) رواه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧)، من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) رواه البخاري (١٠١٥).

إلى السَّبْتِ كما ذَكَرهُ صاحبُ «النِّهايةِ»، ثُمَّ قال: وقيل: أراد مدَّةً مِن الزَّمانِ قليلةً كانتْ أو كثيرةً(١).

٨٨ ـ دَعْنِي ووَصْفِي آياتٍ لهُ ظَهَرتْ ظُهورَ نارِ القِرَى ليلاً عَلَى عَلَمِ

(القِرَى) بكسرِ القافِ: الضِّيافةُ، و(العَلَم) بفَتْحتينِ: الجَبَل.

ويُقرأُ البيتُ بفتحِ ياءِ الإضافةِ في (وَصْفِي)، والواوُ بمعنَى: مع؛ لأنَّ عَطْفَه على الضَّميرِ المنصوبِ يُخِلُّ بالمقصودِ والمطلوب.

والمعنى: اتْرُكْني أيُّها النَّاصِحُ لي بالاخْتِصارِ في الكلامِ؛ لأنَّه يَنجرُّ إلى الملالِ والسَّآمِ، فإنَّ ذِكْرَ الحبيبِ لا يَشْبعُ منه اللَّبيب، فخَلِّني مع وَصْفي لهُ صلى الله تعالى عليه وسلم بآياتٍ بيِّناتٍ، وعلاماتٍ واضحاتٍ، ومعجزاتٍ لائحاتٍ، ظَهَرتْ ظهوراً بيِّناً في الآفاق، في وقتِ ظُلْمةِ الجهلِ بمحاسِنِ الأخلاق، مِثْلَ شعاعِ نارِ الضِّيَافةِ على رُؤوسِ الجبل؛ للعَلَامةِ في اللَّيلِ الذي هو أدْهَى للويلِ؛ لحضورِ المحتاجِينَ ووصولِ المُشتاقِين مِن المُسافرينَ والمُجاوِرِين.

والحاصلُ: أنَّ الآياتِ القُرْآنيَّة، والدَّلالاتِ الفُرْقانيَّة، ظَهَرتْ وقتَ شدَّةِ الاحْتِيَاجِ إليها، وعَلَتْ عُلُوًّا لا يُمكنُ الارْتفاعُ عليها.

٨٩ ـ فالدُّرُّ يَزْدادُ حُسْناً وَهْوَ مُنْتَظِمٌ وليسَ يَنْقُصُ قَدْراً غَيْرَ مُنْتَظِمِ

(حُسْناً) و(قَدْراً) تَمييزانِ، و(يَنْقُصُ) رُوِيَ مَعْلوماً ومَجْهولاً، و(غيرَ مُنْتَظِم) حالٌ، والفاءُ للتَّعليل.

يعني: أنَّ أوصافَ جَمالِهِ وأسبابَ كمالِهِ في غايةِ الاشْتِهَار، كما وَرَدَ في الأخبارِ والآثار، وإنَّما نَظَمْتُ بعضَها في سِلْكِ النَّظْمِ؛ لأنَّه أَضْبَطُ وأَحْفَظُ وأقربُ إلى الفَهْمِ،

---

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: سبت).

كما أنَّ الدُّرَّ وهو اللُّؤْلُؤُ المعلومُ يَزيدُ حُسْنُه في حالِهِ الـمَنْظوم، ولا ينقصُ قَدْرُه حالَ كونِهِ مَنْشوراً عند أربابِ العُلُوم.

٩٠ ـ فما تَطَاوُلُ آمالِ الـمَدِيحِ إلى ... مـا فيـهِ مِـن كَـرَمِ الأخـلاقِ والشِّـيَمِ

تَطَاوَلَ إليه: مَدَّ عُنقَهُ مُريداً للاطِّلاعِ عليه، والآمالُ: جمعُ الأَمَلِ، وهو الرَّجاءُ، وهو مُضافٌ إلى (المَدِيحِ) وهو اسمٌ لِـمَا يُمْدَحُ به.

وقيل: بمعنى الممدوحِ، واللَّامُ للعَهْدِ أو الاسْتِغراقِ، وهو أَوْلَى.

وفي نسخةٍ: (آمَالي) بياءِ المتكلِّمِ ونَصْبِ (المديحَ) بنزعِ الخافِضِ.

والأخـلاقُ الكريمةُ: هي الخِصَالُ الكَسْـبيَّةُ أو الطَّبيعيَّةُ، والشِّـيَمُ الـمَرْضيَّةُ: هي الأحـوالُ الوَهْبيَّةُ.

قيـل: (مـا) الأُولَـى اسـتفهاميَّةٌ بمعنَـى النَّفْـي، ولا بـدَّ مِـن تقديـرٍ؛ أي: فـإنَّ تطـاولَ آمالـي بالمديـحِ إلى صفاتـهِ الحَسَـنةِ، لا أَصِـلُ إلى بيـانِ جميعِهـا وإنْ طالَ عُمـري ألفَ سـنةٍ.

وقيل: (ما) نافيَةٌ[1]، والفاءُ للتَّعليلِ.

وقيل: (ما) موصولةٌ، والفاءُ للعطفِ على (وَصْفي).

وحاصلُ المعنَى: إنِّي إنَّما انْتَقلْتُ مِن الاشتِغالِ عن وصفِ حالاتِهِ إلى وصفِ آياتِهِ ومُعْجزاتِهِ؛ لأنَّ الآمالَ لا تتطاوَلُ إلى أوصافِهِ البهيَّةِ وأخلاقِهِ السَّنِيَّة، فأَرَدْتُ أنْ أَتَشرَّفَ بوصفِ الآياتِ البيِّناتِ وأَرْتَشِحَ مِن بحرِ لطائفِها برَشَحاتٍ فائِضات، فما لا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ كُلُّه، ودَرْكُ بعضِ الخيرِ خَيْرٌ مِن تركِ الكُلِّ.

---

(١) فـإن كانـت نافيـة كان الأَوْلَـى جعلُ (تَطَـاوَلُ) فعـلًا مضارعاً محـذوف التـاء مفتوح الـواو، أما في الاسـتفهامية فتكـون بضـم الـواو ورفع الـلام ـ وكذا ضبطـت في «ل»، ولـم تضبط فـي «د» ـ على أنهـا اسـم هو خبـر (مـا) الاسـتفهامية التي هي فـي محل رفـع علـى الابتداء.

٩١ ـ آياتُ حقٍّ مِن الرَّحْمنِ مُحْدَثةٌ قَدِيمـةٌ صفـةُ المَوصـوفِ بالقِـدَمِ

(آيـاتُ حَـقٍّ) إمَّـا مرفـوعٌ علـى أنَّـه مبتـدأٌ، و(مِـن الرَّحمـنِ) صفـةٌ، والخبرُ (مُحْدثـةٌ قَديمـةٌ)، أو علـى أنَّـهُ خبـرُ مبتـدأ محـذوفٍ؛ أي: هـي، يعنـي: الآيـاتُ الموصوفـةُ، والبَوَاقـي أخبـارٌ مُترادِفـةٌ، أو صفـاتٌ مُتلاصِقـةٌ.

وإمَّا منصوبٌ على أنَّه عَطْفُ بيانٍ لـ (آياتِ) في قوله: (دَعْني وَوَصْفي آياتٍ)، أو على المدحِ، وكذلك (مُحْدَثةً) و(قَديمةً)، و(صِفَةَ الموصوف). وفي نسخةٍ: (مُحْكَمَة) بدل (مُحْدثَة).

ثُمَّ الحقُّ صِفةٌ مُشبَّهةٌ؛ أي: آياتٌ ثابتةٌ وصادقةٌ، و(صَفةُ الموصوف) مبتدأٌ، و(قديمةٌ) خبرُه، كذا قالوا، والأظهرُ أنَّ (صفةُ الموصوفِ) خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو: هي؛ أي: هذه الآياتُ.

والمعنى: إنَّ الآياتِ القرآنيَّةَ والكمَالاتِ الفُرْقانيَّةَ آياتٌ ثابتةٌ، ومعجزاتٌ صادقةٌ، نازلةٌ مِن الرَّحمنِ، بمقتضَى الرَّحْمانيَّة على أفرادِ الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، وهي (مُحْدَثةٌ)؛ أي: نزولُها (قديمةٌ) وجودُها وحُصولُها، أو: مُحدثةٌ لفظاً قديمةٌ معنًى، وهي صفةُ الموصوفِ بالقِدَمِ، فلا يَجْري عليها سِمَةُ العَدَم.

وفيهِ ردٌّ على المعتزِلةِ حيثُ قالوا بحدوثِ كلامِ اللهِ القديمِ، وعلى الحَنابِلَةِ حيث قالوا بِقِدَمِ ألفاظِهِ، بل تفوَّهوا بِقِدَمِ كتابتِهِ ومِدَادِهِ وأوراقِهِ، وهو في غايةٍ مِن السَّخافة، الظَّاهِرِ بطلانُه على طريقِ البَدَاهَة، لِـمَن لَمْ يكنْ مِن أهلِ البَلاهة، فأهلُ التَّحقيقِ في المسألةِ على مَذْهَبَين:

أحدُهما: أنَّ القرآنَ هو الكلامُ النَّفْسيُّ، وإطلاقهُ على المركَّبِ مِن الأصواتِ

والحروفِ مَجَازٌ، وهو مذهبُ قُدماءِ المشايخِ، ولهذا عرَّفوهُ بأنَّه صفةٌ تَجلَّتْ في مَظْهرِ الحروفِ والأصواتِ، فباعْتِبارِ الـمَظهَرِ حادثٌ، وباعتبارِ صفةِ الـمَظهرِ قديمٌ.

وثانِيْهِما: أنَّه يُطلَقُ عليهما بالاشتراك، وهو بالمعنَى الأوَّلِ قديمٌ، وبالمعنَى الثَّاني حادثٌ، وهذا هو المشهورُ، والمذهبُ المنصورُ، وتمامُ التَّفصيلِ يُفْضِي إلى التَّطويل.

٩٢ ـ لَـمْ تَقْتَـرِنْ بزمـانٍ وهـي تُخْبِرُنا عـن المَعَـادِ وعـن عـادٍ وعـن إِرَمِ

يعني: لَمْ تَقْتَرِنِ الآياتُ القديمةُ والبيِّناتُ الكريمةُ بزمانٍ مِن الأزْمِنةِ، وحالٍ مِن الأحوالِ؛ مِن الماضي والحالِ والاسْتِقبال؛ لأنَّه يَلْزمُ مِن الاقْتِرانِ إمَّا حُدوثُ الآياتِ أو قِدَمُ الزَّمان، وهما خلافُ ذَوقِ أهلِ العِرْفان، والحالُ أنَّها تُخْبِرُنا عن أمورِ الـمَعادِ، وهو عَوْدُ الخَلْقِ بعدَ موتهِ يومَ التَّلَاقِ والتَّناد، وعن أمورِ الـمَبَادي، وهو المرادُ بقولهِ: (وعن عادٍ)؛ أي: وعن نحوِ قصَّةِ عادٍ الأُولَى وهم قومُ هودٍ، وعن الثانيةِ وهي عادُ إِرَمَ، وأمثالهِ مِن نحوِ قومِ نوحٍ وثمودَ.

والمقصودُ: أنَّ الماضَوِيَّةَ والاستِقْباليَّةَ المفهوميَّةَ مِن المعاني القُرآنيةِ إنَّما هي بالإضافةِ إلينا، وإلَّا فالكلامُ النَّفْسيُّ مبرَّأٌ عن الحدوثِ كما هو مُقرَّرٌ لدينا.

وأيضاً فيه: أنَّ الآياتِ كما أنَّها بألفاظِها مُعجِزةٌ، كذلك باعتبارِ مَعَانِيها مِن حيثُ الإخبارُ عن الأمورِ الكائنةِ في الأَزْمِنَة.

٩٣ ـ دامَتْ لَدَيْنَا ففَاقَتْ كلَّ مُعجزةٍ مِـن النَّبيِّـنَ إذْ جـاءَتْ ولَـمْ تَـدُمِ

ضميرُ (جاءَتْ) راجِعٌ إلى (كلَّ معجزةٍ) وهو اكْتَسَى التَّأنيثَ مِن المضافِ إليهِ.

يعني: دامَتْ واسْتمرَّتِ الآياتُ القرآنيَّةُ والمعجزاتُ الفُرْقانيَّةُ، فصارَتْ فائقةً بسببِ وَصْفِ القِدَم، وإخبارِ مَعَادِ عادٍ وإرَم، وعَدَمِ عُروضِ النَّسخِ والتَّبديلِ الذي في حُكْمِ العَدَم، على كلِّ مُعجزةٍ حاصلةٍ مِن النَّبيِّين ولو مِن نبيِّنا، إذ جاءتْ وحَدَثتِ

المعجزةُ، فلا تكونُ قديمةً بصفةٍ موصوفةٍ، ولَمْ تَدُمْ، فإنَّ مُعجزةَ كلِّ نبيٍّ تَنْقَضي بموتِهِ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ أي: مِن التَّغييرِ والتَّبديلِ، والنَّسخِ والتَّحْويل.

والحاصلُ: أنَّ الآياتِ قديمةٌ ثابتَةٌ، ومعجزةٌ مستمرَّةٌ دائمَةٌ، بخلافِ غيرِها مِن المعجزات.

٩٤ ـ مُحَكَّماتٌ فما يُبْقِيْنَ مِن شُبَهٍ ... لِذِي شِقَاقٍ ولا يَبْغِيْنَ مِن حَكَمِ

(يُبْقِيْنَ) بضمِّ الياءِ، و(يَبْغيْنَ) بفتحِها، و(شُبَهٍ): جمع شُبْهةٍ، وهي باطلةٌ تُشْبِهُ الحقَّ.

و(الشِّقَاق) بالكسرِ هو[1] الخِلَافُ؛ لأنَّ كلًّا مِن المخالِفَينِ يكونُ في شِقٍّ، أو يريدُ مَشَقَّةَ الآخَرِ.

و(الحَكَم) بفتحتينِ، وهو الحاكِمُ، وقيل: بكسرٍ وفتحٍ: جمعُ حِكْمةٍ.

و(محكَّماتٌ) بالتشديدِ مبالغةُ: مُحْكَمات، ويؤيِّدُه روايةُ: (ومُحْكَماتٌ) بالواوِ مع التَّخفيف، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]، أو التقديرُ: مِن الآياتِ مُحْكَماتٌ، فيكونُ إشارةً إلى قولِهِ تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، وهذا المعنى أَوْفَقُ، وبالسِّياقِ أَلْصَق.

والمعنى: أنَّ الآياتِ جَعَلَها اللهُ تعالى مُحْكَمةً لا تُنْسَخُ ولا تُبدَّلُ، أو جَعَلَها مشتمِلةً على حِكَمٍ ومُثُلٍ، أو جَعَلَها ذاتَ حُكْمٍ، فتَحْكُمُ على كلِّ مُجمَلٍ، أو حاكمةً على غيرِه مِن الكتبِ السَّماويَّة، والسُّننِ النَّبويَّة، والأَقْيسةِ العَقْليَّة، والاتِّفاقاتِ الإجْماعيَّة، أو تَدُلُّ على الحقِّ والباطلِ، أو تَحْكُمُ بالحُرمةِ والحِلِّ،

(١) في «د»: «وهو».

(فما يُبْقِيَن) ولا يُخلِّينَ تلك الآياتُ شُبْهةً مِن الشُّبُهات لذي خلافٍ للحقِّ من الخلافيَّات، (ولا يَبْغِينَ)[1]: ولا يَطْلُبْنَ حاكماً يَحْكُمُ بغيرِها عليها؛ لظهور براهينِها، أو حِكَماً زائدةً[2] يُحْتاجُ إليها؛ لوضوحِ قوانينها.

٩٥ـ ما حُورِبَتْ قطُّ إلَّا عادَ مِن حَرَبِ أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْها مُلْقِيَ السَّلَمِ

(حُورِبَتْ) مجهولُ حارَبَتْ، مِن المحارَبةِ بمعنَى المُعارَضةِ، والحَرَبُ بفتحتَيْنِ: الشِّدَّةُ، وحقيقتُه: سَلْبُ المالِ، ويَلْزمُ المسلوبَ منهُ الشِّدَّةُ، وقيل: إنَّهُ لغةٌ في الحَرْبِ.

و(السَّلَم) بفتحتينِ: الاسْتِسْلامُ والانْقِيَادُ والصُّلْحُ.

و(الأَعَادِي): جمعُ الأعداءِ، جمع العَدُوِّ، و(أَعْدَى) أَفْعَلُ تَفْضيلٍ مِن العَدَاوةِ.

يعني: ما عارَضَ الآياتِ أحدٌ قطُّ إلَّا وقد رَجَعَ مِن مُعارَضَتِها لأَجْلِ كمالِ بَلَاغتِها وفصاحَتِها أكبرُ المُعارِضِينَ وأَقْوَى المعانِدِينَ حالَ كونِهِ مُلْقياً آلَةَ المعارَضة، ومُلْغياً حالَةَ[3] المعانَدة، ومُسلِّماً لها ظهورَ المعجِزة، وخَرْقَ العادَة.

ثُمَّ اعْتِراءُ الرَّوعةِ للمُعارِضِين، وعَجْزُ مُعارَضةِ المُعانِدِين: هل هو بخُروجِهِ عن مَقْدورِ البَشَرِ لاشْتِمالِهِ على جزالةِ الألفاظِ وحُسْنِ المعاني مِن كمالِ الفصاحةِ وكونِهِ على أَعْلَى طبقاتِ البلاغةِ فيكونَ كإحياءِ الموتَى وقلبِ العَصَا وتسبيحِ الحَصَى، أو هو الصَّرفةُ وأنَّ المعارَضةَ كانَتْ في مقدورِهِمْ؟

ففيهِ اختِلافُ أئمَّةِ أهلِ السُّنَّةِ، والجمهورُ على الأوَّل، وعليه المعوَّلُ، والثاني مذهبُ الشَّيخِ أبي الحسنِ الأشعريِّ وجماعةٍ مِن أصحابِهِ، وقد ردَّه الشَّاطبيُّ في «الرَّائيَّة».

---

(١) بعدها في «د»: «وفي نسخة: وما يبقين».

(٢) في «د»: «زائداً».

(٣) في «ل»: «وملقياً حال».

وعلى القولينِ قد تَرَكَ العربُ المعارَضةَ بما هو في مَقْدورِهم، أو ما هو مِن جِنْسِ مَقْدورِهم[١]؛ لعَجْزِهم عن الإتْيانِ بمثْلِه، وإلَّا لَمَا رَضُوا في البلادِ بالبَلَاءِ والجَلَاءِ والسِّباءِ والإذلال، والتَّقريعِ والتَّوبيخِ وسَلْبِ النُّفوسِ والأموال، وقد أَخْبَرَ اللهُ تعالى عن تلكَ الأحوالِ بقولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

٩٦ ـ رَدَّتْ بلاغَتُها دَعْوَى مُعَارِضِها رَدَّ الغَيُورِ يدَ الجاني عنِ الحُرَمِ

البلاغَةُ: مُطابَقةُ الكلامِ لـمُقْتضَى الحالِ، وهو أمرٌ يُوْجِبُ أنْ يَتكلَّمَ المتكلِّمُ بكيفيَّةٍ مخصوصةٍ. وعارَضَ الشَّيءَ: قابَلَهُ به، وساواهُ إيَّاهُ، و(الحُرَم): جمعُ حُرْمةٍ؛ كغُرَفٍ وغُرْفةٍ، وهي ما تكونُ في حَريمِ الرَّجلِ.

وفي المِصْراعِ الأوَّلِ إيماءٌ إلى قولِ الجمهورِ، وفي الثَّاني إشعارٌ إلى قولِ غيرِهم، ففيهِ دَلَالةٌ على أنَّه لا مانعَ مِن القولِ بأنَّ هناكَ وجوهٌ للإعجاز، كما هو مُقرَّرٌ في مَحلِّه.

يعني: رَدَّتْ ودَفَعتْ بلاغةُ الآياتِ القرآنيَّة، وفَصَاحةُ الكلماتِ الفُرْقانيَّة، دَعْوَى مُعارِضِها فَضْلاً عن ظهورِ مُعارَضَتِها ووقوعِ مُقابَلَتِها، مِثْلَ ردِّ الموصوفِ بكمالِ الغَيْرةِ والمنعوتِ بشدَّةِ الحَمِيَّةِ مدَّ يدِ الجاني، وتَصَرُّفَ الخائنِ الباغي، عن حَوْلِ حَريمِ حَرَمِه، وعن الوصولِ إلى حصولِ حُرَمِه.

٩٧ ـ لها مَعَانٍ كَمَوْجِ البحرِ في مَدَدٍ وفَوْقَ جَوْهَرِه في الحُسْنِ والقِيَمِ

---

(١) قوله: «بما هو في مَقْدورِهم، أو ما هو مِن جِنْسِ مَقْدورِهم» الفرق بينهما: تمكُّنُهم على الأول منه إلا أنهم صرفوا عنه، وعَدَمُ تَمَكُّنِهم منه على الثاني مع كونه من جنس مقدورهم. قاله المؤلف في «شرح الشفا» (١/ ٧٦٢).

(فَوْقَ) معطوفٌ على (كمَوْج) صفةِ (مَعَان) المرفوعِ بالابتدائيَّةِ، ونَصْبهُ لازمٌ على الظَّرْفيَّة، وإنْ كانَتْ مَجازِيَّة، ونحوُه في كلامِ الحَكيم: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

يعني: للآياتِ البيِّناتِ الموصوفاتِ بالمعجزاتِ مع قَطْعِ النَّظرِ عن فَصَاحَتِها وبلاغَتِها معانٍ ثابتةٌ كثيرةٌ كموجِ البحرِ في الازْدِيادِ وعَدَمِ النَّفاد، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]؛ يعني: معانيها، وبهذا يزولُ الإشكالُ القويُّ الوارِدُ مِن جهةِ القَبْليَّةِ في الآيةِ كما حَرَّرْناه في «حاشِيَةِ الجَلاَلَيْنِ»[١]، أو في النُّصرةِ والإمدادِ[٢]، فإنَّ القرآنَ يُفسِّرُ بعضُه بعضاً، كما أنَّ الموجَ يُؤيِّد بعضُه بعضاً، ولها مَعَانٍ وأحكامٌ حَسَنة، وحِكَمٌ مُسْتحسَنة، فوقَ جَوَاهرِ البحرِ مِن نحوِ اللُّؤلؤِ والمَرْجانِ في الحُسْنِ والقِيمةِ، عند أربابِ البَصيرةِ وأصحابِ الخِبْرةِ، قد عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهم.

٩٨ ـ فلا تُعَدُّ ولا تُحْصَى عَجَائِبُها ... ولا تُسَامُ على الإكثارِ بالسَّامِ

الفاءُ للنَّتيجةِ، وفي نسخةٍ: (فما تُعَدُّ)، وفي نسخةٍ: (عَجَائبُه) فالضَّميرُ للقرآنِ.

(ولا تُسَامُ) مِن السَّوْم؛ أي: لا تُقابَلُ، و(على) بمعنى: مع، ويُرْوَى: (ولا تُقَاسُ).

و(الإكثار): الإتْيانُ بالكثيرِ. و(السَّام) بفَتْحتينِ: السَّآمةُ والمَلَالةُ.

يعني: معاني الآياتِ لا تَدْخلُ تحت العدِّ، ولا تُضْبَطُ مَعانيها العَجيبةُ في حينِ الحَدِّ، وهي العِبَرُ والحِكَم، والآدابُ والشِّيَم، والمواعِظُ والبَرَاهينُ، والعَوَارِفُ والمعارِفُ، والتَّرْغيبُ والتَّرهيبُ، والوعدُ والوَعيدُ، والأحكامُ والأمثالُ، إلى غيرِ ذلك، ولا تَعْرِضُ المَلَالةُ بكثرةِ التِّلاوَة:

---

(١) في هامش «ل»: «للمصنف حاشية الجلالين».

(٢) قوله: «في النصرة والإمداد»، معطوف على قوله: «في الازدياد...».

هـو المِسْـكُ مـا كرَّرْتَـهُ يَتَضَـوَّعُ(١)

وفي الحديثِ: «إنَّ القرآنَ لا يَخْلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تَفْنَى عجائبُه، ولا تَنْقَضِي غَرائبُه، ولا تَشْبعُ منهُ العلماءُ»(٢).

وفـي البيتِ إشـارةٌ إلى تَفَوُّقِ حُسْـنِ مَعَانِيهـا على جَوَاهرِ البحرِ، حيثُ يَـمَلُّ راغِبُها بوجودِ كَثْرتِـها أو كثرةِ قيمتِها.

٩٩ - قَـرَّتْ بها عينُ قارِيْهـا فقُلْتُ لهُ　　　لقَـد ظَفِـرْتَ بحَبْـلِ اللهِ فاعْتَصِـمِ

سَكَّنَ همزةَ (قاريها) للنَّظْمِ، ثُمَّ أُبْدِلَتْ، والقِرَّةُ في الأصلِ: البُرودةُ، وهي أعزُّ الأشياءَ عندَ العربِ، ولذا يَتَمَنَّى قُرَّةَ العينِ وبَرْدَ العيشِ.

يعني: فَرِحَ بها قارِئُها حينَ قراءَتها، وزادَ نورُ عينِه برُؤْيَتِها، حيثُ تَلذَّذَ بتِلاوَتها، فقلتُ له على جهةِ الرَّغبةِ أو على طريقِ الغِبْطةِ: واللهِ لقد ظَفِرْتَ بما يُوْصِلُكَ إلى مرضاتِهِ، ويُرَقِّيكَ إلى درجاتِ جنَّاتِهِ، فاسْتَمْسِكْ بألفاظِها ومَبَانِيها، وتحقيقِ معالِـمِها ومَعَانِيها، والعملِ بأوامرِها ومَنَاهِيها.

١٠٠ - إنْ تَتْلُها خِيْفَةً مِن حرِّ نارِ لَظَى　　　أَطْفَـأْتَ نـارَ لَظَى مِـن وِرْدِها الشَّـبِمِ

(لَظَـى) مِـن أعلامِ جهنَّـمَ، أو طبقةٌ مِـن طَبَقاتها، وهي غيرُ مُنْصَـرِفٍ، وما قيل مِـن أنَّ التَّنْويـنَ للضَّـرورةِ فغَفْلـةٌ مِن مَعْرفـةِ الميـزانِ؛ إذ التَّنوينُ والألِفُ مُتسـاوِيانِ فـي الوزنِ.

(١) عجز بيت صدره كما في «تاج العروس» (مادة: ضوع):

أَعِـدْ ذِكْـرَ نُعمـانَ لنـا إنَّ ذِكْـرَهُ

(٢) رواه الترمـذي (٢٩٠٦) مـن طريـق الحـارث الأعـور الهمداني عـن علي رضِـيَ اللهُ عنـه مرفوعاً، ثـم أعلـه بقولـه: هذا حديـث لا نعرفه إلا مـن هذا الوجه، وإسـناده مجهـول، وفي الحـارث مقال.

قلـت: لكن معنـاه صحيح.

و(لَظَى) الثَّانيةُ وُضِعتْ موضعَ الضَّميرِ لئلَّا يَلْتبِسَ أو يحصلَ التَّفْكيكُ، وفي نسخةٍ: (حرَّ لَظَى) بدلَ: (نارَ لَظَى)، والثَّانيةُ أَنسبُ بالإطفاءِ كما لا يَخْفَى.

والوِرْدُ يُطْلَقُ على وِرْدِ القرآنِ وعلى وِرْدِ الماءِ، فإضافتُه إلى الآياتِ يؤيِّدُ الأوَّلَ، ووَصْفُه بـ (الشَّبِمِ) ـ بفتحِ المعجَمةِ وكسرِ الموحَّدةِ؛ أي: البارِدِ ـ يُقوِّي الثَّاني، فإنْ حُمِلَ على الأوَّلِ فمَعْنَى (الشَّبِم) هو: الدَّافِعُ للحرارةِ، وإنْ حُمِلَ على الثَّاني فتَشبيهُ الآياتِ به لأنَّها سببُ حياةِ الأرواحِ كما أنَّهُ مُوْجِبُ حياةِ الأَشْباح.

يعني: إنْ تَقْرأ الآياتِ القرآنيَّةَ، أو تَتَّبعِ الأحكامَ الفُرْقانيَّة، خوفاً مِن حرارةِ النَّار، متنزِّلاً عن درجةِ الإحْرارِ والإبْراد، أطفأْتَ حرَّها ودَفَعْتَ ضرَّها مِن أَجْلِ مُلَازَمةِ وِرْدِ القرآنِ الدَّافِعِ لحرارةِ النِّيران.

وفيه اقتباسٌ مِن الحديثِ الواردِ: أنَّه إذا وَقَفَ المؤمِنُ على الصِّراطِ تقولُ النَّارُ: «جُزْ يا مؤمنُ فقد أطفأَ نُورُكَ لَهَبي»(١).

١٠١ ـ كأنَّها الحوضُ تَبْيَضُّ الوُجُوهُ بِهِ   مِنَ العُصَاةِ وقد جاؤُوهُ كالحُمَمِ

عَبَّرَ عنِ الماءِ بالحوضِ لأنَّه مَحَلُّه، فيكونُ مَجازاً بِذِكْرِ المحلِّ وإرادةِ الحالِّ، أو على حَذْفِ المضافِ؛ أي: ماءُ الحوضِ، وهو حوضُ الكوثرِ، والمرادُ بالوُجوهِ الذَّوَاتُ؛ إذْ بيَّنَها بالعُصَاةِ وشبَّهَها بالحُمَمِ ـ بضمِّ المهمَلةِ وفتحِ الميمِ ـ: جمعُ حُمَمَةٍ كتُهَمَةٍ، وهي الفَحْمُ.

يعني: تلاوةُ الآياتِ القرآنيَّة، والعملُ بالأحكامِ الصَّمَدَانيَّة، في الدَّارِ الدُّنيويَّةِ، مُوْجِبةٌ لبياضِ قلوبِ المؤمنين، ونُورِ صُدورِ المُوْقِنين، بمنزلةِ حوضِ النَّبيِّ ﷺ

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٤)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٣٢)، من حديث يعلى بن منية رضيَ اللهُ عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف.

في الدَّارِ الأُخْرَويَّة، حيثُ تَبْيَضُّ وجوهُ العُصاةِ بالحوضِ والحالُ أنَّهم جاؤوه سُوداً كالفَحْمِ، وفي حديثِ «الصَّحيحينِ»: «فيُخْرَجُونَ منها.. فيُلْقَوْنَ في نهرِ الحياة»(١)، وفي روايةٍ: «فيُصَبُّ عليهم ماء الحياة»(٢)؛ أي: فيَذْهَبُ السَّوادُ عنهم ويَظْهَرُ البياضُ، وكذلك الآياتُ بقراءَتِها والعملِ بها تبيضُّ الوجوهُ؛ كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

١٠٢ ـ وكالصِّراطِ وكالميزانِ مَعْدَلَةً فالقِسْطُ مِن غَيْرِها في النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

يعني: والآياتُ كالصِّراطِ في أنَّها تُميِّزُ بَيْنَ المُحِقِّ والمُبْطِلِ، وكالميزانِ مِن جهةِ العدالةِ، حيثُ إنَّها تُبيِّنُ حقَّ كلِّ أحدٍ كما ينبغِي، وتَرفعُ الخصومةَ بالوجهِ الشَّرعيِّ المَقْرونِ بالدَّليلِ العقليِّ، فإذا كانَ كذلكَ فطَلَبُ العدلِ في الدُّنيا مِن غيرِ الآياتِ بينَ النَّاسِ لَمْ يَستقِمْ ولَمْ يَثْبُتْ؛ لأنَّ جميعَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ راجعةٌ إليها، والسُّنَّةُ والإجماعُ والقياسُ كلُّها مَبْنيَّةٌ عليها.

١٠٣ ـ لا تَعْجَبَنْ لحَسُودٍ راحَ يُنْكِرُها تَجاهُلاً وهو عينُ الحاذِقِ الفَهِمِ

(الحسودُ) بفتحِ الحاءِ: مُبالَغةُ الحاسدِ، وهو الذي يريدُ زوالَ نِعمةِ الغَيْرِ.

و(الفَهِمِ) بكسرِ الهاء؛ أي: شَديدِ الفَهْمِ.

يعني: لا تَتعَجَّبْ ولا تَسْتغرِبِ البَتَّةَ مِن مُبالِغٍ في الحسدِ على الحسدِ على النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم؛ كاليهودِ والنَّصارَى وبعضِ المشركينَ، حيثُ ذَهبَ يُنْكِرُ الآياتِ البيِّنات، ويَجحَدُ المعجزاتِ الواضِحَات، (تجاهُلاً)؛ أي: إظهاراً للجَهْلِ مع العِلْمِ بحقيقتِها، والمعرفةِ بحقِّيَّتِها، والحالُ أنَّ هذا الـمُنْكِرَ المتجاهِلَ عينُ الماهِرينَ وخيرُ الفَهِمِينَ بما اشْتَمَلتِ الآياتُ من أنواعِ الدَّلالاتِ على صدقِ الجائي بها عن اللهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٠)، ومسلم (١٨٤)، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى، فإنكارُها منه عنادٌ[١] له دَعَا إليه الحَسَدُ على نعمةِ النُّبوَّة ومِنْحَةِ الرِّسالةِ؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤]، فلا عَجَبَ في إنكارِها للحسدِ، فإنَّ الموجودَ قد يُنْكَرُ لأمرٍ؛ كما في قوله:

١٠٤ ـ قد تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

(السَّقَم) بفتحتينِ: المرضُ.

يعني: قد تَنْفِي العينُ وجودَ نُورِ الشَّمسِ مِن أَجْلِ علَّةٍ بها وإنْ شاهَدَتْ وحقَّقَتْ ضِيَاءَها؛ كذلك الآياتُ ظهورُها أظهرُ مِن الشَّمسِ، ولكنَّ الأَعْمَى لا يُبْصِرُها، والخُفَّاشَ[٢] لا يُدْرِكُها، والرَّمْدانُ لا يَبْغِيها، فلا يَلْزَمُ مِن نُقصانِ الرَّائي نُقصانُ المَرْئيِّ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد يُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ اللَّذيذِ المتعارَفِ المعروفِ بأنَّه حياةُ كلِّ شيءٍ، مِن أَجْلِ علَّةِ سَقَمٍ تَمنعُه عن إدراكِ لذَّتِه، وكذلك الذِينَ في قلوبهم مرضٌ مُزْمِنٌ لا يَنْفعُهم شفاءُ القرآن، ولا يَسْتلِذُّون بطعمِ الفُرْقان، قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو كالنِّيلِ ماءٌ للمَحْبوبِينَ ودماءٌ للمَحجوبين، يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِي به كثيراً.

ثُمَّ الْتفتَ مِن نعتِ الممدوحِ إلى خطابِه، فقال:

١٠٥ ـ يا خيرَ مَن يَمَّمَ العَافُونَ ساحَتَهُ سَعْياً وفوقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

(يَمَّمَ): قَصَدَ، و(العافُونَ): جمعُ العافي، هو السَّائلُ، و(السَّاحةُ): العَرْصَةُ، و(سَعْياً) حالٌ بمعنَى: ساعِينَ، و(فوقَ) عطفٌ عليه بمعنى: كائنينَ فوقَها.

---

(١) في «د»: «عناداً».

(٢) في هامش «ل»: «فخفاش طير ليس للشمس رائياً».

و(المُتونُ): جمعُ المتنِ وهو الظَّهرُ.

و(الأَيْنُق) بتقديمِ الياءِ على النُّونِ: مقلوبُ الأَنْيُقِ، أصلُه: أَنْوُقٌ، قُدِّمَتِ الواوُ ثُمَّ قُلِبتْ ياءً لمزيدِ الخِفَّةِ[1]، جمعُ النَّاقة.

و(الرُّسُم) بضمَّتينِ، وهي الإبلُ التي تُؤثِّرُ في الأرضِ مِن شدَّةِ الوَطْء.

والمعنى: يا سيِّدَ مَن قَصَدَ السَّائلونَ ساحةَ كَرَمِهِ، وتَوَجَّه الطَّالِبونَ إلى فَضاءِ حِلْمِهِ وحُكْمِه، مُسرِعينَ على إقدامِهم، ومُسْتعجِلينَ على أقدامِهم، وراكبينَ فوقَ ظهورِ النَّاقاتِ القويَّة، كهيئةِ حُجَّاجِ الكعبةِ العليَّة: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧] دُنْيويَّةً وأُخرويَّة، بمشاهَدةِ بيتِ اللهِ العتيق.

وفيه إشارةٌ إلى تعميمِ تَوَجُّهِ أنواعِ السائِرينَ إلى حَضْرتِه، وقَصْدِ أصنافِ السَّالِكينَ إلى خِدْمتِهِ، مِن القريبِ والبعيدِ في مسافةِ الطَّريق، والقويِّ والضَّعيفِ في الوُسْعِ والضِّيق، والفقيرِ والغنيِّ على المَجَازِ والتَّحقيق.

١٠٦ ـ ومَن هو الآيةُ الكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ   ومَن هو النِّعمةُ العُظْمَى لِمُغْتَنِمِ

معطوفٌ على المُنادَى، و(الآيةُ): العَلَامةُ تصدقُ على الدَّليل، يَعْتَبِرُ بها ويَقيسُ مِنها مَن يريدُ أنْ يُميِّزَ بينَ الحقِّ والباطلِ، و(النِّعمةُ) بمعنى: المُنْعَم به.

وفي المِصراعِ الأوَّلِ إشارةٌ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، ويوضِّحهُ البيتُ الآتي:

كَفَاكَ بالعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزةً

---

(١) كلام المؤلف فيه نظر، فقوله: «مقلوب الأنيق» يدل على أن الواو قلبت ثم قدمت، وهو عكس قوله بعده: «قدمت الواو ثم قلبت»، فلعلهما وجهان في التعليل، وقد اقتصر ابن الأثير على الثاني فقال: الأَيْنُق: جمعُ قِلَّةٍ لِناقة، وأصلُهُ: أَنْوُق، فقلب وأبدل واوهُ ياءً. انظر: «النهاية» (مادة: نوق).

وفي المِصْراعِ الثَّاني إيماءٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وبه صلى الله تعالى عليه وسلم فُسِّرَ قولُه تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢] بصيغةِ الجمعِ لإفادةِ المبالغةِ.

ومُجْمَلُ معناه: أنَّ مَن تَأَمَّلَ في مَبْناهُ؛ مِن خَلْقِه الخَلِيق، وخُلقِه الحَقِيق، وتَدَبَّرَ في جميلِ أثرِهِ، وحَمِيدِ سِيَرِه، وبراعةِ عِلْمِه، ورَجاحَةِ حِلْمِه، وجُملةِ كَمَالِه، وجِلَّةِ خِصَالِه، لَمْ يَمْتَرِ في صحَّةِ نُبوَّتِه، ولَمْ يَشُكَّ في صِدْقِ دعوتِه، فيَغتنِمُ بوجودِهِ(١) وما ظَهَرَ مِن عِلْمِهِ وَجُودِه.

وتكرارُ النِّداءِ(٢) لإظهارِ الرَّغبةِ في الإصْغاء، وجوابُ النِّداءِ قولُه:

١٠٧ ـ سَرَيْتَ مِن حَرَمٍ ليلاً إلى حَرَمِ كما سَرَى البَدْرُ في داجٍ مِن الظُّلَمِ

سَرَى لغةٌ في أَسْرَى، بمعنَى: سارَ في اللَّيلِ، و(ليلاً) نصبٌ على الظَّرفيَّة(٣)، وذكَرَه للتَّأكيدِ، وتَنْكيرُه للتَّقليل، والمرادُ من (حَرَمٍ) الأوَّلِ: حَرَمُ مكَّةَ شرَّفَها اللهُ تعالى، ومِن الثَّاني: المسجدُ الأَقْصى، وليس لهُ حَرَمٌ، فالمرادُ به: مكانٌ مُحْتَرَمٌ.

و(داجٍ) اسمُ فاعِلٍ مِن الدُّجُوِّ، وهو شدَّةُ الظُّلْمةِ، صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: ليلٍ داجٍ، و(مِن) بيانيَّةٌ، و(الظُّلَم) بضمٍّ ففتحٍ: جمعُ ظُلْمةٍ.

والمعنَى: سَرَيْتَ بإسراءِ اللهِ تعالى سُرَى عَجيباً، وسَيْراً غريباً؛ كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] مِن الحَرَمِ المُحْتَرَمِ المكِّيِّ، في ساعةٍ قليلةٍ مِن ليلةٍ جَليلةٍ، إلى الحرمِ المعظَّمِ القُدْسيِّ، كما دلَّ عليه

---

(١) في «د»: «وجوده».

(٢) قوله: «وتكرار النداء»، كذا في النسختين، ولم أجد في الكلام السابق تكراراً للنداء، وإنما الذي تكرر هو الموصول.

(٣) في «ل»: «الظرف».

قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] كسَرَيانِ البدرِ وهو القمرُ في أَوَانِ كمالِ ظُهورِه، وعُلوِّ جمالِ نُورِه، في وقتِ الخفاءِ عن الأغيارِ، تحتَ قِبابِ الأستار.

ووَجْهُ الشَّبَهِ: سرعةُ السَّيرِ في الوُصولِ إلى المَقام، وكمالُ الإضاءةِ في شدَّةِ الظَّلام، والمرادُ بالظُّلْمةِ حينئذٍ مع وجودِ البَدْرِ المتبادِرِ إلى فَهْمِ بعضِ فُضلاءِ زمانِنا أنَّه يَقْتضِي التَّناقُضَ ويُوْجِبُ التَّعارُضَ: هو الظُّلْمةُ بالقوَّة لولا نُورُ البدرِ في الطَّلعةِ، على أنَّ اللَّيلَ لا يَخْلُو مِن نوعِ ظُلْمَة مع حُصولِ نورِ البدرِ في الجُمْلَة، كما أشارَ إليه سبحانهُ بقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ونُقِلَ: أنَّ سيرَه ورُجوعَهُ كان في ثلاثِ ساعاتٍ أو أربعٍ، وهذا القَدْرُ مِن المعراجِ بجسمِهِ وحالَ يقظتِه[1] بالإجماع، ومُنْكِرُه كافرٌ بلا نِزَاع، وأمَّا مُنْكِرُ ما فوقَه، وهو الذي يُذْكَرُ بعدَه، فيُعَدُّ مِن أهلِ الابْتِداع.

١٠٨ ـ وبِتَّ تَرْقَى إلى أنْ نِلْتَ مَنزِلَةً مِن قابِ قَوْسَينِ لَمْ تُدْرِكْ ولَمْ تُرَمِ

(بِتَّ) ماضٍ مُخاطَبٌ مِن البَيْتوتةِ، وفي نسخةٍ: (وظَلْتَ) بفتحِ الظَّاءِ وكسرِها، أصلُه: ظَلِلْتَ بمعنى: صِرْتَ. و(تَرْقَى) بفتحِ القافِ؛ أي: تَصْعدُ.

و(نِلْتَ) معروفٌ مِن النَّيْلِ بمعنَى الوصولِ، أو مجهولٌ مِن النَّوْلِ بمعنى العطاءِ، والأوَّلُ أَظْهَرُ، وفي الرِّوايةِ أشهَرُ.

والقابُ: القَدْرُ، رُوِيَ بالجرِّ على الإعرابِ، وبالنَّصْبِ على الحِكايَةِ، وهو أقربُ إلى الصَّواب. و(مِن) بيانيَّةٌ. و(لَمْ تُدْرَكْ) مجهولٌ مِن الإدراك. (ولَمْ تُرَم) مِن الرَّوْمِ وهو القَصْدُ.

---

(١) في «د»: «اليقظة».

يعني: كنتَ في تلكَ اللَّيلةِ الخَفِيَّة، تَرْتَقي وتَصْعدُ في المعارِج الجَلِيَّة، والمَصاعِدِ السَّنِيَّة، باختراقِ السَّماواتِ السَّبْعيَّة، إلى أنْ وَصَلْتَ منزلةً عَلِيَّة، ومَرْتبةً بَهِيَّة، هي قَدْرُ قُرْبِ قَوْسَين، عندَ تَلَاقي الطَّرْفَين، مِن رَبِّ الكَوْنين، وهو كنايةٌ عن كمالِ القُرْبِ، والمرادُ: قُرْبُ المكانةِ لا المكان؛ لتَنَزُّهِهِ تعالى عن المكانِ والزَّمان، أو يُقال: مِن عَرْشِ الرَّحمن، أو مِن مَقامِ الوَحْي على وَجْهِ الامْتِنان.

وتَرْكُ: (أو أَدْنَى) بمعنَى: بل أقربُ إلى الملكِ الأَعْلَى، مِن ضرورةِ الشُّعراءِ، وفي حكايةِ المقدَّمِ إشعارٌ بالوراء.

(لَمْ تُدْرَكْ) تلك المنزِلةُ العَلِيَّة، بالمكاسِبِ الاجتِهاديَّة، مِن الفضائلِ العِلْميَّةِ والعَمَليَّة، وإنَّما حَصَلَتْ لهم بالمواهِبِ اللَّدُنِّيَّة، ولَمْ تُقْصَدْ ولَمْ تُطْلَبْ تلكِ المرتَبةُ الجَلِيَّة لغيرِه مِن الأنبياء، فضلاً عن الأَوْلياء.

واخْتُلِفَ في هذا التَّرَقِّي: هل كان جِسْمانيًا، أو رُوحانيًا؟ وهل رَأَى ربَّه بعينِ البَصَرِ أو بعينِ البَصيرةِ؟ ومَتَى كان، وكَمْ كان، وكيفَ كان؟ مِن تفاصيلِ قصَّةِ المعراج، يُعْرَفُ مِن كُتُبِ السِّيَرِ لأَهْلِ الاحْتِيَاج.

١٠٩ ـ وقَدَّمَتْكَ جَميعُ الأنبياءِ بها والرُّسْلِ تَقْديمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

(الرُّسْلِ) مجرورٌ على الصَّحيحِ، وهو بسكونِ السِّين مخفَّفُ المضمومِ: جمعُ رسولٍ، وهو أَخَصُّ مِن النبيِّ.

يعني: وقَدَّمَتْكَ جميعُ الأنبياءِ وسائرُ الأصفيَاءِ بسببِ تلكَ المنزِلةِ العَلِيَّةِ والمرتَبةِ الجَلِيَّةِ، تقديماً مِثْلَ تَقديمِ المخدومِ على الخُدَّامِ، وتَسْليمِ المُقْتدينَ في الأحوالِ بالإمام.

واختلفوا أنَّ الإمامةَ كانتْ في المسجدِ الأَقْصَى أو في السَّماواتِ العُلَى؟ ولا مَنْعَ مِن الجمعِ إيماءً إلى مَقامِ الجمعِ في عالَمِ المُلْكِ والمَلَكوتِ، بتوفيقِ الحيِّ الذي لا يموت.

١١٠ ـ وأنتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ في مَوْكبٍ كُنْتَ فيهِ صاحِبَ العَلَمِ

الواوُ حاليَّةٌ، والخَرْقُ: المُرورُ، والعُدولُ إلى المضارعِ استحضاراً للحالِ الماضيةِ، والموكبُ بكسرِ الكافِ: جماعةُ الفرسانِ، والعَلَمُ: الرَّايةُ، ويُقْرأُ (فيهِ) بالإشباع.

يعني: وأنت تَقْطعُ السَّماواتِ السَّبعِ التي يُطابِقُ بعضُها بعضاً، أو بعضُها فوقَ بعضٍ، مأخوذٌ مِن قوله: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]، حالَ كونِكَ مارًّا بالأنبياءِ أو بأرواحِهِم، ففي «مسلم»: أنَّهُ مَرَّ في السَّماءِ الدُّنيا بآدَمَ، وبالثَّانيةِ بعيسى ويحيى، وفي الثَّالثةِ بيوسُفَ، وفي الرابعةِ بإدريسَ، وفي الخامسةِ بهارونَ، وفي السَّادسةِ بموسى، وفي السَّابعةِ بإبراهيمَ[1]، عليهم السَّلامُ والتَّحيَّةُ والإكرام، في جمعٍ عظيمٍ مصحوبٍ بهيبةٍ عَظيمةٍ وهَيئةٍ كريمةٍ؛ إذْ كان معهُ جبريلُ عليه السَّلامُ، ويعبَّرُ عنه بالجمعِ؛ كقوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ فإنَّه فُسِّرَ بجبريلَ، أو أُقيمَ مُقامَ جمعٍ مِن الكِرَام، وقومٍ مِن العِظَام.

(كُنْتَ فيه)؛ أي: في ذلك الموكبِ (صاحِبَ العَلَم)؛ أي: المُشارَ إليه، والمدارَ عليه.

والعَلَم: الرُّمْحُ في رأسهِ رايَة؛ ليكونَ على صاحِبِ المُلْكِ علامةً وآيَة، وقد كان جبريلُ يستفتِحُ في كلِّ سماءٍ بالتَّمجيدِ المُمَجَّد، فيُقالُ له: مَن مَعَك؟ فيقولُ: مُحمَّد.

١١١ ـ حتَّى إذا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لِمُسْتَبِقٍ مِنَ الدُّنُوِّ ولا مَرْقًى لِمُسْتَنِمِ

(حتَّى) غايةٌ للاخْتِراقِ، و(إذا) ظَرْفيَّةٌ مَجَازيَّةٌ؛ أي: أنتَ دخلْتَ البابَ وقَطَعْتَ الحِجَاب، إلى أنْ لَمْ تَتْرُكْ غايةً لساعٍ إلى السَّبْقِ مِن كمالِ القُرْبِ المُطْلَقِ إلى جنابِ

---

(١) رواه مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه.

الحقِّ، ولا تركْتَ موضعَ رُقيٍّ وصُعود، وقيامٍ وقُعود، لطالبِ رِفعةٍ في عالَمِ الوُجود، بل تجاوَزْتَ ذلك إلى مَقامِ قابِ قوسَيْنِ أو أَدْنَى، فأَوْحَى إليكَ ربُّكَ مِن الحكمةِ ما أَوْحَى.

١١٢ ـ خَفَضْتَ كلَّ مَقَامٍ بالإضافةِ إذْ نُودِيْتَ بالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ

هذا لبيانِ اخْتِصاصِهِ بالدُّنوِّ الـمُشَارِ إليهِ بقولِه: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، وبالـمَحبَّةِ الذَّاتيَّةِ الإلهيَّةِ التي هي أعلى الـمَقاماتِ وأَغْلَى.

وقولـه: (خَفَضْتَ) جوابُ (إذا) علـى تقديرِ شَـرْطيَّتِها، وبدلٌ مِـن قوله: (لَمْ تَـدَعْ) علـى تقديـرِ ظَرْفيَّتِها، والخَفْـضُ: حَطُّ رُتبةٍ، وجَعْلُ شـيءٍ تحتَ شـيءٍ، ومنه الخفضُ فـي الإعراب.

والإضافةُ: الإلصاقُ والنِّسبةُ، و(إذْ) متعلِّقٌ بـ(الإضافة).

والمعنى: خَفَضْتَ كلَّ مَقامٍ ومَرْتبةٍ مِن مَقاماتِ الأنبياء، ومَرَاتبِ الأصفياء، ببركةِ إضافتِكَ إلى الحَضْرةِ العَليَّة، ونِسبتِكَ إلى المحبَّةِ البَهيَّة، أو بالإضافةِ إلى مَقامِكَ الجَليّ، وبالنِّسبةِ إلى حالِكَ العَلِيّ، حينَ ناداكَ بالرَّفعِ إلى الـمَقامِ الأَعْلَى، المُعبَّرِ عنه بقولِهِ: ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، مِثْلَ المُفرَدِ العَلَمِ في التَّعظيم، والمُشارِ إليه المشهورِ بالتَّكريم، فيما أُفْرِدَ به مِن بينِ[1] أفرادِ جِنْسِهِ، وتَميَّزَ عن أقرانِهِ بإمدادِ نَسَبِهِ.

ولا يَخْفَى ما في البيتِ مِن الصِّفةِ الإيمائيَّةِ إلى الاصْطِلاحاتِ النَّحْويَّة[2]؛ مِن الخَفْضِ والرَّفْعِ والإضافةِ والنِّداءِ والـمُفْرَدِ والعَلَمِ والمناسَبات الجَليَّة.

١١٣ ـ كَيْمَا تفوزَ بوَصْلٍ أيِّ مُستتِرٍ عنِ العُيونِ وسِرٍّ أيِّ مُكْتَتَمِ

عِلَّةٌ غائيَّةٌ لقولِهِ: (سَرَيْتَ) و(بِتَّ)؛ أي: فَعَلْتَ ذلك الـمُنْتَهي[3] إلى منزلةِ قابِ

(١) كلمة: «بين» من «د»، وليست في «ل».

(٢) في هامش «ل»: «بل فيه صنعة التوحيد، وتفصيله في شرح عقود الجمان نظم التلخيص».

(٣) في «ل»: «المنهي».

قوسَيْنِ أو أَدْنَى لـ (تفوزَ بوَصْلٍ) مِن الله، وقَطْعِ عمَّا سِوَاه، (أيِّ مُسْتترٍ عن العُيونِ)؛ أي: عن عيونِ الخَلْقِ (وسرٍّ)؛ أي: وبحصولِ سِرٍّ عظيمٍ مِن أسرارِ المحبوب، ومِن آثارِ المطلوب (أيِّ مُكْتَتمٍ)؛ أي: خَفِيٌّ عن أبصارِ الأغيارِ.

و(أيِّ) فـي الموضعَيْـنِ مجـرورٌ صفـةٌ لِـمَا قَبْلَها، دالَّـةٌ على معنَـى الكمال؛ أي: بوصـلٍ كامِـلٍ في الاسـتِتَار، وسـرٍّ كامـلٍ فـي الاكْتِتام.

و(تَفوزَ) منصوبٌ بـ (أنْ) مُقدَّرةٍ بعدَ (كي) بمعنَى اللَّام، أو بـ (كي) بمعنَى (أنْ) واللامُ مقدَّرةٌ قَبْلَها، و(ما) زائدةٌ على الوجهَيْن.

قال الشَّيخُ جلالُ الدِّينِ الـمَحَلِّيُّ: وهذا السِّرُّ مأخوذٌ مِن حديثِ: «عَلَّمَني ربِّي ليلةَ الإسراءِ علوماً شتَّى، فعِلْمٌ أَخذَ عَلَيَّ كتمانَهُ، وعِلْمٌ خَيَّرني فيه، وعِلْمٌ أَمَرني أنْ أُبلِّغه» قال عليٌّ: فكان يُسِرُّ إلى أبي بكرٍ وعُمرَ وعثمانَ وإليَّ ما خُيِّرَ فيه. ذَكَره جمعٌ مِن الشُّرَّاحِ، ولَمْ أَقِفْ له على أصلٍ في كتبِ الحديث.

ولا يُنافـي مـا رَوَى البخاريُّ عن أبـي جُحَيْفةَ قال: قلتُ لعلـيٍّ رضِيَ اللهُ عنه: هـل عندَكُمْ شـيءٌ مِـن الوَحْي ما ليسَ فـي القرآن؟ قـال: لا والَّذي فَلَقَ الحَـبَّ وبَرَأَ النَّسَـمَةَ، إلَّا فَهْمـاً يُعطيـهِ اللهُ رجـلاً فـي القـرآنِ، وما في هـذهِ الصَّحيفة. قلـتُ: وما فـي هذهِ الصَّحيفة؟ قـال: العَقْلُ، وفَكَاكُ الأسـيرِ، وأنْ لا يُقْتَلَ مُسـلِمٌ بكافرٍ[1]= لأنَّ هـذا فيمـا يتعلَّقُ بتبليـغِ النَّاس، وذلك فـي غيرِه كما هـو ظاهرٌ.

ثُمَّ في البيتِ إيماءٌ إلى رؤيتهِ لربِّهِ، ومُناجاتهِ بلُبِّهِ، وقد اختُلِفَ في أنَّهُ رآه بعينهِ أو بقلبهِ، أو رأى جبريلَ في صورتهِ، وكذلك اختُلِفَ في مُناجاتهِ وأنَّهُ ناجَى ربَّه أو جبريلَ، والأصلُ فيهما قولُه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، على ما يُبيَّنُ في التَّفاسير.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٧).

وليس المُرادُ مِن القُربِ والوَصْلِ القُرْبَ المكانيَّ والوَصْلَ الصُّوريَّ، بل ظهورُ عِظَمِ مَنزلتِهِ وإشراقِ أنوارِ مَعرفتِه، ومشاهدةُ أسرارِ غيبيَّتِهِ وقُدرتِه، والتَّخَلُّقُ بأخلاقِه، وقَصْرُ النَّظرِ على مُطالَعةِ جمالِه وشُهودِ كَمَالِه.

١١٤ ـ فحُزْتَ كلَّ فَخَارٍ غيرِ مُشْتَرَكٍ وجُزْتَ كلَّ مَقامٍ غيرِ مُزْدَحَمِ

(حُزْتَ) و(جُزْتَ) كلاهما على وزنِ: قُلْتَ، والأوَّلُ بالحاءِ المهمَلةِ مِن حازَهُ: جَمَعَهُ، والثَّاني بالجيمِ مِن جازَهُ؛ أي: تَجاوَزَ عنه.

والفِخَارُ بكسرِ الفاءِ: ما يُفْتَخَرُ به مِن الفَضائلِ والفَواضِلِ والشَّمائلِ، أو مصدرٌ بمعنى المُفاخَرَةِ، و(غير) في الموضعَيْن إمَّا مجرورٌ صفةٌ لِمَا قبله[1]، وإمَّا منصوبٌ على أنَّه صفةُ (كُلَّ)، أو على أنَّه حالٌ مِن الفاعِلِ. والمُشْتَرَكُ والمُزْدَحَمُ اسْمَا مفعولٍ بمعنى المَصْدَر.

قيل: المرادُ مِن الفِخَار الغَيْرِ المشترَكِ: مِثْلُ الوَسيلةِ والفَضيلةِ والدَّرجةِ الرَّفيعةِ، والكَوْثَرِ، والشَّفاعةِ العُظْمَى، والمَقامِ المحمودِ، واللِّواءِ الممدود، إلى غير ذلك.

ومِن المَقامِ الغيرِ المُزْدَحَم: مقامُ المحبَّةِ، وخَتْمِ النُّبوَّةِ، والمِعْراج، والرِّسالةِ العامَّةِ، وأمثالِها.

أو المرادُ: مَقاماتُ العارِفِينَ الواصِلِين، المسمَّاةُ عندَهم: منازِلُ السَّالِكينَ والسَّائِرين، التي لا يُمْكِنُ التَّعبيرُ عنها، ولا الإشارةُ إليها، فمَن أحبَّ أنْ يُدْرِكَها فلْيُجاهِدْ ليُشاهِد، فإنَّ الخبرَ ليس كالمُعايَنة، والمُقابَلَةَ ليستْ كالمُبايَنة، وهذه الدَّرجاتُ تَنْتَهي بالفَناءِ في التَّوحيد، والاستغراقِ في بحرِ التَّفْريد، وَقَانَا اللهُ مِن حِجابِ الأَيْنِ إلى قِبابِ العَيْن.

---

(١) في النسختين: «بعده»، والصواب المثبت.

١١٥ ـ وجَلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيْتَ مِن رُتَبٍ وعَزَّ إدراكُ ما أُوْلِيْتَ مِن نِعَمِ[١]

(وُلِّيْتَ)؛ أي: جُعِلْتَ والياً، و(أُوْلِيْتَ)؛ أي: أُعْطِيْتَ وافِياً، والإدراكُ: الإحاطةُ بالشَّيءِ ذاتاً وصِفةً، والـمِقْدارُ: ما يُقدَّرُ به كيفيَّةً وكمِّيَّةً، والرُّتَبُ: جمعُ الرُّتْبةِ، والنِّعَمُ: جمعُ النِّعمة.

قيل: المصراعُ الأوَّلُ إشارةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، والثَّاني عبارةٌ عن قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، وفي تفخيمِهما إيماءٌ إلى أنَّ الأفهامَ تَحيَّرتْ عن تفصيلِ تفسيرِ ما أَوْحَى، والأحلامَ تاهَتْ في تَبْيينِ تَعْيينِ الآياتِ الكُبرَى.

١١٦ ـ بُشْرَى لنا مَعْشَرَ الإسلامِ إنَّ لنا مِن العنايةِ رُكْناً غيرَ مُنْهَدِمِ

(بُشْرَى) مصدرٌ أُريدَ به ما يَحصُلُ به مِن المَسَرَّةِ المُغيِّرِ للبَشَرة، وهي الحالةُ الطيِّبةُ والبَهْجةُ الصَّالحةُ، ونَصْبُ (مَعْشَرَ الإسلامِ) على الاخْتِصاصِ؛ كما في قولِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «نحنُ مَعاشِرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»[٢].

وقيل: هو هنا منادًى.

و«إنَّ» بالكسرِ للتَّعليلِ.

والمرادُ مِن العنايةِ: الألْطافُ الخفيَّةُ الأزليَّةُ التي تُوْرِثُ السَّعاداتِ الجَلِيَّةِ الأَبَديَّة.

ورُكْنُ الشَّيءِ: جُزْؤُه الذي يَسْتَنِدُ إليه، ومَرْجِعُه الذي يَعْتَمِدُ عليه.

---

(١) وقع في «د»:

«وعز إدراك ما وليت من رتب وجل مقدار ما أوليت من نعم»

ومثله في «ل» مع التبديل بين «أوليت» و«وليت»، وقد صحح في هامش كلا النسختين كما هو مثبت.

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» (٦٢٧٥) من حديث ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهما بلفظ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث»، وهو عند البخاري (٦٧٢٨)، ومسلم (١٧٥٧)، دون قوله: «إنَّا معاشرَ الأنبياء».

والمعنى: تَبَاشيرُ صُبحِ السَّعادةِ والإقبال، ومَنَاشيرُ البِشْرِ والبِشارةِ والإجْلَال، أَشْرقَتْ ونُشرتْ لمعاشِرِ الإسلام، مِن أقوامِ العَرَبِ وجماعاتِ الأَعْجام، حيث خُصُّوا بركنٍ رَكينٍ مَتين، ودِينٍ ناسخٍ راسخٍ إلى يومِ الدِّين.

١١٧ ـ لمَّا دَعَا اللهُ دَاعِيْنَا لطاعَتِهِ   بأَكْرَمِ الرُّسْلِ كنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

(دعا) بمعنى: سمَّى، و(اللهُ) فاعلُه، و(داعِيْنا) مفعولُه، وسكونُ الياءِ ضَرورةٌ، وقد جاءَ في غيرِ الضَّرورةِ أيضاً في قولِهم: أَعْطِ القوسَ بارِيْها، و(لطاعَتِهِ) متعلِّقٌ بـ (داعينا)، واللَّامُ بمعنى: إلى، وضميرُه للهِ، و(بأَكْرَم) مُتعلِّقٌ بـ (دعا)، و(الرُّسْل) بسكونِ السِّينِ لُغةٌ في ضمِّها: جمعُ رسولٍ.

وقيل: (دَاعِينا) بَدَلٌ مِن الفاعلِ، و(لطاعَتِهِ) متعلِّقٌ بـ (دَعَا)، وكذا قولُه: (بأَكْرَمِ الرُّسْلِ)؛ إذْ هو واسطةٌ بَيْنَنا وبينَ اللهِ تعالى.

ومعنَى قولِهِ: (كنَّا أَكْرمَ الأُمَمِ)؛ أي: عندَ اللهِ؛ لأنَّ شَرَفَ الأمَّةِ لشَرَفِ نبيِّهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، وفي التَّنزيلِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ أي: أنتم.

والنَّاظِمُ أشارَ إشارةً خَفِيَّة، إلى أنَّ المفهومَ مِن كونِ الأمَّةِ موصوفةً بنعتِ الخيريَّةِ، أنْ يكونَ رسولُهم مَنعوتاً بنعتِ الأَكْرَميَّة، ولكنْ عَكَسَ القضيَّةَ الاستدلاليَّة[1]؛ إجلالاً لمَرْتبةِ الرسالةِ العَلِيَّةِ المُصْطَفويَّةِ المُرْتَضَويَّة، فإنَّ كونَنا خيرَ أمَّةٍ مِن بُقْيَا جائزتِهِ، وجَدْوَى مُتابَعَتِهِ، فإنَّ تكريمَ التَّبَعِ مِن تكريمِ المَتْبُوع، على مُقْتَضَى المعقولِ والمَشْرُوع.

ولمَّا فَرَغَ مِن قضيَّةِ المعراجِ وما يتعلَّقُ به مِن حصولِ الوصولِ وبلوغِ المُنَى

---

(١) في هامش «ل»: «بل أشار الناظم إلى الدليل اللميِّ استدلالاً من العلة إلى المعلول في المؤثر لا الأثر، فافهم».

والمُراد، شَرَعَ في بيانِ غَزَواتِهِ وشجاعةِ سراتِهِ في مجاهَدَةِ الجِهَاد، ومُكَابَدَةِ الكِبَادِ[١]، لدَفْعِ أهلِ الكفرِ والعِنَاد، والزَّيغِ والفَسَاد، فقال:

١١٨ ـ راعَتْ قُلُوبَ العِدَى أنباءُ بِعْثَتِهِ كنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غُفْلاً مِن الغَنَمِ

الرَّوْعُ بمعنى التَّخويفِ، و(العِدَى) بكسرِ العينِ مقصوراً: اسمُ جمعٍ للعدوِّ، والأنباءُ: جمعُ النَّبأ: وهو الخبرُ الذي فيه شأنٌ، والبِعثةُ: الرِّسالةُ، والنَّبْأَةُ: صوتُ الأسدِ، والإِجْفالُ: الإزْعاجُ عَدْواً واضْطِراباً، والغُفْلُ بضمِّ المعجَمةِ: جمعُ غافلٍ، كبُزْلٍ وبازِلٍ.

المعنى: خوَّفَتْ أخبارُ نُبوَّتِهِ وآثارُ رسالتِهِ قلوبَ أعداءِ الدِّين، مِن الكفَّارِ والمُشْركين، مِثْلَ صيحةِ الأسدِ أَفْزعَتِ الأغنامَ الغافلةَ، حيثُ تَنْزعِجُ وتَفِرُّ بمجرَّدِ صوتِه بدونِ سَطْوَتِه.

وقَيْدُ الغَفْلة لزيادةِ تأثيرِ الـهَيْبَة.

وفيه إشارةٌ إلى حديثِ «الصَّحيحين»: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شهرٍ»[٢].

ورَوَى الطَّبَرانيُّ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ شَهْرَيْن»[٣].

والمرادُ به ما في «شرح العُمْدة»، لابْنِ الـمُلَقِّنِ: ورُوِّيْنا: «ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ شَهْراً أمامي وشَهْراً خَلْفي»[٤]، ويُقاسُ بذلك اليمينُ والشِّمالُ، فيكونُ المرادُ بالأوَّلِ: شهراً مِن كلِّ جهةٍ.

١١٩ ـ ما زالَ يَلْقاهُمُ في كُلِّ مُعْتركٍ حتَّى حَكَوا بالقَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمِ

---

(١) قوله: «الكباد»، لعله جمع الكَبَد بمعنى الشدة، والمكابدة مصدر كابَدَه بمعنى قاساه، فيكون المعنى: ومقاساة الشدائد.

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)، من حديث جابر رضِيَ اللهُ عنه.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٠٤٧) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما بلفظ: «... ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ حتى إنَّ العَدُوَّ ليخافوني من مَسِيرَةِ شَهْرٍ أو شَهْرَيْنِ...». وروى فيه أيضاً (١١٠٥٦) عن ابن عباس أيضاً قال: نُصِرَ رسول الله ﷺ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ على عَدُوِّهِ.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير» (٦٦٧٤)، من حديث السائب بن يزيد رضيَ اللهُ عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٩): فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك.

(يَلْقاهُم) يُقرأُ بإشباعِ الميمِ، و(الـمُعْتَرَك) على صيغةِ المفعولِ بمعنى: المعركة، وحكاه: شابهه، و(القَنَا): الرُّمْحُ، و(الوَضَم) بفتحِ المعجَمةِ: خَشَبٌ يَقْطَعُ القَصَّابُ اللَّحْمَ فيَضَعُه عليه ليُرغِّبَ فيه الـمُشْترِيَ.

يعنـي: مـا زالَ النبـيُّ عليـه السَّـلامُ جاهِـداً أعـداءَ الإسـلامِ فـي كلِّ معركـةٍ ومَلْحمـةٍ ومَقـامٍ، حتَّى تَرَكهـم قَتْلَى علـى رُؤوسِ القَنَا مُشـابِهينَ اللَّحْـمَ الموضوعَ علـى الخَشَـبِ المُعلَّـقِ مِـن السَّـماءِ، عِبـرةً للنَّاظِريـن، ونُزْهـةً للمتفرِّجِين.

وفي تشبيهِ الأصحابِ بالقَصَّابِ والكفَّارِ بالغَنَمِ مُبالَغةٌ في كمالِ شجاعةِ أحبَّائِه، ودَلالةٌ على ضَعْفِ وجُبْنِ قُلوبِ أعدائِه.

١٢٠ ـ ودُّوا الفِـرَارَ فـكادُوا يَغْبِطُـوَن بـهِ أَشْلَاءَ شـالَتْ مَعَ العُقْبانِ والرَّخَمِ

الغِبْطةُ: إرادةُ نِعمةٍ مع عَدَمِ إرادةِ زَوَالِـها عن صاحِبِها، و(أَشْلَاء) كأَشْياءَ: جمعُ شِلْوٍ بكسرِ الشِّين، وهو العضوُ، و(شَالَتْ) بمعنى: ارْتَفَعَتْ، و(العِقْبان) بكسرِ العين: جمعُ عُقَابٍ بالضَّمِّ، وهو والرَّخْمةُ نوعانِ مِن الطَّيرِ يَقَعانِ على الـمَيْتةِ يأكلانِ منها ويَحمِلانِ لفراخِهِما[1].

يعني: الكفَّارُ تَمنَّوُا الفِرارَ عن سيِّدِ الأبرارِ وسَنَدِ الأَخْيارِ، الذي يَتمنَّونَ خِدْمتَه الأحرار، فقارَبُوا ـ مِن كمالِ نُفْرتِـهم وضَعْفِ غفرتِـهم[2] ـ أنْ يتمنَّوا أنْ يَحصُلَ لهم مِثْلُ ما حَصَلَ للأعضاءِ، حيثُ ارْتَفعتْ بها الطُّيورُ إلى الهواء؛ ليَتخلَّصوا مِن جهادِ سيِّدِ الأنبياء، وأصحابِهِ ساداتِ الأَوْلياء.

---

(١) في «ل»: «يأكلان منهما ويحملان لفرخهما»، والمثبت من «د»، وهو الصواب.

(٢) في «د»: «عفرتهم» بالعين المهملة، والمثبت من «ل»، ولعله يريد به: جمعهم، من قولهم: جاؤوا جَمًّا غَفيراً، وجَمَّ الغَفير، وجمَّاءَ الغَفير، وجمَّ الغَفيرة، وجماءَ الغَفيرة، ونحوها، والمعنى: جاؤوا جميعاً. انظر: «القاموس» (مادة: غفر).

١٢١ ـ تَمْضِي اللَّيالي ولا يَدْرُونَ عِدَّتَها ما لَمْ تَكُنْ مِن ليالي الأَشْهُرِ الحُرُمِ(١)

أي: تَـمُرُّ اللَّيالي بأيامِها، وتنقضِي الأوقاتُ بأعلامِها، ولا يَعلَمُ الكفَّارُ عَدَدَها، مِن شدَّةِ هُمومِ اجتهادِهم بمجاهَدةِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم وحسابِ عُدَدِها، ما لَمْ تَكُنِ اللَّيالي مِن ليالي الأشهُرِ الحُرُمِ، وهي: رَجَبٌ وذو القَعْدةِ وذو الحِجَّةِ والـمُحَرَّمُ، فإنَّهم يَدْرُونَها بإمساكِ النبيِّ عليه السَّلامُ القتالَ في الشَّهرِ الحرامِ.

وفي العُدولِ عن الأوقاتِ أو الأيَّامِ إلى (اللَّيالي) إيماءٌ إلى سوءِ حالِ أوقاتهم؛ فإنَّ ظُلْمةَ الزَّمانِ وسوادَهُ كنايةٌ عن ذلك، أو إشارةٌ إلى أنَّ حالَهم في اللَّيالي التي هي مكانُ راحَتِهم، وزَمانُ اسْتِراحَتِهم، كانتْ كذلك، فكيف زمانُ أيَّامِهم المشوَّشَةِ المشؤومةِ عليهم بأنواعِ الكُدُورَاتِ، وأَصْنافِ الضَّرُوراتِ؟!

١٢٢ ـ كأنَّما الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ ساحَتَهُمْ بكُلِّ قَرْمٍ إلى لَحْمِ العِدَى قَرِمِ

(القَرْم) بفتحِ القافِ وسُكونِ الرَّاءِ: السَّيِّدُ، وبكسرِ الرَّاءِ: شديدُ الاشْتِهاءِ إلى اللَّحْمِ.

أي: إنَّما الكفَّارُ وَقَعوا فيما وَقَعوا مِن وَهْنِهم؛ لأنَّ دِينَ الإسلامِ مَثَلَ في أَعْيُنهم بتمثالِ سلطانٍ نَزَلَ ضيفاً في ساحةِ دارِهم، مُسْتولياً على حَيْطةِ بلادِهم وديارِهم، ومعهُ مِن جنودِه كلُّ سيِّدٍ مُطاعٍ حريصٍ لأكلِ(٢) الأعداء، وسَنَدٍ شجاعٍ مَهيبٍ في عيونِ الأشقياء، فلَمْ يَعْلموا ما هُوْ، فقَلِقوا وتاهُوْا.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الدِّينَ ممَّا يجبُ القيامُ بخدمتِه لوصولِه، والاغتنامُ لـمَظْهَرِه(٣) وحُصولِه، وإلَّا فَلَهُ الانْتِقالُ إلى قلوبِ أربابِ الكَمَال.

---

(١) وقع هذا البيت في النسختين مقترناً مع البيت السابق، وحقه أن يكون هنا، فلذلك أثبتناه في هذا الموضع.

(٢) في «ل»: «كل».

(٣) في «ل»: «لحضرته».

وفيهِ إشعارٌ بأنَّ الضَّجرَ مِن الضَّيفِ وأهلِ الارْتحال، دَيْدَنُ الكفَّارِ والجُهَّال.

١٢٣ ـ يَجُرُّ بَحْرَ خَميسٍ فوقَ سابِحَةٍ ... يَرْمِي بمَوْجٍ مِن الأبطالِ مُلْتَطِمِ

الجرُّ: الجَذْبُ والقَوْدُ، والخميسُ: جيشٌ كبيرٌ له خمسةُ أركانٍ: مُقدِّمةٌ، وساقةٌ، وقلبٌ، ومَيْمَنةٌ ومَيْسَرةٌ. والجيشُ يشبَّهُ بالبحرِ في الـمَهَابةِ والجَرَيان، والإهلاكِ واللَّمَعان، وتَـمَوُّجِ بعضِهِ ببعضٍ في الـمَيْدانِ والـهَيَجان، وجَرَّارُ العَسكرِ: مَن يَرِدُونَ في الهيجاءِ بحُكْمِه، ويَصْدُرونَ عنها بأَمْرِه.

و(فوقَ سابحةٍ) صفةُ (بحر)؛ أي: طائفةٌ جاريَةٌ مِن الفَرَسِ والإبِلِ، وكذا (يَرْمي بموجٍ)، والباءُ للتَّعْدِيَة؛ كما في قولِهِ تعالى: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ [المرسلات: ٣٢]، والضميرُ في (يَرْمي) إلى البَحْرِ أو الخَميس، لا إلى السَّابحةِ كما تُوُهِّمَ.

والموجُ: ما يَحْصلُ مِن التَّلاطُمِ والاضْطِرابِ، و(مِن) بيانيَّةٌ، و(مُلْتَطِم) صفةُ (موج)؛ أي: ضارِبٍ بعضُه على بعضٍ مِن شدَّةِ الهَيْجاءِ وقوَّته، والالْتِطامُ هنا: مُصادَمةُ الأبطالِ عند الـمُسابَقةِ، واصْطِكاكُ أسلحَتِهم.

والأبطالُ: جمعُ بطلٍ، وهو الشُّجاع.

والمعنى: ما زالَ النبيُّ عليه السَّلامُ يَجرُّ جُنداً مخمَّساً مُشبَّهاً ببحرٍ مموَّجٍ يَجْرِي على خيولٍ رائضةٍ ونُوقٍ خائِضةٍ في ميدانِ المعارِكِ ومِضْمارِ الـمَهالِكِ، تُقْبِلُ وتُدْبِرُ في أوانِه ومكانِه، وتُوْصِلُ وتَحْمِلُ في زمانِه، وذلك البحرُ يَرْمِي مَوجاً مُتلاطِماً بتَلَاحُقٍ، وهو الأبطالُ التي تَتَصادَمُ وتَتَسابَق، وتتصاكَكُ أسلحتُهم وتتلاصَق.

١٢٤ ـ مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ للهِ مُحْتَسِبٍ ... يَسْطُو بمستأصِلٍ للكُفْرِ مُصْطَلِمِ

يقال: نَدَبهُ: دَعَاهُ، وانْتَدَبَ: أجابَ، وأمَّا ما قال الجَلَالُ الـمَحَلِّيُّ مِن أنَّه بفتحِ الدَّالِ بمعنى: مَدْعُوٌّ[1]، فهو في غيرِ مَحَلِّه. وأَغْرَبَ الشَّيخُ زَكَرِيَّا حيثُ تَبِعهُ ولَمْ

(١) في «د»: «المدعو».

يَتعقَّبْه، ففي «القاموس»: نَدَبهُ إلى الأمرِ ـ كنَصَرَه ـ: دَعَاهُ وحَثَّهُ ووَجَّهَهُ، و«انْتَدَبَ اللهُ لِمَن خَرَجَ في سبيلِهِ»[١]؛ أي: أجابهُ إلى غُفْرانِهِ[٢].

والاحْتِسابُ: طلبُ الثَّوابِ والاجْتِهادُ في تحسينِ النِّيَّةِ وتَحْصيلِ الإخْلاص، والحِسْبَةُ: الأَجْرُ.

قيل: (للهِ) متعلِّقٌ بـ (مُحتَسِبِ)، والأَظْهَرُ تعلُّقُه بـ (مُنتَدِبِ)؛ لأنَّ الاخْتِصاصَ مفهومٌ مِن بِنْيَةِ الاحْتِساب، بخلافِ الانْتِدابِ، ويَحْتمِلُ التَّنازُع.

و(يَسْطُو)؛ أي: يَصُولُ، واسْتَأْصَلَهُ: قَلَعَهُ مِن أصلِهِ، واصْطَلَمَهُ: أَهْلَكَهُ.

و(مِن كلٍّ) بَدَلٌ مِن قولِهِ: (مِن الأبطال)، أو بيانٌ لها[٣]، وهو الأَوْجَهُ، فإنَّ هذا البيتَ مَسُوقٌ لوَصْفِ تلكَ الأبطالِ بالهِمَمِ العاليَةِ والمقاصِدِ الغاليَة، كما أنَّ البيتَ الأوَّلَ مَسُوقٌ لوَصْفِ الجيشِ بكثرةِ العَدَد، وجَوْدَةِ العُدَد، وغايةِ الـمَدَد، ونهايَةِ المُدَد.

يعني: أولئكَ الأبطالُ، المَهَرةُ في إبطالِ أهلِ الضَّلال، هم كلُّ مُجيبٍ لدَعْوةِ الحقِّ بالرَّغبةِ الكامِلَة، ومُجتَهِدٍ في إخلاصِ النِّيَّةِ بالحِسْبةِ الشَّامِلَة، يَصُولُ ويَجُول، وبقوَّتهِ وبقُدرَتهِ تعالى يَحُول، مُلْتَبِساً بمستأصِلٍ للكفرِ وأهلِه، ومُصْطَلِمٍ للباطِلِ مِن أصلِه ونَسْلِه؛ مِن آلاتِ القتالِ مِن سيفٍ ونَبْلٍ ونَصْلِه.

١٢٥ ـ حتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإسلامِ وَهْيَ بِهِمْ ... مِن بَعْـدِ غُرْبَتِهـا موصولـةَ الرَّحِمِ

(حتَّى) غايةٌ لـ (يَجرُّ)، و(هي بِـهِمْ) جملةٌ حاليَّةٌ، و(مَوصُولةَ الرَّحم) صفةُ مَوصوفٍ محذوفٍ؛ أي: ذاتَ رَحِمٍ مَوْصولةَ الرَّحِمِ، وهي خبرٌ لـ (غَدَتْ).

---

(١) رواه بهذا اللفظ البخاري (٣٦) من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه، ورواه مسلم (١٨٧٦) بلفظ: «تضمن الله...».

(٢) انظر: «القاموس» (مادة: ندب).

(٣) كلمة: «لها» من «د» وليست في «ل».

والرَّحِمُ: القَرَابةُ.

وصِلَةُ الرَّحِمِ: رعايةُ الأقارِبِ بصِلَةٍ أو زيارةٍ أو تَعَهُّدٍ أو تَفَقُّدٍ، ونحوها ممَّا يَلْتَمِسونَ منهُ، ووَرَدَ: «صِلُوا أرحامَكم ولو بالسَّلَامِ»[1].

و(مِن بَعْدِ) مُتعلِّقٌ بـ (غَدَتْ).

والمعنى: ما زال النَّبيُّ ﷺ يَجرُّ الجيوشَ والسَّرايا، ويُجيفُ الخيولَ والـمَطَايا، حتَّى صارَتْ مِلَّةُ الإسلامِ والحالُ أنَّها مُلْتبِسةٌ بهم، لا يُفارِقُهم شدَّةُ القِرَاعِ، ولا كثرةُ الدِّفَاعِ، وبقيتْ ذاتَ شوكةٍ وأعوانٍ، بَعْدَ كونِـها غَريبةً ذاتَ عَجْزٍ وهَوَانٍ. فالمرادُ مِن الغُرْبةِ والوُصْلةِ لازِمُهُما في الـمَقام، أعني: الإهانةَ والإكرام.

وفيه إيماءٌ إلى قولِهِ عليه السَّلامُ: «بَدَأَ الإسلامُ غَرِيباً وسَيَعودُ غَرِيباً، فطُوبَى للغُرَباءِ»، رواه مسلمٌ[2]، ضُبِطَ (بَدَأَ) بالهمزةِ؛ أي: جاءَ وظَهَرَ بينَ قومٍ لا يَقومونَ به، فهو مقطوعُ الرَّحِمِ، ثُمَّ قامَ به الصَّحابةُ رضي الله تعالى عنهم، فوَصَلُوا رَحِمَهُ وشَكَرُوا نِعَمَه.

١٢٦ ـ مَكْفولـةً أبـداً مِنْهُـمْ بخَيْـرِ أبٍ ... وخَيْـرِ بَعْـلٍ فلَـمْ تَيْتَـمْ ولَـمْ تَئِـمِ

(مَكفولـةً) خبـرٌ ثانٍ لـ (غَدَتْ)، أو خبـرُ مبتدأ محذوفٍ، هو: هـي، ومعناها: مَحفوظـةً، فضميرُ (مِنهـم) راجعٌ إلى الكفَّـار، أو: مُتكَفَّلةً، فالضَّميـرُ إلى (الأبطال) الأبـرار، وفي نسـخةٍ: (منـه)، فالضَّميرُ إلى النبـيِّ المختار.

---

(١) رواه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٥٨) من حديث ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهما. قال ابن طاهر في «ذخيرة الحفاظ» (٣/ ١٥٢٤): رواه محمد بن عبد الملك الأنصاري عن نافع عن ابن عمر، ومحمد متروك الحديث. وروي من حديث أبي الطفيل رضِيَ اللهُ عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٢): رواه الطبراني، وفيه راو لم يسم. وروي من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٥٢): رواه البزار، وفيه يزيد بن عبدالله بن البراء الغنوي وهو ضعيف.

(٢) رواه مسلم (١٤٦) من حديث ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهما.

ويريدُ بالأبِ والبَعْلِ سيِّدَ المُرْسَلين، وبعدَه الخلفاءَ الرَّاشِدِين وبعدَهم العلماءَ المجتهِدِين والأمراءَ المُجاهِدِين.

ويُقالُ: يَتِمَ الولدُ ـ بكسرِ الفَوْقانيَّة ـ يَيْتَمُ بفَتْحِها: إذا ماتَ أبوهُ وهو صغيرٌ، وآمَتِ المرأةُ تَئِيمُ ـ كباعَتْ تَبيعُ ـ: إذا خَلَتْ مِن زوجِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وفي قوله: (أبداً) إيماءٌ إلى أنَّها مَصُونةٌ عن النَّسخِ والتَّبديل.

والمعنى: صارَتْ مِلَّةُ الإسلامِ محفوظةً بكَفَالةِ اللهِ تعالى لها مِن جهةِ النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنْ يَجعلَها دائماً في حَضانةِ مُرَبٍّ مُشْفِق، وحمايَةِ قَيِّمٍ مُرْفِق، بل هي أبداً مَنْضودةٌ بأُوْلي الأَمْرِ وأُوْلي العِلْمِ، أصحابِ العَدْلِ والكَرَمِ والحِلْمِ، مَصُونةٌ بحمايةِ الملِكِ الجليل، فنِعْمَ الكَفِيلُ ونِعْمَ الوَكيل.

١٢٧ ـ هُمُ الجِبالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهم ... مـاذا رَأَى مِنْهُـمُ فـي كلِّ مُصْطَدَمِ

(هُمُ الجِبال) مِن قَبيلِ التَّشبيهِ[1] البَليغِ؛ كما في: زيدٌ الأسدُ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: الثَّباتُ والتَّمكينُ والقَرَارُ مِن غيرِ فِرار، والصَّلابةُ والعَظَمة، والهيبةُ والـمَعْدِنيَّة.

والمُصَادَمـةُ: المُقارَعة، والمُصْطَدَمُ: مَصْدرٌ، أو اسـمُ مـكانٍ أو زمانٍ. و(ماذا رأى) بَـدَلٌ مِن ضميرِ (عنهُـمْ): (هم)[2].

و(مِنهمُ) في البيتِ يُقرأُ بالإشباعِ.

والفاءُ في (فَسَلْ) جوابُ شرطٍ محذوفٍ؛ أي: إنْ لَمْ تُصدِّقْني فاسْأَلْ عنهم مُصَادِمَهم، فإن مُصادِمَ الجبالِ ينكسِرُ ويَهْلِكُ، أو يتأخَّرُ ويَنهَزِمُ في المآل، وسَلْ عنهم

---

(١) في «د»: «تشبيه».

(٢) كلمة: «هم» من «د»، وليست في «ل».

ماذا رَأَوْا مِن الرِّجالِ كالجبالِ؛ مِن الثَّباتِ في الشِّدَّة، والصَّبرِ في الـمِحْنة، والشُّكرِ في المِنْحة، في كلِّ مَعْركَةٍ وزمانِ حركَة.

وفي نسخةٍ: (مُصادَمهم) بفتحِ الدَّال[1]؛ أي: مَوَاضعَ حربِهم، و(ماذا رَأَى) بصيغةِ الإفرادِ؛ أي: كلُّ واحدٍ مِن الأمكِنةِ، وهو أنسبُ بالبيتِ الآتي على طريقِ العَطْفِ التَّفسيريِّ، أو مِن بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ.

١٢٨ ـ وسَلْ حُنَيناً وسَلْ بَدْراً وسَلْ أُحُداً فُصولَ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِن الرَّخَمِ

حنيـنٌ وادٍ بيـنَ مكَّـةَ والطَّائـفِ، وبـدرٌ: موضـعٌ بيـنَ مكَّـةَ والمدينـةِ، وأُحُدٌ: جَبَـلٌ بقـربِ المدينةِ.

و(فصـولَ) بـدلٌ، أو خبـرُ محـذوفٍ[2]؛ أي: اسْـأَلْ أهـلَ هـذه الأَمْكِنَـة، مِـن الذيـن اطَّلَعـوا علـى وقائـعِ تلـك الأَزْمِنَـة، حيثُ وُجِـدَ فيها أنـواعُ هـلاكٍ للأعداء، وأنـواعُ بـلاءٍ أشـدُّ إصابـةً مِـن الوَبـاء، وتفصيـلُ هـذه الغَـزَواتِ فـي كتـبِ السِّـيَرِ مَسْـطُور، وفـي بعـضِ التَّفاسـيرِ مَذْكُور.

قيل: ذِكْرُ أُحُدٍ غيرُ مناسِبٍ؛ لـمَا وَقَع فيهِ مِن الهزيمة.

وأُجيبَ: بأنَّ الشَّجاعةَ إنَّما تُعْرفُ حالَ الكَسْرِ بالثَّباتِ والتَّحفُّظ، وأيُّ شجاعةٍ أَقْوَى مِن حالِهم أنْ بعدَ الهزيمةِ ثَبَتوا حتَّى رَجَعَ الكفَّارُ خائبينَ إلى بلدِهم ولَمْ يَقْدِروا على الاسْتِئْصال، بعونِ اللهِ المَلِكِ الـمُتَعال.

والأَحْسنُ أنْ يُقال: إنَّ المؤمنينَ غَلَبوا[3] أوَّلاً، ثُمَّ لـمَّا تَفرَّقوا في غَنائمِهم وتَرَكَ رُماةُ المسلمينَ المراكزَ ومَحَلَّ القَرَار، احْتالَ الكفَّارُ بعدَ الفِرَار، ودَخَلوا مِن ورائِهم،

---

(١) في النسختين: «بفتح الميم»، وهو سهو أوسبق قلم.

(٢) فإن كانت بدلاً من الأمكنة الثلاثة فهي منصوبة، وإن كانت خبراً فهي مرفوعة.

(٣) في «د»: «غلبوهم».

فوقَعَ ما وقعَ مِن قتالِهم، ومع هذا ثبَّتَهُم اللهُ تعالى بالتَّحَفُّظِ مِن أعدائِهم، والتَّخَلُّصِ مِن استِئْصالِهم، فالغَلَبَةُ لهم أوَّلاً وآخِراً، وباطِناً وظاهِراً، والحمدُ للهِ على ذلك[١].

١٢٩ ـ المُصْدِرِي البِيْضِ حُمْراً بَعْدَما وَرَدَتْ مِنَ العِدَى كلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ

أَصْدَرَه عنِ المَنْهَلِ: أَخرجَهُ، وأَوْرَدَه فيهِ: أَدْخلَه، ووَرَدَ فيهِ: دَخَلَ. و(ما) مَصْدَرِيَّة.

و(المُصْدِرِي) مضافٌ إلى (البِيض)، ولهذا أُسْقِطَ[٢] نُونُهُ، وهو[٣] منصوبٌ بتقديرِ: أَمْدَحُ.

و(البِيض): السُّيوفُ المَصقولةُ، ويجوزُ نصبُه كما قرئ في: (والمُقِيمِي الصَّلاةَ)[٤]، وحُذِفَ النُّونُ تَخفيفاً.

و(حُمراً) حالٌ مِن (البِيض)؛ أي: مُلطَّخةً بالدِّماء.

و(مِن العِدَى) حالٌ مِن (كلَّ)، و(مِن) للتَّبعيضِ، وهو[٥] مفعولُ (وَرَدَتْ).

و(مِن اللِّمَمِ) بيانُ (مُسْوَدٍّ)، و(اللِّمَم): جمعُ لِـمَّةٍ، وهي الشَّعَرُ المُسْترسِلُ إلى المَنْكِبِ والمرادُ: مَنْبِتُها، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ الكفَّارَ المقتولينَ غالِبُهم شبابٌ.

١٣٠ ـ والكاتِبِينَ بسُمْرِ الخَطِّ ما تَرَكَتْ أقلامُهم حَرْفَ جِسْمٍ غيرَ مُنْعَجِمِ

(الكاتِبِينَ) عَطْفٌ على (المُصْدِرِي)؛ أي: الطاعِنِينَ (بسُمْرِ الخطِّ) وهي الرِّماحُ: جمعُ أَسْمرَ، و(الخَطّ) شَجَرُها، وقيل: موضعٌ باليَمامةِ يُجْلَبُ إليهِ مِن الهندِ،

---

(١) في «د»: «على ذلك ظاهراً».

(٢) في «ل»: «سقط».

(٣) أي: «المصدري».

(٤) هي قراءة ابن أبي إسحاق كما في «المختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص ٩٧).

(٥) أي: «كلّ».

(ما تَرَكَتْ أقلامُهم)؛ أي: أَسِنَّةُ رِمَاحِهِم (حرفَ جِسمٍ) مِن الكفَّار؛ أي: طَرَفَه (غير مُنْعَجِمِ)؛ أي: بلا أَثَرٍ، و(غير) بالنَّصبِ صفةٌ لـ(حَرْفَ)، وبالجرِّ صفةٌ لـ(جسمٍ).

والجملـةُ المَنْفيَّـةُ حـالٌ مِـن (سُـمْر) علـى روايـةِ: (أقلامُهـا)، ومِـن ضميـرِ الفاعـلِ في (الكاتِـبينَ) على رواية: (أقلامُهـم)؛ أي: غيرَ تارِكةٍ أقلامُهـم، ويَحْتمِلُ أنْ يكـونَ جملةً اسـتئنافيَّةً.

وقيل: (ما) موصولةٌ مفعولٌ لـ(الكاتِبين) والعائدُ إلى (ما) محذوفٌ.

ولا يَخْفَى ما في طَيِّ البيتينِ مِن لطائفِ العِبَارة، وظَرَائفِ الإشارَة، ومُجْمَلُ معناهُما: أنَّ الأصحاب، الذين هُمْ أُولُوا الألباب، بتوفيقِ ربِّ الأَرْباب، يُوْرِدونَ السُّيوفَ في أعناقِ الأعداءِ مُبْيَضَّةً، ويُصْدِرونَها بتَلَطُّخِ دمائِهِم مُحْمَرَّةً، ويكتبونَ على صَفَحاتِ[1] رِقَاعِ وُجوهِهِم مَنْشورَ الخَسارِ بأقلامِ الرِّماحِ الخَطِّيَّةِ المأْنُونةِ عن الانْكِسار، وما تَرَكَتْ هذه الأقلامُ طَرَفَ جسمٍ منهُم مُهْمَلةً بلا نُقْطَة، ولا مَنْبِتَ شَعَرٍ مِنهم مُجْمَلةً بلا طَعْنَة.

١٣١ ـ شَاكِي السِّلاحِ لَهُمْ سِيْما تُميِّزُهُم   والـوِرْدُ يَمتازُ بالسِّـيما مِن السَّـلَمِ

(شـاكي السِّـلاح) صفةُ (المُصْدرِي البيـضِ) أو بَدلٌ أو حالٌ منـه؛ أي: تامِّهِ، وقيـل: حادِّيه، وهو اسـمُ فاعلٍ مِن الشَّـوكِ بعـدَ القَلْبِ.

والسِّـيما: هي العَلَامةُ، والسَّـلَمُ: شـجرٌ يُشْـبِهُ شـجرَ الوَرْدِ، ويمتازُ الوَرْدُ عنه بحُسْـنِ الخِلْقـةِ وبَهـاءِ الـمَنظَرِ وطِيـبِ الرَّائحـةِ، وقيل: شـجرٌ ذو شـوكٍ يكونُ في الباديَـةِ، وقيل: مُطْلَقُ الشَّـجر.

والمعنَى: هؤلاءِ الشُّجْعانُ أصحابُ سيِّدِ الأبرارِ، بإمدادِ الأسلحةِ وإعدادِ القوَّةِ، أشدَّاءُ على الكفَّار، رُحَماءُ بينَهم بالتَّواضُعِ والانْكِسار، والكَرَمِ والإيثار، يمتازونَ في

(١) في «د»: «صحفات».

عينِ الأحبَّاءِ مِن الأعداءِ بحُسْنِ السِّيماء، كما يمتازُ الوَرْدُ مِن الشَّجر، والشَّجرُ مِن الثَّمَر، فهُمْ أزهارُ حدائقِ الوجود، سِيمَاهُم في وجوهِهِم مِن أثرِ السُّجود.

١٣٢ ـ تُهْدِي إليكَ رياحُ النَّضْرِ نَشْرَهُمُ   فتَحْسَبُ الزَّهْرَ في الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِ

يُقرأُ البيتُ بإشباعِ ضمَّةِ ميمِ (نَشْرَهم)، و(تَحسبُ) بكسرِ السِّينِ وفتحِها، والإهْداءُ: إرسالُ الهديَّةِ، والمرادُ برياحِ النَّصْرِ: بركاتُه وثَمَراتُه، وقد يُرادُ بالرِّياحِ الدَّوْلاتُ، قال:

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فاغْتَنِمْها   فعُقْبَى كلِّ عاصفةٍ سُكُونُ[1]

والمرادُ بـ (نَشْرهم): أخبارُهمُ الطَّيِّبةُ، و(الأَكْمَام): جمعُ كِمٍّ بكسرِ الكافِ، وهو الغِلَافُ، و(الكَمِيُّ): الشُّجاعُ، وهو بتشديدِ الياءِ، فقيل: خُفِّفَ للضَّرورة.

وقولُه: (فتَحْسَبُ الزَّهْرَ) مِن قَبِيلِ التَّشبيهِ المقلوب؛ أي: فتحسَبُ كلَّ كَمِيٍّ في الدُّروعِ زهراً في الأَكْمام، وفيه ادِّعاءُ أنَّ نشرَهُمْ أَخَذَ[2] المَشَامَّ، بحيثُ كلَّما وَصَلَ إليها رائحةٌ طيِّبةٌ تَظُنُّها نَشْرَهم.

وقيل: (كُلَّ كَمِي) مفعولٌ أوَّلُ لتَحْسَبُ، وما قَبْلَه الثَّاني.

والزَّهرُ في أكمامِه أحسنُ مَنظراً، وأطيبُ رائحةً منهُ خارِجَ الأكمام.

١٣٣ ـ كأنَّهم في ظُهُورِ الخيلِ نَبْتُ رُبًى   مِن شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِنْ شَدَّةْ الحُزُمِ

الرُّبَى: جمعُ ربْوةٍ بتثليثِ الرَّاء، وهي: ما ارْتَفَعَ مِن الأرضِ، ونَبْتُها أَثْبَتُ في الأرضِ مِن نَبْتِ غيرِها؛ لطولِ عُروقِهِ حتَّى يَصِلَ إلى الماء، بخلافِ نبتِ غيرِها.

---

(١) البيت لابن هند؛ كما في «غرر الخصائص الواضحة» لبرهان الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط (ص ٢٤٠).

(٢) في «ل»: «أخذهم»، والصواب المثبت.

فهُمْ في ظُهورِ الخيلِ أَثْبتُ مِن غيرِهم بكثيرٍ، لكنْ (مِن شِدَّةِ الحَزْمِ) بكسرِ الشِّين وفتحِ الحاء؛ أي: مِن قوَّةِ الثَّباتِ ومُراعاةِ الاحْتِيَاط، (لا مِن شَدَّةِ الحُزُمِ) بفتحِ الشِّينِ وضمِّ الحاءِ والزَّاي: جمعُ حِزَامٍ، وهو: ما يُشَدُّ بِهِ السَّرْجُ وغيرُه على ظَهْرِ الدَّابَّةِ بالرَّبطِ التَّامِّ، والاسْتِحْكامِ التَّمَام.

١٣٤ ـ طارَتْ قُلوبُ العِدَى مِن بأسِهم فَرَقاً فمـا تُفَـرِّقُ بيـنَ البَهْـمِ والبُهَـمِ

(فَرَقاً) بفَتْحتَينِ؛ أي: خوفاً وفزَعاً، وهو تمييزٌ مِن نِسبةِ الطَّيَرانِ إلى القُلوب[1].

و(البَهْـم) بفتحِ الباءِ وسكونِ الهاءِ: جمعُ بَـهْمَةٍ، وهي السَّـخْلةُ وَلَـدُ الغَنَم، و(البُهَـم) بضمٍّ ففتـحٍ: جمعُ بُهْمَةٍ بضمٍّ فسكونٍ: الشُّـجاعُ.

والمعنى: إنَّ قلوبَ الأعداءِ اضْطَرَبتْ، ومِن أَجْلِ شدَّتهم في الحربِ فَزِعَتْ[2]، إلى أنْ صارَتْ لا تُميِّزُ بينَ المذكورين، ولا تُفرِّقُ بينَ المسطورين؛ لأنَّ نَظَرَهُم محصورٌ على الظاهِر، ولا يُفرِّقُونَ بينَ القَذِرِ والطَّاهِر، وأمَّا المؤمنونَ فبِنَظَرِهم الدَّقيق، الـمَقْرونِ بالمعنَى الحَقيق، يُميِّزونَ بينَ الـمُحِقِّ والـمُبْطِل، ويُفرِّقون بينَ الحقِّ والباطِل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ [فاطر: ١٢]؛ أي: وإنْ كان في نَظَرِ الحَيْرانِ بَيَانُ أنَّهما مُسْتوِيَان، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، ومَن لَمْ يَذُقْ لَمْ يَعْرِفْ، ومَن لَمْ يَغْتَرِفْ لَمْ يَعْتَرِفْ.

١٣٥ ـ ومَـنْ تكُـنْ برَسُـولِ اللهِ نُصْرتُـهُ إنْ تَلْقَـهُ الأُسْـدُ فـي آجامِهـا تَجِمِ

النُّصْـرةُ مصـدرٌ مَبْنـيٌّ للمفعـولِ، و(الأُسْـدُ) بضـمِّ الهمزةِ وسـكونِ السِّـينِ: جمعُ أَسَـدٍ.

---

(١) أو مفعول لأجله.

(٢) في «د»: «فرغت».

والآجامُ بالمدِّ: جمعُ أَجَمَةٍ، وهي أرضٌ كثيرةُ القَصَبِ. و(تَجِم) بفتحِ التَّاءِ وكسرِ الجيمِ، مِن وَجَمَ، أي: حَزِنَ، أو سَكَتَ مُهْتَمًّا.

والشَّرطُ الثَّاني وجوابُه جوابُ الأوَّلِ، وليس هذا(١) مِن تَوَالي الشَّرْطينِ المشهورِ بأنَّ ثانيَهُما حالٌ مِن الأوَّلِ، وأنَّ الجوابَ له؛ نحوَ: إنْ جِئْتَني إنْ تأدَّبْتَ أكْرمْتُكَ؛ أي: إنْ جِئْتَني مُتَأدِّباً أكْرمْتُكَ، ولا بدَّ مِن تقديمِ التَّأدُّبِ على المجيءِ ليَتَحقَّقَ مُقارَنتُه له، ونحوَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

والمعنى: مَن يَكُنْ نُصرتُه وإعانتُه وقوَّتُه وإغاثتُه على مُحارَبةِ الأعداء، بواسطةِ سيِّدِ الأحبَّاء، إنْ تَلْقَهُ جميعُ أفرادِ الأُسْدِ المشهورِ بالشَّجاعةِ والمَهَابَة، في مَحالِّها المسمَّاةِ بالغابَة، وهي فيها أَجْرأُ منها في غيرِها في إيصالِ الكآبَة، تَسْكُنْ على حالِها، ولا تتحرَّكْ خوفاً منه في مَآلها.

وفي هذ البيتِ إشعارٌ بما رَوَى مُحْيي السُّنَّةِ في «شرح السُّنة» عنِ ابنِ المُنْكَدِرِ: أنَّ سَفينةَ مولَى رسولِ اللهِ ﷺ أَخْطأَ الجيشَ بأرضِ الرُّومِ أو أُسِرَ، فانْطَلَقَ هارِباً يتلمَّسُ الجيشَ، فإذا هو بالأَسَدِ، فقال: يا أبا الحارثِ! أنا مَوْلَى رسولِ اللهِ ﷺ، كان مِن أَمْرِي كَيْتَ وكَيْتَ، فأقبلَ الأسدُ له بَصْبَصةٌ حتَّى قامَ إلى جَنْبِهِ، كُلَّما سَمعَ صوتاً أَهْوَى إليه، ثُمَّ أقبلَ يمشي إلى جَنْبِهِ حتَّى بَلَغَ الجيشَ، ثُمَّ رَجَعَ الأسدُ(٢). ذكره صاحب «المشكاة» في (بابِ الكَرَامات)(٣).

١٣٦ ـ ولَنْ تَرَى مِن وليٍّ غيرِ مُنْتَصِرٍ   بِه ولا مِن عَدُوٍّ غيرِ مُنْقَصِمِ

(١) في «ل»: «وهذا»، بإسقاط «ليس»، وهو خطأ.

(٢) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٧٣٢)، ورواه أيضاً عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٥٤٤)، ومن طريقه رواه البغوي.

(٣) انظر: «مشكاة المصابيح» (٥٩٤٩).

(مِن) في الموضعَيْنِ زائدةٌ، وضميرُ (به) للرسول، والانْقِصَامُ بالقافِ هو الرِّوايةُ، وهو الانْكِسارُ فوقَ الانْفِصَامِ بالفاء، أعني: الانْكِسارَ مع البَيْنونةِ، و(غيرِ) في الـمَحَلَّينِ جارٍ جَرُّه على الوَصْفيَّة، ونَصْبُه على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ (تَرَى)، على أنْ تكونَ مِن رؤيةِ القلبِ، ورفعُه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو: هو.

يعني: ولـن تَعْلَـمَ وليًّـا له صلـى الله تعالى عليه وسـلم غيـرَ منصـورٍ به، ولا تبصـر عـدواً حـال كونـه غير مكسـور ومقهور بـه، بـل كلُّ وليٍّ بـه مُنْتَصِـر[1]، وكلُّ عـدوٍّ لهُ منكسِـر.

١٣٧ ـ أَحَـلَّ أُمَّتَـهُ فـي حِـرْزِ مِلَّتـهِ كاللَّيْثِ حَلَّ مع الأشـبالِ في أَجَمِ

الإحـلالُ: الإنزالُ، والأشـبالُ: جمعُ شِـبْلٍ بكسـرِ الشِّـين، وهو ولدُ الأَسَـدِ، والأَجَـمُ بفَتْحَتَيـنِ: جنسُ مُقَامةِ الأسـد، والواحـدةُ: أَجَمَة.

أي: أَحَلَّ أمَّتَهُ المرحومَة، في حِصْنِ مِلَّتِهِ الـمَعْصومَة، كما أنَّ الأَسَدَ ينزلُ مع أولادِهِ في أَجَمتِهِ المأجومَة.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الملَّة كالحِصْنِ للأُمَّة، فمَنِ الْتَجَأَ إليها سَلِمَ مِن الآفَات، ومَن خَرَجَ عنها تَعَرَّضَ للبَلِيَّات، كما وَرَدَ في الحديثِ القُدْسيِّ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ حِصْني، فمَن دَخَلَ حِصْني أَمِنَ عذابي»[2].

وفي المِصْراعِ الثَّاني إشارةٌ إلى أنَّه صلى الله تعالى عليه وسلم مِن كمالِ شَفَقتِهِ

---

(١) الناصـر هـو الله، القائل ولـم يسـتثن: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقـرة: ١٠٧، والتوبـة: ١١٦، والعنكبـوت: ٢٢، والشـورى: ٣١].

(٢) رواه الشهاب في «مسنده» (١٤٥١) من حديث علي رضِيَ اللهُ عنه، وإسناده ضعيف جدًّا كما قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ١١٩)، وزاد: وقول أبي منصور الديلمي: إنه حديث ثابت، مردود عليه.

ومَرْحَمتِه، وتأديبِه وتعليمِه لأمَّتِه، كالأبِ لهم، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفي قراءةٍ شاذَّةٍ: (وهو أبٌ لهم)(١).

١٣٨ ـ كَمْ جَدَّلَتْ كَلِماتُ اللهِ مِن جَدِلٍ فيهِ وكَمْ خَصَمَ البُرْهانُ مِن خَصِمِ

(كم) خَبَرِيَّةٌ، و(جَدَّلَتْ) بالتَّشديد؛ أي: أَوْقَعتْ على الجَدَالةِ وهي وجهُ الأرضِ.

و(فيه) يُقرأُ بإشباعِ الهاءِ، والضَّميرُ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم.

و(خَصَمَ)؛ أي: غَلَبَ في الخُصومةِ، مِن خاصَمْتُ زيداً فخَصَمْتُه.

و(الجَدِل) و(الخَصِم) بكسرِ عينِهما صِيْغَتَا مُبالَغةٍ، وهما مَفْعولانِ، و(مِن) زائدةٌ فيهما.

والمعنى: كثيراً مِن المرَّاتِ قَطَعَتْ وغَلَبَتْ كلماتُ اللهِ تعالى مِن الآياتِ البيِّنات الـمُبالِغَ في الـمُجادَلَة، والـمُجاهِدَ في الـمُعارَضَة؛ لإظهارِ نبوَّتِه، وإشعارِ رسالتِه، وكَمْ مِن الكرَّاتِ أَلْزمَتِ الحُجَجُ الواضِحات والـمُعجِزاتُ الظَّاهِرات الـمُخاصِمَ غايةَ الخُصومةِ في الـمُعالَجات.

١٣٩ ـ كَفَاكَ بالعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزةً في الجاهِلِيَّـةِ والتَّأديبِ فـي اليُتُمِ

الباءُ زائدةٌ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩]، واللَّامُ في (العِلْم) للجِنْس، والمرادُ به الفَرْدُ الكامِلُ.

و(الأُمِّـي) منسـوبٌ إلـى الأُمِّ، وهو مَن لَمْ يُـدْرِكْ تَربيَـةَ الأبِ، أو على وصفِ [مَـن](٢) خـرجَ مِـن بطـنِ أمِّـه بـدونِ اكتسـابِ قـراءةٍ وكتابـةٍ، أو منسـوبٌ إلـى أُمَّةِ العَـرَبِ، وهـم قومُ عـادةُ(٣) غالِبِهـم عَدَمُ معرفـةِ الكتابِ والحِسـاب.

---

(١) نسبت لابن مسعود كما في «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص ١٢٠). وأمثال هذه القراءات إن صحت فهي محمولة على التفسير؛ لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) كلمة: «عادة» من «د».

و(التَّأديب) مصدرُ المجهولِ، وهو معطوفٌ على (العِلْم).

و(اليُتُم) بضمَّتينِ مَصدرٌ جُعِلَ حِيناً في المعنى، وهو بمعنَى اليَتِيم، كالعَدْلِ بمعنَى العادِلِ، وتُرِكَ قولُه: مُعْجِزةً، بعدَ قولِهِ: (في اليُتُم) للعِلْمِ بها ممَّا قَبْلُ.

وأرادَ بالمعجزةِ: مجرَّدُ الأمرِ الخارِقِ للعادةِ، وإنِ اعْتَبَروا فيها مع ذلك اقْتِرانَهُ بالتَّحدِّي، وهو دَعْوَى الرِّسالةِ مع عَدَمِ الـمُعارَضةِ مِن الـمُرْسَلِ إليهِم.

والمعنى: أنَّ معجزاتِهِ كثيرةٌ لا تُحْصَى، وخَوَارِقَ عاداتِهِ شَهيرةٌ لا تَخْفَى، وإذا نَظَرْتَ بعينِ البَصيرةِ والاهْتِداء، وكَحَلْتَ بصرَكَ بنورِ التَّوفيقِ والاقْتِفاء، رأيتَ ذاتَهُ الشَّريفة، مع صِفَاتِهِ الـمُنِيفَة، مَحَلَّ خارِقِ العاداتِ الرَّبَّانيَّة، ومَظْهَرَ الـمُعْجزاتِ السُّبْحانيَّة، وحينئذٍ كَفَاكَ أيُّها الطَّالِبُ لمُعْجزاتِه، وحَسْبُكَ أيُّها الرَّاغِبُ لخَرْقِ عاداتِه، الدَّالَّةِ على كمالِ كَرَاماتِه: العِلْمُ المشتَمِلُ على الأصولِ والفُروع، المحيطُ بالمعقولِ والمَسْموع، فيمَن لَمْ يَتعلَّمْ مِن العُلماء، ولَمْ يُكتَبْ مع الأُدَباء، في زمانِ كثرةِ الجُهَّالِ والسُّفهاء، حيثُ حُرِّفَ فيهِ الشَّرعُ السَّابِق، وصُرِفَ الوحيُ اللَّاحِق.

وكذا كَفَاكَ كونُه مُؤدَّباً بمكارِمِ الخِصَال، ومتأدِّباً على وجهِ الكَمَال، في أوانِ يُتْمِه، وزمانِ حَدَاثَتِه، وأوَّلِ خِلْقَتِهِ وفِطْرَتِه، بلا وجودِ اكتسابٍ رياضيّ، بل بجُودٍ إلهيٍّ فيَّاضيّ، بَغَّضَ إليهِ الأَوْثان، وكرَّهَ إليه العِصْيان، وحَبَّبَ إليهِ الإيمان، وزَيَّنَ إليهِ الفُرْقان، ووَصَلَ إلى مقامِ الإحسان، وهذا معنَى قولِهِ ﷺ: «أدَّبَني ربِّي فأَحْسَنَ تَأْدِيبي»[1]، وقولِ بعضِهم: حَسْبِي رَبِّي مِن كُلِّ مُرَبِّي.

١٤٠ ـ خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ ذُنوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعرِ والخِدَمِ

المديحُ: ما يُمْدَحُ به، وقيل: إنَّه مصدرٌ. والاسْتِقالةُ: طَلَبُ العفوِ.

---

(١) قال أبو العباس في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٧٥): المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت.

وأرادَ بالشِّـعرِ هاهُنـا معنـاهُ المصـدريَّ؛ أي: الإتيـانَ بالـكلامِ المَـوْزونِ المُقَفَّـى، وكثيـراً مـا يُطْلَـقُ على نَفْـسِ ذلك الـكلامِ، فيُمْكِـنُ أنْ يُقدَّرَ مضـافٌ؛ أي: فـي اسـتِعْمالِهِ أو تأليفِـه.

و(الخِدَم) بكسرِ الخاءِ: جمعُ خِدْمةٍ، والمرادُ بها: خِدْمةُ الـمَخلوقِينَ؛ كما أنَّ المرادَ بالشِّعر: الشِّعرُ المذمُومُ.

وجملةُ (أَسْتقيلُ) صفةٌ لـ (مَدِيح)، وقيل: حالٌ مِن فاعِلِ (خَدَمْتُه).

والمعنى: تَشَرَّفْتُ بخِدْمتِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم باستعانةِ مَدْحٍ أَطلبُ العفوَ مِن اللهِ تعالى بسببِهِ مِن ذنوبِ مُدَّةَ حياةٍ مَضَتْ في الاشتِغالِ بالشِّعرِ في مَدْحِ النَّاسِ ومَذَمَّتِهم، وضاعَتْ في خَدَماتِ أربابِ الدُّنيا لأغراضٍ فاسدةٍ في صُحْبَتِهم.

١٤١ ـ إذْ قَلَّدَانيَ مـا تُخْشَـى عَوَاقِبُـهُ كأنَّنـي بِهِمَـا هَـدْيٌ مِـن النَّعَـمِ

(إذْ) تعليليَّـةٌ لــ (أَسْـتقِيل)، والتَّقليـدُ: ربـطُ العُنُـقِ، ويجـيءُ بمعنَـى الإلْزامِ، ويُقـرأُ البيـتُ بفتـحِ اليـاءِ مِـن (قَلَّدَانـي)، والضَّميـرُ فيـه وفـي (بهمـا) راجِـعٌ إلـى الشُّـعراء والخِدْمـةِ المذمومَيْـنِ.

والـهَدْيُ: مـا يُهْـدَى مِـن النَّعَـمِ ـ وهـو الإبـلُ والبقـرُ والغنـمُ ـ للذَّبـحِ فـي الحَـرَم، ومِـن شـأنِهِ أنْ يُقلَّـدَ بتعليقِ شـيءٍ في عُنُقِـهِ ليُعْلَمَ أنَّـه هَدْيٌ فـلا يُتعرَّضَ له بشـيءٍ، ثُـمَّ يُنْحَـرُ. و(مـن) بيانيَّة.

والمعنى: لأنَّ فُضُولَ الشِّعر وحُصولَ خِدْمةِ الخَلْق أَلْزَمَاني وعَلَّقا في رَقَبتي الآثامَ والأَوْزار، التي تُخْشَى عواقبُها مِن أنواعِ العقابِ في عاقبةِ الدَّار، وكأنَّني عُيِّنْتُ للهلاك[1] بسببهما، فإنَّهما أَوْقَعاني في مَهْلكةِ البَوَار[2].

---

(١) في «د»: «للإهلاك».

(٢) في «ل»: «الوبار».

١٤٢ ـ أَطَعْتُ غيَّ الصِّبَا في الحالَتَينِ وما حَصَلْـتُ إلَّا علـى الآثـامِ والنَّـدَمِ

أي: أَطَعْتُ ضلالةَ الصِّبا وجَهَالةَ الشَّبابِ النَّاشئةَ عنهُما، في حالَتي اسْتِعمالِ الشِّعر، واشتغالِ الخِدْمةِ وتَضْييعِ العُمُرِ بهما، والحالُ أنِّي ما حَصَّلْتُ شيئاً مِن جِهَتِهما، إلَّا الوقوعَ على المَعاصِي، والنَّدامةَ والتَّحَسُّرَ والتَّحَزُّنَ على ما وَقَعَ مِن المَنَاهِي.

والمـرادُ بالنَّدَم: مـا يَتَرتَّبُ عليه النَّدامةُ، وإلَّا فالنَّدمُ نَفْسُـه توبـةٌ، وهي مُوْجِبةٌ للنَّجاةِ وللدَّرجاتِ وسيلةٌ، فلا تَدخُلُ تحتَ الشِّـكايَةِ.

ويُرْوَى: (حَصَلْتُ) بالتَّخفيف، فالمعنى: ما وَقَعْتُ على شيءٍ مِن الأغراضِ الباطِلةِ والمقاصِدِ الفاسِدَة، إلَّا على المعاصي والنَّدَامة، ويُـمْكِنُ أنْ يكونَ لفًّا ونشراً، فالآثامُ مُتَرتِّبٌ على مَدْحِ الفَسَقةِ، والنَّدامةُ على خدمةِ الجَهَلة.

١٤٣ ـ فيـا خَسَـارَةَ نَفْسِـي فـي تِجَارَتِها لَـمْ تَشْـتَرِ الدِّيـنَ بالدُّنْيا ولَمْ تَسُـمِ

في بعضِ النُّسخ: (فيا خسارةَ نَفْسٍ) على التَّنكيرِ، والمنادَى هنا محذوفٌ؛ أي: يا قومِ اعْتَبِروا خسارةَ نَفْسي، أو الـمُنادَى هو (خَسَارةَ نَفْسي)؛ أي: تعالَيْ؛ ليَعْجَبوا مِنكِ وفي أَمْرِكِ، ونداءُ غيرِ العُقلاءِ شائعٌ في كلامِهم.

قال المَحَلِّيُّ: فيه معنَى التَّعَجُّبِ؛ أي: ما أَخْسَرَها!

والمـرادُ بالاشـتراءِ: الاسـتِبْدالُ، و(الدُّنيـا) بمنزلةِ الثَّمَـنِ، فلهذا دَخَلَـه الباءُ.

والسَّـومُ: طَلَـبُ الشِّـراء، مِن بـابِ نَصَرَ.

والمعنَى: انْظُروا يا أَصْحَابي، واعْتَبِروا يا أَحْبَابي، مِن خَسَارةِ نَفْسي الفاسِدَة، في مُعامَلَتِها الكاسِدَة، مِن إيثارِ الدُّنيا الفانِيَة، مع مُعارَضَتِها للعُقْبَى الباقِيَة، على الدِّينِ القَوِيم، المُوْصِلِ إلى النَّعيمِ المُقِيم، حيثُ لَمْ تَشْتَرِ المُلْكَ الباقيَ بالثَّمنِ الفاني، ولَمْ تَقْصِدْ تَحْصيلَ الدِّينِ بتَركِ الدُّنيا بحُسنِ النِّيَّة وصفاءِ الطَّوِيَّة، وفيه مُبالَغةٌ لا تَخْفَى، وإيماءٌ إلى عَدَمِ إمكانِ الجمعِ بينَ الدِّين والدُّنيا.

وقال بعضُ أهلِ الإشارة: أي: لَمْ يَسْتَبْدِلِ الدُّنيا بالدِّين مع أنَّه يَحصلُ بأَدْنَى تبديلٍ، وهو حَكُّ الأَلِفِ الدَّالَّةِ على خِسَّةِ الأُنوثةِ، وتقديمُ ياءِ اليمينِ الـمَعْطورةِ[1] لتقديمِ الـمَبَرَّة، وتقديمُ الهِمَّةِ على تأخيرِ[2] نُونِ النَّفسِ المائلة إلى الزَّهرة.

١٤٤ ـ ومَن يَبِعْ آجِلاً مِنهُ بعاجِلِهِ يَبِنْ لهُ الغَبْنُ في بَيْعٍ وفي سَلَمِ

الآجِلُ بالمدِّ هو الآتي بعدَ أَجَلٍ، والمرادُ به العُقْبَى، والعاجِلُ: الواصِلُ على عَجَلٍ، والمرادُ به الدُّنيا، و(منهُ) يُقرأُ بالإشباعِ، وضميرُه راجعٌ إلى (مَن)، وكذا ضميرُ (عاجِله)، ورُوِيَ: (بعاجِلَةٍ) بالتَّأنيثِ.

وقيل: ضميرُ (مِنه) يعودُ إلى (الدِّين).

ومَدْخولُ الباءِ هو الثَّمنُ المأخوذُ دونَ الثَّمَنِ المتروكِ، على عكسِ الشَّرْي، وتنوينُ (بيعٍ) و(سَلَمٍ) عِوَضٌ عن المضافِ إليه؛ أي: بَيْعِهِ وسَلَمِهِ.

و(يَبِنْ) مضارعٌ مجزومٌ؛ مِن بانَ يَبِينُ ـ كباعَ يَبيعُ ـ بمعنى: ظَهَر.

والبيعُ أنواعٌ: بيعُ العينِ بالعينِ وهو المقايَضةُ، وبيعُ الدَّينِ بالعينِ وهو السَّلَمُ بفتحتين، وبيعُ العينِ بالدَّينِ وهو الـمُدَايَنة، وبيعُ الثَّمَنِ بالثَّمَنِ وهو الصَّرْفُ.

وما نحنُ فيهِ مِن قَبِيلِ السَّلَم، ولذا تَعَرَّضَ له مع انْدِراجِه تحتَ البيع، وفيهِ إشارةٌ إلى ردِّ مَن يقولُ مِن الـمَلاحِدة: الدُّنيا نقدٌ والآخرةُ نَسِيئةٌ، وإعطاءُ النَّقدِ لها غيرُ معقولٍ، فإنَّ السَّلَمَ إنَّما يكونُ بإعطاءِ النَّقدِ للنَّسيئةِ، وحُذَّاقُ التُّجَّارِ[3] تلقَّوهُ بالقَبول، ولذا ذَمَّ اللهُ الكفَّارَ بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠ ـ ٢١]، وقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾؛ أي:

(١) في «د»: «المقطورة».

(٢) في «د»: «وتأخير»، بدل: «على تأخير».

(٣) في «د»: «التجارة».

لا ما يَشاءُ ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾؛ أي: لا لكُلِّ مَن يُريد ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾؛ أي: مَطْروداً، ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢٠]؛ أي: ممنوعاً.

حاصلُ المعنى: مَن أَخَذَ العاجِلَ وتَركَ الآجِلَ، يَظهرُ له الخسارةُ الكُلِّيَّةُ في تجارتِهِ، والغَبْنُ الفاحشُ في مُعامَلته.

قال الغزاليُّ رحمهُ اللهُ: لو كانتِ الدُّنيا ذَهَباً فانياً، والآخِرةُ خَزَفاً باقياً، لاختارَ العاقلُ الخزفَ الباقيَ على الذَّهبِ الفاني، فكيف والأمرُ بالعكسِ.

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾؛ أي: بإعطاءِ الدُّنيا له أيضاً، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ أي: بعضَها، ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

١٤٥ ـ إنْ آتِ ذَنْباً فما عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ   مِنَ النَّبيِّ ولا حَبْلِي بمُنْصَرِمِ

رُوي: (عَقْدِي) موضعَ: (عَهْدِي).

والمعنى: إنْ أَفْعَلْ ذَنباً أو أُسِئْ كَسْباً، وعَدَلَ عن قولِه[1]: إنْ أَذْنَبْتُ، إمَّا للاستِحضار، أو لإرادة الاستِمْرار (فليس عَهْدِي) وهو الإيمانُ بالنَّبيِّ ـ أو الأمَانُ منه ـ مُنْتَقِضاً؛ لأنَّ نقضَ التَّوبةِ بارتكابِ المعصيةِ لا يَنقُضُ عهدَ الإيمانِ، ولا عَقْدَ الأمَان، (ولا حَبْلي)؛ أي: ولا تَعَلُّقي بذيلِ محبَّتِهِ ورجاءِ شفاعَتهِ بـمُنْقطِعٍ، لا مِن جانبي ولا مِن جِهَتِهِ.

وقيل: المرادُ مِن العهدِ ما يُفْهَمُ مِن قولِهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «مَن

(١) في «ل»: «قوله الظاهر».

قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ دَخَلَ الجنَّةَ»[١]، وبالحَبْلِ ما يُعْلَمُ مِن قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

١٤٦ ـ فإنَّ لي ذِمَّةً مِنْهُ بتسمِيَتي محمَّداً وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بالذِّمَمِ

يُقرأُ (منهُ) بإشباعِ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، و(تَسْمِيَتي) مصدرٌ مجهولٌ مُضافٌ إلى مَفعولِهِ الأوَّل، و(محمَّداً) مفعولُه الثَّاني، و(الذِّمَم) بكسرِ أوَّلِهِ: جمعُ الذِّمَّة، وهي العهدُ والأَمَان، والإسلامُ والإيمان.

وقيل: المرادُ بالذِّمَّة هنا: وعدُ الشَّفاعةِ لِمَن يُسَمَّى بمحمدٍ وأحمدَ على ما رُوِيَ[٢].

وحاصلُ هذا البيتِ تعليلٌ للحُكْمِ في البيتِ السَّابقِ، والمعنى: لأنَّ اسْمِي محمدٌ، وهو دالٌّ على محبَّةِ أحمدَ، والاسمُ لا يتغيَّر بمخالَفةِ المسمَّى، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم بمراعاةِ الذِّمَمِ أَوْفَى، فيقومُ بحقِّها بالشَّفاعةِ لأهلِها في دارِ العُقْبَى!

١٤٧ ـ إنْ لَمْ يَكُنْ في مَعَادِي آخِذاً بيَدِي فَضْلاً وإلّا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ

الـمَعَادُ: مصدرٌ أو مكانٌ أو زمانٌ، والمرادُ به: رجوعُ الأرواحِ إلى الأبدانِ.

والأَخْذُ باليدِ كنايةٌ عنِ المُعاوَنةِ، و(فَضْلاً) تمييزٌ.

و(إلّا) بكسرِ الهمزةِ وتشديدِ اللّامِ، ورُوِيَ بالتَّنوينِ، وهو بمعنَى الذِّمَّةِ والعهدِ،

---

(١) رواه مسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه بلفظ: «ما مِن عَبْدٍ قال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، ثُمَّ ماتَ عَلَى ذلكَ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ».

(٢) روي فيه خبر مرسل لا يحتج بمثله على هذا الأمر الظاهر البطلان، فليس كل من تسمى بمحمد صارت له ذمة بهذه التسمية، فكم ممن اسمه محمد وهو ممن تسجر بهم النار، ولو نظر المؤلف إلى زماننا لرأى من هذا العجب العجاب. والخبر أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٣٩) عن جعفرِ بن محمَّدٍ، عن أبيه قال: إذا كان يومُ القيامةِ نادى مُنادٍ: ألا لِيَقُمْ مَن اسمُه محمَّدٌ فلْيدخُلِ الجنَّةَ؛ لكرامةِ اسمِه عليه السلام.

قال اللهُ تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ١٠]، وهو الصَّحيحُ؛ أي: إنْ لَمْ يَكنْ مُعِيناً لي (فَضْلاً)؛ أي: إحساناً زائداً على الوَعْد، أو عَدْلاً وهو الوفاءُ بالذِّمَّة والعَهْد. فالواوُ بمعنى (أو).

ورُوِيَ بغيرِ تنوينٍ، فهو مركَّبٌ مِن (إنْ) الشَّرطيَّةِ و(لا) النَّافيَةِ، بمعنَى: وإنْ لَمْ يكنْ كذلك، وظاهِرُه مُفْسِدٌ للمعنَى كما لا يَخْفَى، فهو بمعنَى الشَّرطِ الأوَّلِ وتأكيدٌ له.

والجوابُ: (فقُلْ) خطاباً لمَن جرَّدَه مِن نَفْسِه؛ أي: فقُلْ: يا زَلَّةَ القَدَمِ احْضُرِي فهذا أَوَانُكِ، وهي عبارةٌ عن الوقوعِ في المهالِكِ، ويُـمْكِنُ حملُها على مَزْلقةِ القَدَمِ عن الصِّراطِ بالوقوعِ في النَّارِ.

ويُمْكِـنُ أنْ يُقـال: الخطـابُ عـامٌّ؛ أي: فقُـلْ لـي أيُّهـا المخاطَـبُ: يـا فلانُ، احْـذَرْ زَلَّـةَ القَدَمِ.

وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ تقديرَه: وإنْ لَمْ يَكنْ عهدٌ في الأُولَى وفَضْلٌ في الأُخْرى، ففيهِ: أنَّ الشَّرطَ الأوَّلَ حينئذٍ يبقَى بلا جزاءٍ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ يُقالَ: يَدُلُّ عليه الجزاءُ الثَّاني.

وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ المعنَى: وإنْ لَمْ يَكنْ فضلاً بأنْ يكونَ عدلاً، ففيه مع ما تَقدَّمَ: أنَّه غيرُ صحيحِ المعنَى؛ لأنَّه لا يُنْسَبُ العدلُ في ذلك اليومِ إلَّا إلى اللهِ تعالى، وأيضاً يَرْجعُ الكلامُ إلى أنَّه: إن كان آخِذاً[1] بيدي عَدْلاً، وهو غيرُ مُلائِمٍ كما لا يَخْفَى.

١٤٨ ـ حاشَـاهُ أنْ يُحْرَمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ ... أو يَرْجِـعَ الجـارُ منـهُ غيـرَ مُحْتَرَمِ

(حاشَاهُ) تَنزيهٌ له، أو معناه: جانَبَهُ، و(يُحْرَم) مِن حَرَمَهُ يَحْرِمُه؛ كـ: ضَرَبَهُ يَضْرِبُه، أو من أَحْرَمَهُ بمعنى: مَنَعهُ، يتعدَّى إلى مفعولَيْنِ، وهو مَبْنيٌّ على المفعول.

وقيل: على الفاعِلِ، وسكونُ (الرَّاجي) مِن ضَرورةِ الشِّعر.

---

(١) في «ل»: «إن أخذ»، والمثبت من «د»، لكن وقع فيها «آخذ» بالرفع، والصواب المثبت.

و(الجارُ) مرفوعٌ، فـ(يَرْجِعُ) لازِمٌ بمعنَى: يَصِيرُ ويَعُودُ، أو منصوبٌ، فهو مُتَعدٍّ بمعنَى: يَرُدَّ ويُعيدَ. والجارُ بمعنَى الـمُستجيرِ الدَّاخِلِ في الجِوارِ والعهدِ والأمانِ.

وضميرُ (منهُ) بالإشباعِ إلى النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم، و(مُحْتَرَم) اسمُ مفعولٍ، ونُصِبَ (غيرَ) على الحاليَّةِ مِن (الجار).

والمعنى: أنَّه صلى الله تعالى وسلم مُنزَّهٌ عن أنْ يَحْرِمَ راجِيَهُ عن الإكرام، أو يَرُدَّ المُستَجِيرَ منه بغيرِ احْتِرام، فإنَّه مَعْدِنُ الكَرَامات، ومَنْبَعُ الاحْتِرَامات.

١٤٩ ـ ومُنْـذُ أَلْزَمْـتُ أفـكارِي مَدَائِحَـهُ وَجَدْتُـه لخَلَاصِـي خَيْـرَ مُلْتَـزِمِ

(منذُ) بمعنى: أوَّلَ المُدَّةِ، مفعولٌ فيه لـ (وَجَدْتُ)، ولـ (خَلَاصي) مفعولٌ لـ (مُلْتَزِم) بكسرِ الزَّاي، واللَّامُ لتقويةِ العملِ، يقالُ: أَلْزمْتُه الشَّيءَ فالْتَزَمهُ؛ أي: جَعَلْتُه كفيلاً للشَّيءِ فتكَفَّلَ به وأَوْجَبَهُ على نَفْسِهِ.

والأَظْهَرُ أنَّ اللَّامَ للعلَّةِ متعلِّقةٌ بـ (وَجَدْتُه).

والمعنى: أنَّ مِن مَكارِمِهِ الحَسَنةِ وأخلاقِهِ المستَحْسَنةِ أنِّي مِن حينِ تَوَجَّهْتُ إليه صلى الله تعالى عليه وسلم بصَرْفِ أفكارِي لَدَيهِ في إنشاءِ مَدائِحِهِ بإخلاصِ النِّيَّةِ وصفاءِ الطَّوِيَّة، تكَفَّلَ لي وقامَ بتخليصِي مِن كلِّ شِدَّةٍ وبَلِيَّة[1].

١٥٠ ـ ولَـنْ يَفُـوتَ الغِنَى منهُ يَـداً تَرِبَتْ إنَّ الحَيَـا يُنْبِتُ الأزهـارَ في الأَكَمِ

(الغِنَى) بالكسرِ مع القَصْرِ بمعنَى اليَسَارِ، ومع المَدَّةِ بمعنَى التَّغَنِّي، وبالفتحِ مع القَصْرِ: الإقامةُ، ومع الـمَدَّةِ: الكِفَايةُ، وقد جَمَعَ الأربعةَ مَن قال:

مَـنْ يَكُـنْ ذا غِنًـى يَـمِلْ فـي غِنَائِـي فـي دُرُوءٍ[2] غَنًـى لأهـلِ الغَنَـاءِ

(١) وهذه المحبة لا بدَّ لها من شواهد عملية من متابعة سنة خير البريَّة، ولعلَّ الناظم ثم الشارح أغفل هذا التنبيه؛ لوضوحه عند كل نبيه.

(٢) في «ل»: «دور».

و(منهُ) بإشباعِ الضَّميرِ صفةٌ لـ (الغنى)؛ أي: مِن جِهَتِهِ، و(يداً)؛ أي: عن يَدٍ، و(تَرِبَتْ)؛ أي: افْتَقَرتْ، وأُرِيدَ باليدِ أَيْدِي المحتاجِينَ، والنَّكِرةُ في سياقِ النَّفْي تُفيدُ العمومَ.

ويجوزُ أن يُرادَ بالغِنَى: المالُ، ويُؤيِّدُه نُسخةُ: (النَّدَى) بفتحِ النُّونِ بمعنَى العطاء.

و(الحَيَا) بالقَصْرِ: المطرُ، و(الأزهار): جمعُ زَهْرٍ، و(الأَكَم): جمعُ أَكَمَةٍ بمعنَى: الرَّبْوةِ، وهي التَّلّ، والمقصودُ تَشْبيهُ جُودِهِ بالجَوْدِ في عُمومِ النَّفْعِ، وقَطْع النَّظَرِ عن أنَّ مَحلَّه يستأهِلُ العطاءَ أو يَستحِقُّ المَنْعَ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّه رحمةٌ للعالَمِين، وسببٌ للغِنَى الظَّاهِريِّ والباطِنيِّ للعلماءِ العامِلِين.

والبيتُ الذي قَبْلهُ كان مُفيداً لدَفْعِ الضُّرِّ عن المُلْتَجئ إليه، وهذا مُشيرٌ إلى حصولِ النَّفعِ من الطَّامِعِ لَدَيه.

ثُمَّ لـمَّا كانَ مُوْهِماً أنَّه أرادَ النَّفْعَ الدُّنْيويَّ دونَ الحظِّ الأُخْرويِّ، فدَفَعَ الوهمَ عن الخيالِ فقال:

١٥١ ـ ولَمْ أُرِدْ زهرةَ الدُّنيا التي اقْتَطَفَتْ ... يَدَا زُهيرٍ بما أَثْنَى على هَرِمِ

في أكثرِ النُّسخ: (اقْتَطَفَتْ)، يُقال: قَطَفَ الثَّمرةَ واقْتَطَفَها: جناها، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ المذمومَ إنَّما هو تكلُّفُ الحصولِ وطَلَبُ الوصولِ إلى الأمرِ الفاني، وأمَّا إذا وقعَ الفاني تَبَعاً للمَقْصودِ الباقي مِن غيرِ قَصْدٍ للفاني فلا يَضُرُّ؛ كما في مُوافَقةِ الهَوَى للهُدَى.

والمرادُ بـ(زَهْرة الدُّنيا): مُسْتلَذَّاتُها المشبَّهةُ بالزَّهرةِ في زِينةِ جمالِها وسُرعةِ زَوَالها.

و(زهير) بالتَّصغير: هو ابنُ أبي سُلْمَى ـ بضمِّ السِّين ـ أحدُ الشُّعراءِ السَّبعةِ الذين كانَتْ قصائدُهم مُعلَّقةً على بابِ الكعبةِ، فأُسْقِطَتْ عندَ نزولِ قولِه تعالى:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ الآية [هود: ٤٤]، والباقي: خالُه وأبوه وأُختُه وابنُه وبنتُه وسِبْطُه؛ أي: حفيدُه[١].

و(هَرِم) بفتحِ الهاءِ وكسرِ الرَّاء: ابنُ سِنَانٍ، رئيسُ قبيلةِ غَطَفانَ، وهو مِن أَجْودِ مُلوكِ العربِ، ولزهيرٍ فيه مَدَائحُ وأشعارٌ وَصَلَ بها منهُ إليهِ كثيرٌ مِن الصِّلَات، وعَطَايَا بالمطَايَا فوقَ العادات.

وقيل: الشُّعراءُ أربعةٌ: امْرُؤُ القيسِ إذا رَكِب، والنَّابِغةُ إذا رَهِب، وزُهيرٌ إذا رَغِب، والأَعْشَى إذا طَرِب.

والباء في (بما) للسَّبَبِيَّة، و(ما) مصدريَّةٌ أو موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ.

١٥٢ ـ يا أَكْرَمَ الخَلْقِ ما لي مَن أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ

(الخَلْق) بمعنَى المخلوقِ، واللَّامُ للجنسِ أو الاسْتِغْراق، وفي نسخةٍ: (الرُّسْلِ) بسكونِ السِّينِ: جمعُ الرسولِ[٢]، ويَلْزَمُ منه أنْ يكونَ أفضلَ الخَلْقِ بالأَوْلَى، ويكونُ نصًّا للرَّدِّ على المعتزلةِ القائلينَ بتفضيلِ الملائكةِ[٣].

و(ما) نافيةٌ، أو استِفْهاميَّةٌ إنكاريَّة[٤].

واللَّوْذُ بمعنَى: الالْتِجاءِ والعَوْذ، والحُلُول: الوُقوعُ والنُّزولُ، و(الحادث) مُفْرَدُ الحادِثات، بمعنَى: الآفاتِ والبَلِيَّات.

---

(١) قوله: «أي حفيده» ليس في «ل».

(٢) في «ل»: «جمع رسول الله».

(٣) في هذا الكلام نظر، فكيف يكون بيت شعر لأحد المتأخرين، نصاً في الرد على طائفة تتذرع بنصوص الدين؟ وهل يكون هذ إلا بالقرآن الكريم، أو حديث سيد المرسلين، أو إجماع من الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم أجمعين؟

(٤) وجه الاستفهام هنا غير ظاهر، إلا أن يعتبر الاستفهام أيضاً في: «من ألوذ..»، وفيه تكلف. على أنه لو أراده لأشار إليه.

و(العَمِم) بفتحِ العينِ المهملةِ والميمِ الأُولَى، أو بكسرِ الميمِ الأُولى، وكِلَاهُما مسموعٌ مِن (عَمَّ) ضِدٌّ (خَصَّ).

والمرادُ بـ(الحادث): الشَّامِلُ إمَّا الموتَ وهي القيامةُ الصُّغرَى، وإمَّا السَّاعةَ، وهي القيامةُ الكُبرى، والـمُرادُ[1]: الشَّفاعةُ العُظْمَى.

واعْلَمْ أنَّه لـمَّا ذَكَر النَّاظِمُ نُعوتَ ذاتِهِ وكمالَ صِفَاتِهِ ﷺ، انْتَقَلَ مِن حالِ الغَيبةِ إلى مَقامِ الحُضورِ، فناداهُ بالخِطَابِ بأحسنِ الآدابِ، كما قيل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ في صَدْرِ الكتاب:

١٥٣ ـ ولن يَضِيقَ رَسولَ اللهِ جاهُكَ بي إذا الكريمُ تَحلَّى باسمِ مُنْتَقِمِ

(رسولَ اللهِ) منادى حُذِفَ حرفُ نِدائِهِ، والجاهُ مِن الوَجَاهَةِ، وهي رِفْعةُ المنزِلة، وسَعَةُ الـمَرْتَبة، و(بي) مُتعلِّقٌ بـ(يَضِيقُ)؛ أي: بسببِ شَفاعَتي، و(إذْ) كـ(إذا) في نسخةٍ للظَّرْفيَّة، و(تَحلَّى) بالحاءِ: اتَّصَفَ، وبالجيمِ: انْكَشَفَ، والأوَّلُ أصحُّ رِوايةً، والثَّاني أَوْضحُ دِرايةً، فإنَّ الاتِّصافَ أزليٌّ، والانْكِشافَ زَمانيٌّ.

و(الكريمُ) هو اللهُ تعالى، وخُصَّ بالذِّكْرِ مع أنَّه مِن صفاتِ الجَمَال، في مَقامِ الانتقام مع أنَّه مِن صفاتِ الجَلَال؛ ليَحْصُلَ الاعْتِدال، ولا تَنْقطِعَ قلوبُ الرجال، وهذا مَزْجٌ لَطيف، ومعجونٌ شَريف، كما في قولِهِ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، تعليماً لأنْ يقولَ: ما غرَّني إلَّا كَرَمُكَ. أو في الجمعِ بينهُما إيماءٌ إلى ما قيل: نعوذُ باللهِ مِن غَضَبِ الحَليم.

ثُمَّ يَحتمِلُ أنْ يكونَ البيتُ الأوَّلُ مُشيراً إلى الشَّفاعةِ الكبرَى عند عمومِ البَلْوَى حين يقولُ الخَلْقُ: نَفْسِي نَفْسِي، حتى الأنبياءُ، والبيتُ الثَّاني مُشْعِراً إلى الشَّفاعاتِ الخاصَّةِ لهذه الأمَّةِ في مَوَاطِنِ القيامةِ، وهذا مِن جاهِهِ عندَ اللهِ؛ لأنَّ الجاهَ هو القَدْرُ والمَنْزِلةُ، ولا مَنْزِلةَ فوقَ هذه المَرْتبة.

---

(١) في «د»: «والمراد باللوذ».

١٥٤ ـ فإنَّ مِن جُودِكَ الدُّنيا وضَرَّتَها ... ومِن عُلُومِكَ عِلْم اللَّوْحِ والقَلَمِ

(مِن) تَبْعيضيَّةٌ، و(ضَرَّتَها) بالنَّصْبِ عطفاً على (الدُّنيا) بالاسميَّةِ، وهي الآخرةُ شُبِّهتْ بالضَّرَّةِ لتَعَذُّرِ الجمعِ بينها وبينَ صاحبتِها كتَعَسُّرِ الجمعِ بين المرأتَيْنِ، كما قال ﷺ: «مَن أَحَبَّ آخِرَته أَضَرَّ بدُنْياهُ، ومَن أَحَبَّ دُنياهُ أَضَرَّ بآخِرتهِ، فآثِرُوا ما يَبْقَى على ما يَفْنَى»[1].

ومن اللَّطائفِ ما قيل[2]:

عَتَبْتُ على الدُّنيا لتأخيرِ عالِمٍ ... وتقديمِ ذي جَهْلٍ فقالَتْ خُذِ العُذْرَا

بنو الجَهْلِ أبنائي لذاكَ رَفَعْتُهُمْ ... وأهلُ النُّهَى أولادُ ضَرَّتي الأُخْرَى

و(عِلْم اللَّوحِ) منصوبٌ، وقيل: مرفوعٌ، ووَجْهُهما ظاهِرٌ.

والجودُ صفةٌ هي مبتدأُ[3] إفادةِ ما يَنبغي لا لِعِوَضٍ ولا لغَرَضٍ.

والمعنى: لن يَضِيقَ جاهُكَ بجُودِكَ بواحدٍ مِن أمَّتِكَ؛ لأنَّ مِن جملةِ جُودِكَ وإحسانِكَ إلى الخلقِ جميعاً خيرَ الدُّنيا بالهدايَة، وخيرَ العُقْبَى بالشَّفاعَة.

وقيل: مَعنَى كونِ الكونَيْنِ مِن جُودِه: أنَّه واسِطةٌ في فَيَضانِ الوجودِ على الماهِيَات، وسَيَلانِ الجُودِ على الموجودات، وفيه تلميحٌ إلى حديثِ: «لولاكَ لَمَا خَلَقْتُ الأَفْلاكَ»[4].

واضْطَرَبَ الشُّرَّاحُ في المِصْراعِ الثَّاني:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٠٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) في هامش «ل»: «من الطويل».

(٣) في «ل»: «مبدأ».

(٤) ليس له أصل كما تقدم عند شرح البيت رقم (٣٣).

فقيل: العلمُ مصدرٌ مضافٌ إلى فاعِلِهِ؛ أي: عِلْمُ اللَّوحِ والقلمِ بالأشياءِ، فاحتاجَ إلى القولِ بأنَّ لهما إدراكاً وشعوراً بما نُسِبَ إليهما.

وقيل: إنَّه مضافٌ إلى المفعولِ؛ أي: عِلْمُ النَّاسِ باللَّوحِ والقَلَمِ، فاحْتاجَ إلى القولِ بأنَّ فيه أقوالاً.

وقيل: إنَّ اللهَ أَطْلَعَه على ما كَتَبَ القَلَمُ في اللَّوحِ المحفوظِ[1]، وهو عِلْمُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، وهو الأظهرُ، وتوضيحُه: أنَّ المرادَ بعلمِ اللَّوحِ: ما أُثْبِتَ فيه مِن النُّقوشِ القُدْسيَّة، والصُّورِ الغيبيَّة، وبعِلْمِ القَلَمِ: ما أُثْبِتَ فيه كما شاءَ، والإضافةُ لأدْنى مُلابَسةٍ، وكونُ عِلْمِهما مِن عُلومِهِ: أنَّ عُلومَهُ تتنوَّعُ إلى الكُلِّيَّاتِ والجُزئِيَّات، وحقائقَ ودَقائقَ، وعَوَارِفَ ومَعارِفَ، تتعلَّقُ بالذَّاتِ والصِّفاتِ، وعِلْمُهما إنَّما يكونُ سَطْراً مِن سُطورِ عِلْمِهِ، ونَهراً مِن بُحورِ عِلْمِهِ، ثُمَّ مع هذا هو مِن بركةِ وُجودِهِ على ما نُقِلَ أنَّه وَرَدَ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ نُورِي، فنَظَرَ إليهِ تعالى نَظَرَ هيبةٍ فانْشَقَّ نِصْفينِ، فتَخَلَّقَ مِن نصفِهِ الكونَيْنِ»[2]، وهو المرادُ مِن القلمِ، ولذا وَرَدَ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ»[3]، فلا تَعارُضَ.

والحاصلُ: إنَّ الدُّنيا والآخرةَ مِن آثارِ وُجُودِكَ وَجُودِك، وما ظَهَرَ مِن القلمِ على اللَّوحِ مِن أسرارِ مَعارِفكَ وأنواعِ عُلُومِكَ[4].

---

(١) في هامش «ل»: «قوله: وقيل: إن الله أطلعه على ما كتب القلم في اللوح، كما ترى مخالف لما ذكره المفسرون المحققون في قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال البيضاوي: لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة، وقال صاحب «الكشاف»: لا يطلع على اللوح غير الملائكة، وقال أبو السعود: لا يطلع على اللوح في سواهم إلا الملائكة، وكذا سائر المفسرين المحققين فليطلب ثَم. لمحرره».

(٢) لم أجده.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩)، من حديث عبادة بن الصامت رضيَ اللهُ عنه، قال الترمذي: حسن غريب.

(٤) تقدم الكلام عن هذا البيت في طليعة التقديم لهذا الشرح.

وفي البيتِ إيماءٌ إلى أنَّ الجاهَ على الحقيقةِ إنَّما هو بالعِلْمِ باللهِ، والجودِ على الخَلِيقةِ؛ كما وَرَدَ: أنَّ كمالَ الإيمانِ هو التَّعظيمُ لأمرِ الله، والشَّفَقةُ على خَلْقِ الله.

١٥٥ ـ يا نَفْسُ لا تَقْنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ   إنَّ الكبائـرَ فـي الغُفْـرانِ كاللَّمَـمِ

رُوِيَ (نَفْس) بضمِّ السِّينِ على أنَّهُ منادًى مُفْردٌ معرفةٌ، وبكَسْرِها على أنَّه منادًى مُضافٌ إلى ياءِ المتكلِّم، وفي تخصيصِ النَّفْسِ بالخِطاب، وما يترتَّبُ عليه مِن العِقاب، إشعارٌ بأنَّ القُنوطَ إنَّما يَنشأُ مِن النَّفْسِ، وإلَّا فالعقلُ مُجوِّزٌ والنَّقلُ مُصحِّحٌ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

وفيه ردٌّ على المعتزِلةِ والخَوارِج، الخارِجينَ عن وَرْطةِ العَقْلِ وإحاطةِ النَّقْلِ، الدَّاخِلينَ في حَضِيضِ النَّفْسِ، القانِطِينَ مِن رحمةِ الله، الآيِسينَ مِن فَضْلِ الله، قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ الكفرَ هو محلُّ اليأسِ، لا غيرُه من الكبائر.

و(لا تَقْنَطي) بفتحِ النُّونِ وكسرِها، و(إنَّ الكبائر) استئنافٌ فيه معنَى التَّعليلِ.

والمعنـى: أيُّها النَّفْسُ ـ أو: يا نَفْسِي ـ لا تَيْأَسـي مِـن غُفْرانِ زَلَّـةٍ، أو مِن أَجْلِ إتْيـانِ معصيـةٍ كَبُرتْ فـي الكيفيَّـة، أو كثُرتْ فـي الكمِّيَّة، فـإنَّ الكبائرَ مِـن الذُّنوب، فـي جنـبِ غُفـرانِ غَفَّـارِ الذنـوب، كالصَّغائـرِ مِـن العُيـوب، فإنَّهمـا تستوِيَانِ فـي كونهمـا تحـتَ القُـدْرةِ، وضِمْنَ المَشـيئةِ، كما تُشير إليـه الآيةُ.

وقد وَرَدَ: أنَّه لمَّا نَزلَ قولُه تعالى في حَقِّ خُلَّصِ عِبَادِه، وكُمَّلِ عُبَّادِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] أَنشدَ صلى الله تعالى عليه وسلم:

«إنْ تَغْفِـرِ اللَّهُـمَّ فاغْفِـرْ جَمَّـا   فـأيُّ عَبْـدٍ لـكَ لا أَلَمَّـا»[١]

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٨٤) من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما، وقال: حسن صحيح غريب.

وقال القُشيريُّ في قولِه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ الآيةَ: التَّسميةُ بـ ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ مدحٌ، والوصفُ بأنَّهم أَسْرَفُوا ذَمٌّ، فلمَّا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ طَمِعَ المُطِيعون أنْ يَكونوا هُمُ المقصودِينَ بالخِطَاب، والمطلوبِينَ بالعِتَاب، فرفَعُوا رُؤوسَهم، ونكَسَ العُصاةُ أعناقَهم، وقالوا: مَن نحنُ حتَّى يقولَ لنا هذا؟ ولمَّا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ انْقَلَبَ الحالُ، وتَقَلَّبَ الآمالُ، والذين نَكَسُوا رُؤوسَهم انْتَعَشوا وزالَتْ ذِلَّتُهم، والذينَ رَفَعوا رُؤوسَهم أطْرقوا وارْتَفعَتْ صَوْلَتُهم، ثُمَّ سلَّاهُم بقولِه: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، ثُمَّ قوَّاهُم بقولِه: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ أكَّدَ ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ المستغرِقَ بالألِفِ واللَّامِ بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فكأنَّه قال: أَغْفِرُ ولا أَتْرُكُ، فإنْ كان لكم جِنايةٌ عَمِيمَة، فلي عِنَايَةٌ قَدِيمَة[1]، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

١٥٦ ـ لعلَّ رحمةَ ربِّي حينَ يَقْسِمُها تَأْتي على حَسَبِ العِصْيانِ في القِسَمِ

(القِسَم) بكسرِ القافِ: جمعُ القِسْمةِ؛ أي: أَرْجُو مِن حُسْنِ ظنِّ قلبي أنَّ رحمةَ ربِّي حينَ يَقْسِمُها ويُظْهِرُها يومَ القيامَة، على أربابِ النُّفوسِ اللَّوَّامَة، تأتي على مِقْدارِ عِصْيانِهم، لا على حَسَبِ حِرْمانِهم، وإلَّا فرَحْمتُه أوسعُ مِن ذنوبِنا، وفضلُه أشملُ مِن عُيوبِنا، أو تَظهرُ على مَراتبِ العِصْيان، الصَّادرةِ مِن نوعِ الإنسان، بأنْ تكونَ الرَّحمةُ الصَّغيرةُ على طبقِ السَّيِّئةِ الصَّغيرة، والكبيرةُ على وَفْقِ الكبيرة، وكذا القليلةُ والكثيرة، ولذا قال بعضُ الظُّرَفاء مِن كُمَّلِ العُرَفاء: مِن كمالِ ظُهورِ الرَّحمةِ في العُقْبَى يَنْدمُ المُذْنبونَ على تقليلِ مَعْصِيَتِهم في الدُّنيا، ويَدلُّ عليه ما وَرَدَ في المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُظْهِرُ صَغائرَ عبدٍ ويعفُو عنها، ويُعْطي في مُقابِلِها أجوراً كثيرةً، فيقولُ العبدُ: كان

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٢٨٧).

لي ذُنوبٌ كبيرةٌ؟ فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُه[1]. فهذا يَدُلُّ على سَعَةِ الرَّجاءِ، فيجبُ الْتِزامُ الدُّعاءِ واللَّجاء.

١٥٧ ـ يا ربِّ واجْعَلْ رَجَائي غيرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ واجْعَلْ حِسَابي غيرَ مُنْخَرِمِ

(رَبِّ) محذوفُ الياءِ اكْتِفاءً بالكسرةِ، وفي نسخةٍ: (فاجْعَلْ) بالفاء. والانْخِرامُ بالخاءِ المعجَمةِ بمعنى: الانْقِطاع.

والمعنى: (يا ربِّ) ارْحَمْني بمحوِ عُيوبي وغُفْرانِ ذُنوبي، (واجْعَلْ رَجائي غيرَ مُنْعَكسٍ) عِندكَ بأنْ يكونَ الخِذْلانُ موضعَ الغُفْرانِ، والعقوبةُ مكانَ الرَّحمةِ، (واجْعَلْ حِسَابي)؛ أي: حُسْباني وظنِّي بكَ غيرَ مُنْقطِعٍ عن فضلِكَ؛ لقولكَ في الحديثِ القُدْسيِّ: «أنا عندَ ظَنِّ عَبدي بي»[2].

١٥٨ ـ والْطُفْ بعبدِكَ في الدَّارَيْنِ إنَّ له صَبْراً مَتَى تَلْقَهُ الأهوالُ يَنْهَزِمِ

اللُّطْفُ هو الإحسانُ الخَفيّ، أو الذي ليسَ له سببٌ جَلِيّ.

وقيل: مِن لُطفِهِ تعالى بالعبدِ إبهامُ عاقبتِهِ عليه، لأنَّهُ لو عَلِمَ سعادَتَهُ لقلَّ عملُه واسْتَنَدَ إليه، ولو عَلِمَ شَقاوَتَهُ أَيِسَ وتركَ التَّذلُّلَ لَدَيْه.

وقيل: مِن لُطفِهِ إليه إخفاءُ أجَلِهِ عليه؛ لئلَّا يَستَوْحِشَ إنْ كان قد دَنَا أجلُه، ولا يَسْتعصِيَ إذا طالَ أملُه، ويَستأخِرَ عَمَلَه.

---

(١) رواه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذر رضِيَ اللهُ عنه. وتبديل السيئات حسنات ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. لكن هذا لا يعني أن الإنسان يتمنى لو كان قد زاد من المعاصي في الدنيا، فإن هذا مخالف لنصوص الشريعة ومقاصدها التي تدل على أن الإنسان يندم في الآخرة على لحظة من حياته قضاها في غير طاعة الله، فكلام ذلك الظريف من الكمَّل ليس صواباً، فلعل جاهلاً يسمعه فيبادر إلى اغتنام الفرصة في الدنيا بالإكثار من المعاصي لئلا يكون في الآخرة من النادمين!

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رضِيَ اللهُ عنه.

وفي نسخةٍ: (وارْفُقْ) موضعَ: (والطف)، وفي نسخةٍ: (تَدْعُهُ) موضع: (تَلْقَهُ)، واللُّقِيُّ أَظْرفُ.

والمعنى: اُلْطُفْ يا لطيفُ بعبدِكَ الضَّعيف، في الدُّنيا بتوفيقِ الطَّاعَة، وفي العُقْبَى بالرَّحمةِ ونَيْلِ الشَّفاعَة، إنَّ لهُ صبراً قليلاً يتقلَّبُ في الأحوال، مَتَى تَلْقَهُ الأفزاعُ والأهوال، يَنْهَزِمْ ولا يَثْبُتْ كالجبالِ مِن الرِّجال.

ثُمَّ لا مَلْجأَ أقوَى مِن مُتابَعَتِهِ ومُلَازَمته صَلاتَهُ ﷺ، وشرَّفَ وكرَّم، ولذا قال:

١٥٩ ـ وائْذَنْ لسُحْبِ صلاةٍ مِنكَ دائمَةٍ ... على النَّبيِّ بـمُنْهَلٍّ ومُنْسَجِمِ

(أَذِنَ) بمعنى: أَمَرَ[١]، مِن بابِ عَلِمَ. (السُّحُبُ) بضمَّتينِ: جمعُ سَحَابٍ، وسُكِّنَ حاؤُه تخفيفاً، والـمُرادُ مِن الصَّلاةِ مَزيدُ الشَّرفِ والكرامةِ. و(مِنْكَ) صفةُ (صَلاةٍ)؛ أي: واقعةٍ. و(دائمَةٍ) صفةٌ بعدَ صفةٍ. و(على النَّبيِّ) متعلِّقٌ بـ(صلاةٍ) أو (دائمةٍ).

و(بـمُنْهَلٍّ) متعلِّقٌ بـ(ائْذَنْ)، و(مُنسَجِم) بكسرِ الجيمِ على الصَّحيحِ عطفٌ عليه، والتقديرُ: ائْذَنْ لها بإفاضةِ مطرٍ مُنْصَبٍّ سائلٍ.

قيل: أَتَى النَّاظِمُ بالصَّلاةِ على سيِّدِ[٢] الكِرَامِ، بأبلغِ الوُجوه وأحسنِ الإكرام، حيث جَمَعَ في بيتهِ ذِكْرَ الصَّلاةِ، ودوامِها، ونُزولِها، ومُبتَدأَ النُّزولِ ومُنْتَهاهُ، وكثرتِها في ضِمْنِ الانْصِباب، وعُمومِها في طَيِّ السَّيَلان، ومَحَلِّها، وتَشْبيهِها بالأمطار، وإثْباتِ السُّحُبِ لها، فهذه عشرةُ أشياءَ تُستَفادُ مِن كلامِه، بعضُها بالدَّلالَةِ وبعضُها بالإشارَة.

وفي لفظةِ (ائْذَنْ) إيذانٌ بأنَّ سُحُبَ الصَّلاةِ حاضرةٌ واقِفةٌ موقوفةٌ على إذنهِ تعالى، والإذنُ متحقِّقٌ، فإنَّه سبحانهُ وتعالى مع الملأ الأَعْلَى يُصلُّونَ عَلَيْه،

---

(١) في «د»: «أَذِنَ أمَرَ».

(٢) في «ل»: «سبيل»، والمثبت من «د»، وهو الأنسب بالسياق.

وقـد أَمَرَ عَبيـدَه المُنْقادِينَ لَدَيْه، بقولـه: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] تَشـريفاً لـه وتَعظيماً، ومَهابـةً وتكريماً[١].

١٦٠ ـ ما رَنَّحَتْ عَذَبَاتِ البانِ رِيحُ صَباً وأَطْرَبَ العِيسَ حادِي العِيسِ بالنَّغَمِ

(رَنَّحتْ) بتشديدِ النُّونِ المفتوحةِ، والحاءِ المهمَلةِ؛ أي: مَيَّلَتْ، و(ما) مصدريَّةٌ ظَرْفيَّةٌ لـ(ائذن)، قيل: وتُسَمَّى: دَوَامِيَّةً على عُرفِهم؛ لإرادةِ الدَّوام بها، و: (مَا) مَدِّيَّةً؛ لدَلالتِها على مُدَّةٍ مَديدةٍ؛ فإنَّ هُبوبَ الصَّبَا وتَرْنيحَها لأفنانِ البانِ وإنْ لَمْ يُوجَدْ على الدَّوامِ، لكنْ يمتدُّ على مَديدِ الأَوَانِ وامتدادِ الزَّمان، انتهى.

وحاصلُ كلامِهِ: أنَّ المرادَ: ما دامَتِ الدُّنيا، وعبَّر بما لا يَخلُو عنهُما، ولهذا قال بعضُ الشُّرَّاحِ: وهذا كنايةٌ عن التَّأبيد.

و(عَذَبات) بالحركات؛ أي: أغصانَ البانِ، وهو شجرٌ له أغصانٌ لَطيفةٌ، وأصلُ عَذَبةِ الشَّيءِ: طَرَفُه اللَّطيفُ.

والصَّبَـا: هـي الرِّيـحُ التي تَهبُّ مِن مَطْلَعِ الشَّـمسِ إذا اسْـتَوَى اللَّيـلُ والنَّهارُ، وتُقابِـلُ بـابَ الكعبـةِ، فكأنَّهـا تَصْبُو إليهـا وتَمِيلُ، وقـد يُقالُ لهـا: القَبـولُ، وتُقابِلُها الدَّبـورُ، التـي تَهبُّ مِن دُبُرِ الكعبـةِ، وفي الحديـثِ: «نُصِرْتُ بالصَّبَـا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[٢].

قيل: ولكونِ الصَّبا حارَّةً رَطْبَةً تُؤثِّرُ في الأشجارِ والأَغْصانِ وتُلَيِّنُها، وتَهيجُ القُوَى النَّامِيَةَ في الأرضِ وتُزيِّنُها بأنواعِ الأنوارِ وأصنافِ الأزهار، يَتبرَّكُ الشُّعراءُ بذِكْرِها في الأشعار؛ كما قال:

---

(١) في هامش «ل»:

«وآلـه العـز والصَّحـب الذيـن عَلَـوا أهـلُ الصفـا والوفـا والعقـلِ والكـرمِ»

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما.

أَلَا يـا صَبَـا نَجْدٍ متَـى هِجْـتَ مِن نجدِ   فقد زادَني مَسْـراكَ وَجْـداً على وَجْدِ[1]

وإضافةُ الرِّيحِ إلى الصَّبَا مِن إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ، وهي فاعِلٌ، و(عَذَبات) مفعولٌ، كذا ذَكَره غالِبُ الشُّرَّاحِ، وهو المشهورُ على لسانِ الجمهور، لكنْ ذَكَرَ العلَّامةُ مولانا عِصامُ الدِّينِ أنَّ فيهِ إشكالاً، وهو أنَّ (رُنِّح) في اللُّغةِ مبنيٌّ للمجهولِ كما يَدُلُّ عليه «التَّاج» و«الصِّحاح»[2]، فينبغي أنْ يُقرأ مجهولاً، ويُجْعلَ (ريحُ صباً) فاعلَ فِعْلٍ محذوفٍ، أي: أَمَالَتْهُ ريحُ صباً؛ ليكونَ التَّركيبُ مِن قَبِيلِ: (يُسبَّحُ[3] له في الغُدُوِّ والآصالِ رجالٌ) [النور: ٣٦ـ٣٧]، انتهى.

والصواب: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

ثم رأيتُ «القاموس» وافَقَ بـ«الصحاح» فقال: تَرَنَّحَ: تَمايَلَ سُكْراً أو غيرَه، ورُنِّحَ عليهِ تَرْنِيحاً بالضَّمِّ: غُشِيَ عليه، أو اعْتَراهُ وَهْنٌ في عِظَامِهِ فتَمَايَلَ، وهو مُرَنَّحٌ كمحمَّدٍ[4].

لكنْ ظَهَرَ لي أنَّ بناءَ المجهولِ مُخْتَصٌّ بما إذا تَعَدَّى بـ (على)، ويَدُلُّ عليه خُصوصُ المعنى، ولأنَّ (تَرَنَّح) مُطاوِعٌ، فلا بدَّ له مِن فعلٍ مُتَعَدٍّ، وهو لا يكونُ إلَّا مَعلوماً كما هو معلومٌ، فارْتَفعتِ الجَهالةُ وصحَّ ما وَرَدَ، و[5]: «لا تَجْتَمِعُ أُمَّتي على الضَّلالةِ»[6].

---

(١) البيت من قصيدة لعبد الله بن الدمينة الخثعمي؛ كما في «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ١٠١).

(٢) انظر: «الصحاح» و«تاج العروس» مادة: (رنح). لكن الصواب أن المراد بـ«التاج» ليس «تاج العروس»، فإن الزبيدي صحاب «التاج» وفاته سنة (١٢٠٥هـ)، بينما المؤلف توفي سنة (١٠١٤هـ)؛ أي: قبله بحوالي مئتي عام، ووفاة العصام الإسفراييني سنة (٩٤٥هـ). انظر: «الأعلام» (٧/ ٧٠) و(٥/ ١٢) و(١/ ٦٦).

(٣) بالبناء للمفعول قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم. انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني (ص ١٦٢).

(٤) انظر: «القاموس» (مادة: رنح).

(٥) الواو من «د»، وليست في «ل».

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (١٣٦٢٣) و(١٣٦٢٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عنهما، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢١٨): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح، خلا =

ثُمَّ رأيتُ: قال ابنُ الغازي: يقالُ: رَنَّحَتِ الرِّيحُ الغُصونَ؛ أي: أَمَالَتْهُ. ثُمَّ ذَكَرَ ما في «الصحاح».

والطَّرَبُ[١]: الخِفَّةُ الحاصِلةُ مِن المَسَرَّةِ، المُقْتضِيَةُ للهَزَّةِ والحركةِ، مِن طَرِبَ يَطْرَبُ؛ كـ: حَفِظَ يَحْفَظُ، ويُعَدَّى بالهمزِ. و(العِيسَ) منصوبٌ على المفعوليَّة: جمعُ أَعْيَسَ، وهي الإبلُ التي يُخالِطُ بياضَها شُقرةٌ؛ أي: أبيضُ يَقْرُبُ إلى الحُمْرةِ، وهي كرائمُ الإبلِ، ولذا وَرَدَ في بعضِ الأحاديث: «أفضلُ مِن حُمرِ النَّعَم»[٢].

والحَدْوُ: سَوْقُ الإبلِ، وقيل: الغِناءُ بها، قال:

إنَّ غِنَاءَ الإِبِلِ الحُدَاءُ ... فغَنِّها وهي لكَ الفِداءُ[٣]

والنَّغَمُ بفتحتين: الصَّوتُ الحَسَنُ.

وفي[٤] «القاموس»: النَّغَمُ محرَّكةً وتُسَكَّن: الكلامُ الخَفِيُّ، الواحِدةُ بهاءٍ، ونَغَمَ في الغِنَاء كضَرَبَ ونَصَرَ وسَمِعَ، وتَنَغَّمَ[٥]، انتهى.

فما نَقَلَ ابنُ الغازي عن ابنِ المرزوق: أنَّ (النَّغَمَ) في بيتِ القَصيدةِ بكسرِ النُّون، يَحتاجُ إلى نقلٍ صَريح، أو دليلٍ صَحيح.

= مرزوق مولى طلحة وهو ثقة. ورواه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر أيضاً بلفظ: «إنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي ـ أو قال: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ـ على ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مع الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إلى النَّارِ»، قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجهِ. وله شاهد رواه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس رضِيَ اللهُ عنه.

(١) في «د»: «هذا والطرب».

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٢) من حديث سهل بن سعد رضِيَ اللهُ عنه، وفيه: أن النبي ﷺ قال لعلي رضِيَ اللهُ عنه في فتح خيبر: «فَوَاللهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ».

(٣) الرجز في «جمهرة اللغة» (٢/ ١٠٤٧)، و«دلائل الإعجاز» (ص ٢١٢).

(٤) في «د»: «هذا وفي».

(٥) انظر: «القاموس» (مادة: نغم).

والجامِعُ بينَ تَرْنيحِ الأغصان، وتفريحِ الـهَيَجان: إيصالُ طائفةٍ مِن النَّباتِ وجماعةٍ مِن الحيواناتِ إلى ظهورِ جمالِهما وحُصولِ كمالِهما، وفيهِ تنبيهٌ نبيهٌ على أنَّ الصَّلاةَ عليه مُوْجِبةٌ لجمالِ الـمُصَلِّي وكَمَالِه، ومُقْتضيَةٌ لطَرَبِ حالِهِ وحُسْنِ مَآلِه.

وصلَّى اللهُ على رسولِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أَجْمَعينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين[1].

قال مؤلِّفُه: فَرَغَ في أوائلِ شهرِ صَفَر، خُتِمَ بالخيرِ والظَّفَر، عامَ ستٍّ بعدَ الألْفِ مِن هجرةِ سيِّدِ البَشَر، في مكَّةَ المكرَّمَة، قُبالَةَ الكعبةِ المعظَّمَة، زادَها اللهُ تعالى شرفاً[2] وكرامة، وبِرًّا ومَهَابة.

والبيتانِ المشهورانِ في ذكرِ الآلِ والصَّحابةِ مُلْحَقانِ بالقصيدةِ، وليسا مِن كلامِ النَّاظِمِ، ولِذَا ما نَظَمْناهُ في سِلْكِ الشَّرحِ، فلا يَتوهَّمْ خِلَافَ ذلك الواهِمُ.

* * *

---

(١) في «ل»: «وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين». وفي الهامش: «بلغ مقابلة وتصحيحاً (٢٤) جمادى الأولى، سنة (١٠٦٥هـ) على يد أفقر الورى: محمد بن أبي أحمد عفي عنهما». وجاء في «د»: «تَـمَّتِ الأوراقُ بعونِ الملِكِ الرَّزَّاق، على يدِ العبدِ الـمُشْتاق، إلى رؤيةِ ربِّه الخَلَّاق، السيِّدِ عليٍّ غَفَرَ اللهُ لهُ ولوالدَيْهِ، ولسائرِ المؤمنينَ والمؤمنات، والمسلمينَ والمسلمات، سنةَ أربعٍ وستِّين ومئةٍ وألفٍ».

(٢) جاء بعده في «د»: وإحسانه، آمين بحرمة قرآن العظيم يا رحمن يا رحيم، بحرمة عرش العظيم، آمين يا معين».

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

طرف الآية	الرقم	الصفحة

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورة مريم

***

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٢ ـ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٤ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، ت: محمد الصباغ، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥ ـ الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج، ت: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان ـ بيروت

٦ ـ الأعلام، خير الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط٥، ١٩٨٠.

٧ ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: محمد عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٨ ـ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ت: علي مهنا، وسمير جابر، دار الفكر، لبنان ـ بيروت.

٩ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي)، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار الفكر ـ بيروت.

١٠ ـ البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١١ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، ت: مجموعة من المحققين، وزارة الإرشاد ـ الكويت، ط١، التواريخ مختلفة بحسب الأجزاء.

١٢ ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين، أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، ت: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٣ ـ التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، ت: السيِّد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.

١٤ ـ تاريخ دمشق، لأبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر.

١٥ ـ تخريج أحاديث الإحياء، أبو الفضل العراقي، ت: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض،ط١، ١٤١٥ ـ ١٩٩٥.

١٦ ـ الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري، ت: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

١٧ ـ التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ت: أوتو يرتزل، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٨ ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن ابن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، ت: شعيب الأرناؤوط ـ إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٩ ـ جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ت: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٠ ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ت: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٢١ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٢ ـ الحيوان، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

٢٣ ـ الخصائص الكبرى، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٤ ـ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ت: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت.

٢٥ ـ دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، ت: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٦ ـ دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، ت: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ودار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٧ ـ الرد على البردة، عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن سلطان بن خميس الملقب بـ«أبابطين»، ت: أبو عبد الأعلى خالد محمد، دار الآثار، ط١.

٢٨ ـ زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري القيرواني، دار الجيل، بيروت.

٢٩ ـ السبعة في القراءات، أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي، ت: شوقي ضيف، دار المعارف ـ مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.

٣٠ ـ سلوة الكئيب بوفاة الحبيب ﷺ، محمد بن عبد الله بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين، ت: صالح يوسف معتوق، هاشم صالح مناع، دار البحوث للدراسات الإسلامية ـ الإمارات.

٣١ ـ سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ١٩٥٢م.

٣٢ ـ سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ت: عزت عبيد الدعاس، نشر محمد علي السيد، حمص، ١٣٨٩هـ.

٣٣ ـ سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، ت: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٣٤ ـ شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ). غير موجود في فهرس المجلد الثامن

٣٥ ـ الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

٣٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي، مع حاشية مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفا، أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٧ ـ الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

٣٨ ـ صحيح البخاري، المسمى: (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)

٣٩ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤٠ ـ الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، ت: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ـ بيروت، ١٤١٩هـ.

٤١ ـ الضعفاء الكبير، أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، عبد المعطي أمين قلعجي، دار المكتبة العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٤٢ ـ الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤٣ ـ العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٤٤ ـ العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن محمد الجوزي، ت: إرشاد الحق الأثري، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، ط٢، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٤٥ ـ العلل لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، ت: فريق من الباحثين، مطابع الحميضي، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٤٦ ـ العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري، مجهول، ت:عبد الله أحمد جاجة، دار اليمامة للطباعة والنشر ـ دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ.

٤٧ ـ عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤١٨هـ.

٤٨ ـ غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة، أبو إسحق برهان الدين محمد ابن إبراهيم بن يحيى بن علي المعروف بالوطواط، ت: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٤٩ ـ غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، ت: د سليمان إبراهيم محمد العايد،: جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٥هـ.

٥٠ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تصحيح: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ.

٥١ ـ القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٦، ١٤١٩هـ.

٥٢ ـ الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني، ت: يحيى مختار الغزاوي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٥٣ ـ الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني، ت: يحيى مختار الغزاوي، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٥٤ ـ الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٥٥ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني، المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٥٦ ـ اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة المعروف بـ(التذكرة في الأحاديث المشتهرة)، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي، ت: د: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥٧ ـ لباب الآداب، أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي، ت: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥٨ ـ لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، ت: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر، ط٣.

٥٩ ـ المجتبى من السنن (المعروف بسنن النسائي الصغرى)، أحمد بن شعيب النسائي، ت: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٦٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، ت:حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م.

٦١ ـ مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، ت:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط٢.

٦٢ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٦٣ ـ مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية ـ الدار النموذجية، بيروت ـ صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٦٤ ـ المختصر في شواذ القرآن لابن خالويه.

٦٥ ـ المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

٦٦ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، ت: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٦٧ ـ المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٦٨ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٦٩ ـ مسند البزار، المسمى باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، ت: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٩م.

٧٠ ـ مسند الشهاب، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، ت:حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

٧١ ـ مصنف عبد الرزاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٧٢ ـ المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ت: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٧٣ ـ المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، ط٢.

٧٤ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، ت: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط١، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

٧٥ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هلموت ريتر، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط٣.

٧٦ ـ المقتضب، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، ت: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب ـ بيروت.

٧٧ ـ نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ت: عبد العزيز الديوبندي الفنجاني، ومحمد يوسف الكاملفوري، ومحمد عوامة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدة ـ السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧٨ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، ت: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٧٩ ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، تصوير دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان.

٨٠ ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية ـ مصر.

٨١ ـ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٤٢٠هـ.

٨٢ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت، ط١، مختلفة التاريخ بحسب الأجزاء.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

***

سَيَصدُرُ قَرِيبًا عَنْ

دار اللباب

مجموع

رسائل العلامة

ابن كمال باشا

المتوفى سنة ٩٤٠هـ

يحوي أكثر من ١٥٠ رسالة في مختلف الفنون

تطبع مجموعة أول مرة مقابلة على عدة نسخ خطية

تحفة اللبيب

في شرح

كتاب التقريب

تأليف

الإمام المجتهد ابن دقيق العيد

أبي الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب القشيري المصري

(٦٢٥ - ٧٠٢ هـ)

يُطبع مُحققاً على ثلاث نسخ خطية

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

محمد خلوف العبد الله

9 786058 323865